

الإمام
الشيخ محمد عبد الحليم محمود



لطائف المنين

للغارق بالله : ابن عطاء الله السكندري



دار المعارف

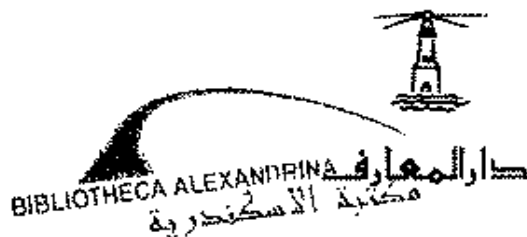


الإمام
الدكتور عبد المحليم محمود

لطائف المنن

تأليف
العارف بالله : ابن عطاء الله الشكندري

الطبعة الثانية



الإهداء

إلى الأخ الفاضل:

الأستاذ عبد الحليم مجاهد - الذى كرم «ابن
عطاء الله السكندري» فشيّد على ضريحه المبارك قبّة
تتناسب مع مكانة صاحبه، وأقام عنده مسجدًا لطيفًا
تشرق على الداخل فيه أنوار الولاية، وأضواء الهداية.

جزى الله الأخ الفاضل أجزل الثواب، ومنحه خير ما
يمنح العاملين للخير ابتغاء وجهه سبحانه.

عبد الحليم محمود

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾

مقدمة المحقق

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:

فإن آثار الهداة المهديين الذين رسموا الطريق عن خبرة، ودعوا إليه على بصيرة، كثيرة. ومن أنفسيها كتاب «لطائف المتن». ألفه الإمام الجليل ابن عطاء الله السكندري، الذي جمع بين رئاسة علوم الشريعة وعلماء الشريعة ورئاسة علوم الحقيقة وعلماء الحقيقة فكان منشراً متحققا، بل رأس علماء التشريع وعلماء التحقيق.

ويقول الإمام أحمد زروق رضى الله عنه:

هو الشيخ الإمام العالم العامل العارف بالله المحقق الكامل أبو الفضل تاج الدين وترجمان العارفين أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله، الجذامي نسباً، المالكي مذهباً، الإسكندري داراً، القاهري مزاراً. توفي بالقاهرة سنة سبعمئة وتسع في جمادى الآخرة، وكان أعجوبة زمانه في التصوف وغيره كما قيل: حلف الزمان ليأتين بمثله حيث يمينك يا زمان فكفر

ويذكر الشيخ زروق من تأليفه:

«التنوير في إسقاط التدبير» و«لطائف المتن» و«تاج العروس» و«مفتاح الفلاح» و«القول المجرد في الاسم المفرد».

أخذ العهد على الإمام الكبير أبي العباس المرسى، الذي قال عنه القطب الشاذلي: «إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض». وقال فيه:

هذا أبو العباس منذ أن عرف الله لم يحجب عنه، ولو طلب الحجاب لم يجده!!
ويقص ابن عطاء الله في كتابه اللطيف الشائق: «لطائف المتن»، قصة صلته بأبي العباس فيقول:

«كنت لأمره (أمر الشيخ أبي العباس) من المنكرين وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه ولا لشيء صح نقله عنه، ولكن جرت المخاصمة بيني وبين أصحابه فقلت فيهم قولاً عظيماً، ثم قلت في نفسي: دعني أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحب الحق له أمارات. لا يخفى شأنه، فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس، ومسألة درجات السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به، وقرهم منه فقال:

الأول إسلام: وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسم الشريعة.

وثانيها الإيمان: وهو مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية.

وثالثها الإحسان: وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب.

وإن شئت قلت: الأول عبادة، والثاني عبودية، والثالث عبودة.

وإن شئت قلت: الأول شريعة، والثاني حقيقة، والثالث تحقق.

فما زال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقلي وسلب لبي، فعلمت أن الرجل يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني: فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادي، ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو، فانفردت في مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبي أشياء لم أعرفها من قبل، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى فأتيت إليه، فاستؤذن لي عليه، فلما دخلت إليه قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً، واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: يا سيدي أنا والله أحبك. فقال: أحبك الله كما أحببتني، ثم شكوت له ما أجده من هموم وأحزان، فقال:

أحوال العبد أربع لا خامسة لها: النعمة والبلية، والطاعة والمعصية، فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك الشكر. وإن كنت في البلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود ميثقه عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار، فقامت من عنده وكأنما كانت الهموم ثوباً نزعته، ثم سألتني بعد ذلك بمدة، كيف حالك؟ فقلت: أفتش عن الهمة فما أجده، فقال:

ليلي بوجهك مشرق وظلامه في الناس ساري
والناس في سُدف السظلا م ونحن في ضوء النهار

الزم، فوالله لئن لزمتم لتكونن مفتياً في المذهبين؛ في علوم الظاهر وحقائق الباطن.

وعن هذه الملازمة يروي ابن عطاء الله القصة التالية، قال:

خرجت يوماً من عند الفقيه مكي بن الدين الأسمر رضى الله عنه، وخرج معي أبو الحسن الجزيري، وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن، فسلمت عليه، فسلم عليّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفني؟

فقال: كيف لا أعرفك؟ كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس وكنت أنت عنده، فلما نزلت قلت له: يا سيدي إنه يعجبني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة وهذا الشاب ملازم، قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن، لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله فكان كما قال الشيخ والله الحمد.

أخذ ابن عطاء الله العهد على أبي العباس، ولازمه، وكانت بينه وبينه أمور توضح شيئاً من صلتها وتلقى بعض الأضواء على سيرته، منها مثلاً ما يدل على أن جد ابن عطاء الله كان فقيهاً معارضاً للترعة الصوفية.

جاء في لطائف المنن: وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ (أبو العباس) يوماً: «إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية فأعلموني به، فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك، فقال: تقدم، فتقدمت بين يديه، ثم قال:

جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبتة قريش، فقال له جبريل (عليه السلام): هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش، فسلم عليه ملك الجبال، وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين فقلت، فقال رسول الله ﷺ:

لا ولكن أرجو أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله ولا يشرك به شيئاً.

فصبر عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم رجاءً من يخرج من أصلابهم، كذلك صبرنا على جد هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه» اهـ.

ولكن الأمور، في الاطمئنان إلى المسلك الصوفي، لم تكن تسير، في كل ظروفها رخاء، فإن ابن عطاء الله كان طالباً محباً للعلم مشغولاً بقراءة الكتب، وبينما هو مندمج في الجو الطلابي إذا بالطلبة يتحدثون عن العلم الظاهر والتصوف، ويروى هو القصة كما يلي:

وكنيت أنا سمعت الطلبة يقولون: من يصحب المشايخ لا يجيء منه في العلم الظاهر شيء، فشق عليّ أن يفوتني العلم، وشق عليّ أن تفوتني صحبة الشيخ رضي الله عنه، فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحماً يخل، فقلت في نفسي: ليت الشيخ يطعمني لقمة من يده، فما استتمت الخاطر إلا وقد دفع في فمي لقمة في يده، ثم قال: نحن إذا صحبنا تاجر ما نقول له: اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له: اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له: اترك طلبك وتعال، ولكن نقر كل أحد قيباً أقامه الله فيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه. وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ، فما قال لتاجر: اترك تجارتك، ولا لذي صنعة اترك صنعتك، بل أقرهم على أسبائهم، وأمرهم بتقوى الله فيها.

ولكن يبدو أن ابن عطاء الله حينها اندمج في جو الأستاذ ولازمه حاول محاولة رده الأستاذ عنها، يقول ابن عطاء الله:

ودخلت أنا عليه يوماً وفي نفسي ترك الأسباب، والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة، فقال من غير أن أهدى له شيئاً:

صحبني يقوص إنسان يقال له: ابن ناشيء وكان مدرساً بها ونائب الحاكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا، فقال: يا سيدي أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل. ثم قال: وهذا شأن الصديقين لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذي يتولى إخراجهم. فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبي وكأنما كانت ثوباً نزعته ورضيت عن الله فيما أقامني فيه.

ولقد قدر الإمام أبو العباس تلميذه النابه، وتبني قيادته إلى المكانة الجدير بها، ويشير إلى ذلك

القصتان التاليتان، يقول ابن عطاء الله:

«وكنيت قلت لبعض أصحاب الشيخ: أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية، وجعلنى في خاطره، فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه قال:

لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا في خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ في خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أى شيء تريد أن تكون؟ والله ليكون لك شأن، والله ليكون لك شأن عظيم، والله ليكون لك كذا، والله ليكون لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله: ليكون لك شأن عظيم، فكان من فضل الله سبحانه ما لا تنكره».

ويقول: وأخبرنى سيدى جمال الدين، ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ: هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله في الفقه، فقال الشيخ:

هم يصدرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصوف، ودخلت أنا عليه فقال لى:

إذا عوفى الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدك، ويجلس الفقيه من ناحية، وأنا من ناحية، وتتكلم إن شاء الله في العلمين، فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

وابن عطاء الله هو الذى كان له الفضل الكبير في بيان كثير مما يعرفه الآن من آثار أبى العباس المرسى.

وفي بيان الكثير أيضاً مما تعرفه عن القطب الكبير الحجة أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وابن عطاء الله هو الذى جتد قلمه للدعوة إلى طريق الله فكتب هذه الدرر التى تركها مصابيح وأنجماً تهدى السائرين إلى الله تعالى.

والكتاب الذى تقدمه الآن كتاب مبارك، إذ إنه يتحدث عن شخصيتين هما في القمة من السمو الروحى: إنه يتحدث عن الإمام الكبير أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، وعن الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.

وما كان الوصول إلى القمة في السمو الروحى - في يوم من الأيام - سهلاً ميسوراً، كلاً، وإنما له ثمنه الباهظ من مجاهدة النفس، ومن قيام الليل، وصيام النهار، والعمل في كل لحظة لمرضاة الله سبحانه.

ولقد كافح كل منها في سبيل الله طيلة حياته.

أما أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فقد بدأ حياته بأمرين لا بدّ منها لكل من يريد سلوك طريق الله وهما:

١ - العلم.

٢ - العبادة.

أما العلم فلا نه لابد من التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلا لما أفلح السالك أبداً.
والتأسي برسول الله ﷺ لابد له من دراسة السنة دراسة متمعة.
ودراسة السيرة النبوية دراسة متأقمة.

ورسول الله ﷺ كان شعاره، وكان طابعه، وكان أساسه، وكانت وجهته: كتاب الله سبحانه: ومن هنا كان لابد للقرب من الله تعالى، من اتخاذ القرآن شعاراً وطابعاً وأساساً ووجهة.
وقد درس كل ذلك أبو الحسن الشاذلي أحسن وأجمل ما تكون الدراسة فكان عالماً قمتاً في العلم.

وكانت له كتب مفضلة يداوم على دراستها لتلاميذه ومريديه ومن هذه الكتب:

١ - كتاب «إحياء علوم الدين» وهو كتاب ألفه الإمام الغزالي في فترة خلوته وفي أيام عبادته وقربه من الله تعالى. إنه ثمرة من ثمار القرب، وهو من خير ما يتخذ الإنسان من الذخائر. ويقول عنه الإمام النووي:
«كاد الإحياء يكون قرآناً».

وذلك أنه يستمد من القرآن. والإمام النووي حجة في السنة وحجة في الفقه وكلمته لها وزنها الكبير. كان أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه يقرأ هذا الكتاب ويدرسه لتلاميذه.
٢ - كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي وهو كتاب ينص الإمام الغزالي على أنه من الكتب التي قرأها وهو يصدد السلوك الصوفي، ويقول عنه أبو الحسن: القوت: قوت، ويقول عنه: القوت يفيد النور، كان أبو الحسن يقرؤه ويُدْرُسُه.

٣ - كتاب «الرسالة القشيرية» وهو الكتاب الذي يعتبر دستور الصوفية، وقد ألفه الإمام القشيري: لا لهدف المعرفة فحسب، وإنما ليكون ميزاناً للصوفية ومقياساً لأعمالهم ويقول في ذلك:
«ثم اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقض أكثرهم، ولم يبق في زماننا هذا من هذه الطائفة إلا أثرهم كما قيل:

أما الحيام فسينها كخيامهم وأرى نساء الحى غير نسائها

حصلت الفترة (٢) في هذه الطريقة. لا بل اندرست (٣) الطريقة بالحقيقة. مضى الشيوخ الذين كان بهم الاقتداء، وقيل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم وسنتهم اقتداء، وزال الورع وطوي بساطه. واشتد الطمع وقوى رباطه.

وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة، فعُدوا قلة الميلاة بالدينأوتق ذريعة. ورفضت التمييز بين الحلال والحرام، ودانوا بترك الاحترام وطرح الاحتشام، واستخفوا بأداء العبادات، واستهانوا

(٣) اندرست: زالت وبهت.

(١) ص ٢٧ من الرسالة القشيرية.

(٢) الفترة: التراخي والتفريط.

بالصوم والصلاة، وركضوا في ميدان الففلات، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات، والارتفاق^(٤) بما يأخذونه من السوق والنسوان وأصحاب السلطان.

ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال، وأدعوا أنهم تحرروا عن رِقِّ الأغلال، وتحققوا بحقائق الوصال، وأنهم قانمون بالحق، تجري عليهم أحكامه، وهم محو وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم، وأنهم كُوشفوا بأسرار الأحدية، واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية، والمقاتل عنهم غيرهم إذا نطقوا، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا بل صرّفوا..

ولما طال الابتلاء فيها نحن فيه من الزمان بما لوّحت ببعضه من هذه القصة وكنت لا أبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار، غير على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء، أو يبيد مخالف لثلبهم مساعاً، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة.

ولما كنت أوّل من مادة هذه الفترة أن تنحيسم ولعل الله سبحانه يحجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثل في توضيح آداب هذه الطريقة.

ولما أي الوقت إلا استصعباً، وأي أكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تقادياً فيها اعتادوه واغتراراً بما ارتادوه..

أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر - على هذه الجملة^(٥) - بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه:

فعلقت هذه الرسالة إليكم، أكرمكم الله. وذكرت فيها بعض سير شيوخ هذه الطريقة في آدابهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم، وما أشاروا إليه من مواجيدهم، وكيفية ترقّيتهم من بدايتهم إلى نهايتهم، لتكون لمريدي هذه الطريقة قوة، ومنكم لي بتصحيحها شهادة، ولي في نشر هذه الشكوى سلوة، ومن الله الكريم فضلاً ومنوبة. وأستعين بالله سبحانه فيما أذكره وأستكفيه، وأستعصم من الخطأ فيه، وأستغفره وأستعفيه^(٦)، وهو بالفضل جدير وعلى ما يشاء قدير» اهـ.

وهذه الرسالة كتاب موفق كل التوفيق، قسمه مؤلفه إلى أربعة أقسام معرفتها ضرورية لكل سالك.

القسم الأول: قسم العقائد، ذكر فيه للمؤلف عقائد الصوفية من أقوالهم وبين بما لا لبس فيه أنها هي نفس عقائد أهل السنة.

والقسم الثاني: ذكر فيه تراجم كبيرة من أعلام التصوف حتى يكونوا مثلاً يحتذيها السائرون إلى الله.

والقسم الثالث: تحدث فيه عن مصطلحات الصوفية، وللتصوف مصطلحاته الخاصة به كما أن لكل فن مصطلحاته. والواقع أن عدم فهم بعض الناس لمصطلحات الصوفية هو الذي يوقعهم في

(٦) أطلب العفو ردة عن الخطأ.

(٤) الانتفاع.

(٥) جملة مزاعمهم وادعاءاتهم.

عدم فهم التصوف، ولو فهمت هذه المصطلحات من أمثال: الزهد والتوكل والفناء والحقيقة والشرعة وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. إلخ. أقول: لو فهمت هذه المصطلحات ونحوه على حقيقتها لما كان هناك سوء فهم للتصوف، وهذا القسم من أهم الأقسام.

أما القسم الرابع: فإنه في بيان المقامات التي يتدرج الإنسان فيها من مقام روحى إلى مقام أسمى حتى يصل إلى أسمى المقامات الروحية.

ثم يكون الحديث عن الشيخ وسماته وعن المريد وآدابه.

كان أبو الحسن يقرأ هذا الكتاب ويدرسه.

وهذا الكتاب هو الذى كان يقرؤه مع كبار العلماء في أثناء الليالي التي دارت فيها معركة المنصورة الشهيرة. وذلك حينما كانوا يفرغون من أمور الجيش والحرب، ويأوون إلى خيمة من خيام الجيش: يصلّون ويدعون ويبتهلون إلى الله داعين بالنصر، ثم يتحدثون في العلم ويقرءون الرسالة القشيرية.

٤ - وكان أبو الحسن رضى الله عنه يقرأ لتلاميذه كتاب «الشفاء» للقاضى عياض في السيرة النبوية وهو من أحسن ما كتبت فيها.

٥ - وكان يدرس لمريديه كتاب «ختم الأولياء» وهو من الكتب التي أثارت ثورة في الفكر الإسلامى وفي الجو الروحى وقد طبع في لبنان للمرة الثانية.

٦ - أما في التفسير فكان الإمام يدرس لمريديه كتاب «المحرر الوجيز» وهو كتاب أقرّ بفضلته، القدماء والمتأخرون، وقد أعيد للطبع من عدة جهات، ونرجو الله سبحانه أن ييسر طبعه.

٧ - وكان الشيخ رضى الله عنه يدرس للمتعمقين المتخصصين كتاب «المواقف» وهو من الكتب التي تحتاج إلى استعداد خاص.

وكان يدرس غير ذلك، وما أردنا الاستقصاء وإنما أردنا أن نبين أن التصوف الصادق يعنى بالجانب العلمى عناية كريمة، ويعنى بصفوة من الكتب التي تسير على النسق السلفى الكريم، ولقد سار أبو العباس على نسق أستاذه، وكانت هذه الكتب وغيرها مما يدرس لمريديه. يقول ابن عطاء الله:

وكان كتابه في أصول الدين: «الإرشاد».

وفي الحديث كتاب «المصابيح».

وفي الفقه كتاب «التهذيب» و«الرسالة».

وفي التفسير كتاب «ابن عطية».

أما فيما يتعلّق بالصلة التي بين أبي الحسن وأبي العباس رضى الله عنها فتصوّرها خير تصوير لرؤيا الآتية:

يقول ابن عطاء الله: أخبرنى بعض أصحابنا قال:

رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقرافة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء، وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلى ينزل من السماء والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجليه في الأرض وتهيأ لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه ودخل من رأسه حتى غاب فيه.. راستيقظت.

في هذه الرؤيا أمور:

١ - أبو الحسن ينزل من السماء.

٢ - عليه ثياب بيض.

٣ - أبو العباس يتهيأ لاستقباله، ويثبت رجليه في الأرض.

٤ - يدخل أبو الحسن من رأسه ويغيب فيه.

ومعنى الرؤيا أن أبا الحسن وأبا العباس امتزجا حتى أصبحا كائنا واحداً أى أن أبا العباس استمرار لأبى الحسن.

وهذه رؤيا معبرة كل التعبير عن الواقع. وكل ما يقال عن أبى الحسن من آراء يمكنك أن تقول في يقين: إن أبا العباس لا يخالفه والعكس صادق. عن هذين الإمامين كان كتاب لطائف المتن.

وعهدى بكتاب «لطائف المتن» عهد قديم: فقد قرأته قراءة متأنية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، ثم قرأته مرة ثانية حينما شرعت في الإعداد للكتابة عن الإمام أبى العباس المرسى، رضى الله عنه ورجعت إليه أكثر من مرة بعد ذلك لظروف ومناسبات عدة منها مثلاً: حينما كتبت كلمات عن الإمام المؤلف للكتاب: ابن عطاء الله السكندرى (رضى الله عنه) عند نشر شرح الحكم للإمام ابن غياد، وعند نشر شرح الحكم للإمام أحمد زروق. وفي كل مرة قرأته أو رجعت إليه كنت أتمنى لو خرج هذا الكتاب إلى الناس، في طبعة مبسرة: تحقيقاً وتعليقاً.

والأمور مرهونة بأوقاتها ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله﴾.

وتحضى السنون والكتاب دائماً في متناول يدي أقلب صفحاته الفينة بعد الفينة، ثم أضعه في مكانه حتى شاء الله سبحانه أن يكون ظهور الكتاب عند افتتاح مسجد ابن عطاء الله السكندرى. لقد كان ضريح ابن عطاء الله السكندرى على صورة لا تتناسب مع مكانته، وكان الزائر له لا يكاد يهتدى إلى مكانه، واستمر ذلك قروناً إلى أن وجه الله سبحانه الرجل الصالح عبد الحليم مجاهد - الذى يحيط به الخير أينما سار، ويفيض عنه سهلاً مبسراً - إلى بناء مسجد يتناسب ومكانة ابن عطاء الله السكندرى، وبني المسجد مباركاً مشرقاً، وأُتْلج ذلك صدور الصالحين عموماً والشاذلية

خصوصاً، فجزى الله الأخ عبد الحليم مجاهد غير الجزاء، وأثابه على ما قدم أجزل الثواب، ووفقه الله دائماً لصالح الأعمال.

وإننا حين نقدم هذا الكتاب فإنما نقدم كتاباً من النوع النفيس الذي يقرؤه القارىء فينعم بأسلوب جميل، ويستفيد علماً نافعاً، وهكذا كتب ابن عطاء الله السكندري: إنها في أساليبها تتسم بالفصاحة، وفي معانيها تتسم بالنفاسة، وهي بأسلوبها ومعانيها تثير عندها روحانية هي سمة مؤلفات أولياء الله، وإذا كان أولياء الله هم الذين إذا رؤوا ذكر الله: فإن مؤلفاتهم حينها تقرأ فإنها تهدي إلى الله وتقود إليه سبحانه، ولقد قال أبو الحسن الشاذلي رضوان الله عليه: كتاب الإحياء يفيد العلم، وكتاب قوت القلوب يفيد النور، وكلاهما يفيدان العلم والنور، وكذلك الأمر في كتب ابن عطاء الله: إنها تفيد العلم والنور، وتفيد لذة تذوق الأسلوب الجميل. وإذا كان أسلوب ابن عطاء الله قد بلغ القمة في كتابه الحكم حتى ليقول الشيخ محمد عبده:

«كاد كتاب الحكم يكون قرأناً».

فإن أسلوبه في بنية كتبه هو من الأساليب الممتازة في البلاغة: كلامه جواهر، وجواهره لآلئ ولآلئه ماس، وماسه من النوع النادر.

ولقد بلغ ابن عطاء الله القمة: أسلوباً ومعنى في مناجاته التي يقرؤها الصالحون قبيل الفجر فيجدون تمرتها إشراقاً في صدورهم ونوراً في قلوبهم.

ولا يفوتنا ونحن بصدد الكتابة عن ابن عطاء الله أن نتوج كلمتنا عنه بهذه المناجاة الممتعة الرائعة:

مناجاة

إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى؟
إلهى أنا الجهول فى علمى فكيف لا أكون جهولاً فى جهلى؟
إلهى إن اختلاف تدبيرك، وسرعة حلول مقاديرك: متعا عبادك العارفين بك عن السكون إلى عطاء والياس منك فى بلاء.

إلهى منى ما يلىق يلؤمى ومنك ما يلىق بكرمك.
إلهى وصفت نفسك اللطف والرافة فى قبل وجود ضعفى أفتمنعنى منها بعد وجود ضعفى؟
إلهى إن ظهرت المحاسن منى فيفضلك ولك المنة على، وإن ظهرت المساوئ منى فيعدلك ولك الحجة على.

إلهى كيف تكلنى إلى نفسى وقد توكلت فى؟ وكيف أضام وأنت النصير لى؟ أم كيف أخيب وأنت الحفيظ فى؟ ها أنا أتوسل إليك يفقرى إليك، وكيف أتوسل إليك بما هو محال أن يصل إليك؟ أم كيف أشكو إليك حالى وهى لا تحفى عليك؟ أم كيف أترجم لك بمقالى وهو منك برز إليك؟ أم كيف تحيب آمالى وهى قد وفدت إليك؟ أم كيف لا تحسن أحوالى وبك قامت وإليك؟

إلهى ما أنطقك فى مع عظيم جهلى، وما أرحمك فى مع قبيح فعلى؟
إلهى ما أقربك منى وما أبعدنى عنك؟
إلهى ما أرافك فى فما الذى يحجبنى عنك؟
إلهى قد علمت باختلاف الآثار وتنقلات الأطوار أن مرادك منى أن تتعرف لى فى كل شىء حتى لا أجهلك فى شىء.

إلهى كلاً أخرسى لؤمى أنطقى كرمك، وكلما أياستنى أوصافى أطمعنى بمنك.
إلهى من كانت محاسنه مساوئ فكيف لا تكون مساوئه مساوئ؟ ومن كانت حقائقه دعاوى فكيف لا تكون دعاويه دعاوى؟

إلهى حكمك النافذ ومشيتك القاهرة لم يتركاً لذى مقال مقالاً ولا لذى حال حالاً.
إلهى كم من طاعة بنيتها وحالة شيدتها هدم اعتمادى عليها عدلك، بل أقالنى منها فضلك.
إلهى إنك تعلم وإن لم تدم الطاعة منى فعلاً جزماً فقد دامت محبة وعزماً.
إلهى كيف أعزم وأنت القاهر، وكيف لا أعزم وأنت الأمر.

إلهى ترددى إليك فى الآثار يوجب بعد المزار فاجمعنى عليك بخدمة توصلى إليك.
إلهى كيف يُستدل عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أهلكون لغيرك من الظهور ما ليس لك

حتى يكون هو المظهر لك؟ متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك.

إلهي غيمت عين لا تراك عليها قريباً رقيقاً، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيباً؟
إلهي أمرت بالرجوع إلى الآثار فارجعني إليها بكسوة الأنوار وهداية الاستبصار؛ حتى أرجع إليك منها كما دخلت إليك منها مصون السر عن النظر إليها ومرفوع الهمة عن الاعتماد عليها، إنك على كل شيء قدير.

إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك، منك أطلب الوصول إليك؛ وبك أستدل عليك؛ فاهدني بنورك إليك، وأقمني بصدق العبودية بين يديك.
إلهي علمني من علمك المخزون وصني بسر اسمك المصون.

إلهي حققني بحقائق أهل القرب، واسلك بي مسالك أهل الجذب.
إلهي اغني بتدبيرك عن تدبيرى وباختيارك لي عن اختياري، وأوقفني على مراكز اضطراري.
إلهي أخرجني من ذل نفسي، وطهرني من شكي وشركي قبل حلول رمسي، بك أستنصر..
فانصرني، وعليك أتوكل فلا تكلني، ولجنايك أنتسب فلا تبعني، وبهايك أقف فلا تطردني، وإياك أسأل فلا تخيبي، وفي فضلك أرغب فلا تحرمي.

إلهي تقدس رضاك أن تكون له علة منك فكيف تكون له علة مني؟ أنت الغنى بذاتك عن أن يصل إليك النفع منك فكيف لا تكون غنياً عني؟

إلهي إن القضاء والقدر غلبني، وإن الهوى يوثاق الشهوة أسرني، فكأن أنت النصير لي حتى تنصرني في نفسي وتنصر بي، وأغني بجودك حتى أستغني بك عن طلبي، أنت الذي أزلت الأغيار من قلوب أحبائك حتى لم يحبوا سواك ولم يلجئوا إلى غيرك أنت المؤمن لهم حيث أوحشتهم العوالم، وأنت الذي هديتهم حتى استبان لهم المعالم، ماذا وجد من فقدك، وما الذي فقد من وجدك؟ لقد خاب من رضى دونك بدلاً، ولقد خسر من بغى عنك جواً.

إلهي كيف يرجى سواك وأنت الذي ما قطعت الإحسان؟ وكيف يطلب من غيرك وأنت ما بذلت عادة الامتنان؟ يا من أذاق أحبائه حلاوة مؤانسته فقاموا بين يديه متعلقين، وبامن ألبس أوليائه ملابس هيئته فقاموا بهزته مستعزين، أنت الذاكر من قبل ذكر الذاكرين، وأنت البادئ بالإحسان من قبل توجه العابدين وأنت الجواد بالعطايا من قبل طلب الطالبين، وأنت الوهاب ثم أنت إلنا وهبتنا من المستقرضين.

إلهي اطلبني برحمتك حتى أصل إليك، واجذبني بمبتك حتى أقبل عليك.
إلهي إن رجائي لا ينقطع عنك وإن عصيتك، كما أن خوفي لا يزيلني وإن أعطتك.
إلهي قد دفعتني العوالم إليك وقد أوقفني علمي بكرمك عليك.
إلهي كيف أخيب وأنت أمل؟ أم كيف أهان وعليك متكلى؟

إلهي كيف أستعزّ وفي الذلّة أركزتي؟ أم كيف لا أستعز وإليك نسبي؟
 إلهي كيف لا أفتقر وأنت الذي في الفقر أفتقي؟ أم كيف أفتقر وأنت الذي بجودك
 أنت الذي لا إله غيرك، تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء، وتعرفت إلى في كل شيء
 ظاهراً في كل شيء، فأنت الظاهر لكل شيء، يامن استوى برحانيته على عرشه فصار الـ
 في رحانيته كما صارت العوالم غيباً في عرشه، محقت الأنوار بالآثار، ومحوت الأغيار بمحيه
 الأنوار، يامن احتجب في سرادقات عزّه عن أن تدركه الأبصار، يامن تجلّى بكمال بهاء
 عظمته الأسرار، كيف تخفى وأنت الظاهر؟ أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر؟
 وبعد: فلقد لازم ابن عطاء الله أستاذة أبا العباس رضى الله عنهما، ثم كان من
 الطريقة الشاذلية إلى أن توفى في جمادى الآخرة سنة ٧٠٩.
 وأما بعد: قاله أرجو أن يهدي لهذا الكتاب وأن يهدي به إنه سميع قريب مجيب، وصل
 سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه إلى يوم الدين.

كِتَاب لطائف المتن

في مناقب علم المهتدين، وقدوة السالكين، سيدى أبى
العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى وشيخه قطب
الأقطاب، ودستور عوارف المعارف بلا ارتياب سيدى أبى
الحسن الشاذلى.

تأليف

شيخ الحقيقة، وإمام الطريقة، الشيخ الإمام تاج الدين أبى الفضل أحمد ابن الشيخ
الهام فخر الدين أبى بكر محمد ابن الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين أبى محمد
عبد الكريم بن عطاء الله رضى الله عنهم أجمعين، ونفعنا بهم آمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذى فتح لأوليائه^(١) باب محبته، وأنشط نفوسهم من عقال القطيعة^(٢)، فقاموا

(١) إن من الأهمية بمكان - فى ابتداء هذا الكتاب المبارك - أن نتحدث عن الولاية، وذلك أن المؤلف رضى الله عنه يتحدث عن الولاية نظرياً بكلام غاية فى النفاسة، ويذكر كرامات وقعت بالفعل لكثير من الأولياء. وليس لأحد أن يتدع نعيماً للولاية بعد تحديد الله سبحانه وتعالى لها، إنه سبحانه وتعالى يقول عن الأولياء، إنهم: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ولقد أبان الله سبحانه وتعالى رعايته لهم، وعنايته بهم، فقال سبحانه:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

وزاد سبحانه وتعالى تفضلاً بالنسبة لهم فقال: ﴿لهم البشري فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾.

ثم أكد سبحانه ذلك بقوله تعالى: ﴿لا تبدل لكلمات الله﴾!

ثم بين نفاسة الثمار التى تجتنب من الولاية فقال: ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ (يونس: الآيات ٦٢-٦٤).

وإن كل حديث عن الولاية إنما هو تفسير لهذه الآيات الكريمة، ومن ذلك الحديث القدسي الذى رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال:

«من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألني أعطيتُه، ولن استعاضق لأعبدته» ومعنى آذنته بالحرب: (أعلنته بأنى محارب له) ومن ذلك ما يقوله صاحب كتاب: (أنس الفقير) - ننقله هنا - لأنه يعبر تمييزاً كاملاً عن وجهة نظرنا فى هذا الموضوع - يقول: (فأما صفة الولي، فقد دل - رسول الله ﷺ - على صفة الأولياء فقال:

«الذين إذا رؤوا ذكر الله عز وجل» (سنن ابن ماجه والحلية ٦١).

وفى هذا الحديث الشريف من الدلالة عليهم كفاية تامة، فأولياء الله تعالى: «الذين إذا رآهم المؤمن عظم ربه، وذكر ذنبه، ويقول:

«واعلم أن من امتثل أوامر الله تعالى، واجتنب نواهيه، ورزق الخوف من الله تعالى، لا من خلقه، واجتهد فى طاعته - جل وعلا - وبحث عن أمر كسبه ووقف عندما حذره، ورجع عن كل ما لا يعلم حكمه: فهو الصالح.

وأعلى درجة من هذا: حصول الورع التام، وترك الطمع، وبغض الدنيا ومن تمسك بها، والقرار من دواعيها، ومن أهلها، والقبض باليسير منها. ودرجات الصالحين تختلف بالترقى فى ذلك على حسب العناية من الله تعالى..

واعلم أن الكرامة ليست من شرط حصول الولاية، فقد تحصل الكرامة، لكن إن وقعت لولى، فهي دالة على صدق عبادته، وعلو مكانته، بشرط أتباعه للحقيقة ما أمر به التنبى عليه السلام، وإلا فهي خذلان من الشيطان، ومن الصالحين من يعلم بولايته، ويعلم غيره بها، ومنهم من لا يعلم بنفسه، ولا يعلم به، ومنهم من يعلم به، ولا يعلم هو بنفسه، والعالمون بها: منهم من يكتمها جهداً استطاعته، ومنهم من يظهرها ويصرح بها» اهـ.

«لا يستدل على الولي بالكرامة لاحتمال أن تكون من الشيطان، وإفا يستدل على صدق الكرامة بصحة الولاية».

وكرامات الصحابة والتابعين لا تكاد تحصى:

ففى البخارى أن رجلين غربا من عند رسول الله ﷺ فى ليلة مظلمة، فإذا النور بين أيديهما حتى تفرقا، فتفرق النور معهما! وفى البخارى - أيضاً - أن عمران بن حصين كانت تكلمه الملائكة.

وتأدى عمر بن الخطاب: «ياسارية الجبل» يحضه على الرجوع إلى الجبل حذراً من العدو، وبينها مسيرة أيام، فرآه وسمعه

سارية، فرجع إلى الجبل وسلم من العدو.

(٢) أى حل نفوسهم وفكها من أسر المعاصى التى تقطع الصلة بينهم وبينه.

بوجوب خدمته، وأمدّ عقولهم بنوره، فعاينت عجائب قدرته، وحرس قلوبهم من الأغيار^(٣)، وبما
منها صور الآثار حتى ظفرت بعرفته^(٤)

كشف لأرواحهم عن قدس كماله، ونعوت جلاله، فهم سبايا حضرته^(٥).

متع أسرارهم بقرينه، بختلفات جذبه، فتحققوا بشهود أحدثته.

أخذهم منهم، وأفناهم عنهم، ففرقوا في بحر هويته.

فرّق جيوش التفرقة بكتائب الجمع^(٦) لأهل خصوصيته، ونهى جمى الأسرار بمدد الأنوار أن
يكون مظهرًا لغير فرديته^(٧)

أطلع كواكب العلوم في سماء الفهوم تهدي السائرين لحضرة ربوبيته، وأضاء قمر التوحيد في
بيداء التفريد، فانطوت الكائنات في وجود أزليته، وما كانت معه في أزله^(٨) حتى تكون معه في
أبديته، بل هو الأول والآخر لا بالإضافة لبريته، والظاهر والباطن كذلك، وما الكون حتى يقاس
بقدوسيته^(٩)

أحمده والحمد واجب لصفات جلاله وعظمته.

وأشكره، والشكر مستحق له بأسباب نعمته.

وأرجوه، وكيف لا أرجوه، وهو الذي وسع كل شيء برحمته^(١٠)، وغمر العباد في الغيب والشهادة
بطوائل منته.

وأعترف له بالتقصير عن القيام بحقوق أحدثته.

واعلم أنه لا يحاط بذاته وصفته.

ليس للعبد منه إلا ما من به عليه، ولا يضاف له من المحاسن إلا ما أضافه إليه^(١١)، ولا يتتصر

(٣) الأغيار - أو ما يعبر عنه - بـ (السوى) هو: كل ما سوى الله سبحانه وتعالى.

وأولياء الله سبحانه وتعالى لا يستعبد قلوبهم صنم من الأصنام الكثيرة التي تمثل في شهوة أو جاه أو ثراء وقلوبهم ملأى بالله
سبحانه.

(٤) سبايا: أسرى.

(٥) ما يجري في كلام الصوفية كثيرًا: «الجمع والتفرقة». قال الأستاذ أبو علي الدقاق: الفرق ما نسب إليك، والجمع
ما سلب عنك، ومعناه: أن ما يكون كسيًا للعبد من إقامة العبودية، وما يليق بأحوال البشرية، فهو الفرق،
وما يكون من قبل الحق: من إبداء معان. وإسداء لطف وإحسان فهو جمع، هذا أدنى أحوالهم في الجمع والفرق؛ لأنه من شهود
الأحوال. فمن أشهد الحق سبحانه أفعاله عن طاعته ومخالفاته، فهو عبد بوصف التفرقة، ومن أشهد الحق - سبحانه -
ما يوليه من أفعال نفسه سبحانه، فهو عبد بشاهد الجمع.

(٦) وقد روى البخاري مقدم أهل اليمن لرسول الله ﷺ بعد قبولهم الإسلام وقولهم له ﷺ: جئنا نسألك عن - أول -
هذا الأمر ما كان. فقال ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره - وفي رواية ولم يكن شيء قبله - وكان عرشه على الماء، وكتب في
الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض - وذكر في فتح الباري أن بعض الروايات فيها: كان الله ولا شيء معه.. ويستفاد من
هذه الروايات وغيرها أن الله سبحانه كان. ولا عرش ولا كرسي، ولا ماء، ولا كون - وكل ما يقال عن قدم العرش أو
الكرسي فهو من الأباطيل.

(٧) قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء﴾.

(٨) إن الإنسان في كل ما يتعلق بالله سبحانه، ذاتا وصفات - يجب عليه أن يلتزم التزامًا كاملاً بما ورد في الآثار الصحيحة،

في المصادر والموارد إلا بالتوكل عليه.

العزیز القادر، الحكيم القاهر، الرقيب على فعل كل فاعل، ونظر كل ناظر، لا يخفى عليه ما في الضمائر، ولا يعزب عن علمه مستكنات السرائر، أظهر في ملكه حكمته، وفي مكتوبه قدرته، وتعرف لكل شيء، فلا شيء يجحد ربوبيته، ﴿ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾^(٩).
وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وكل شيء يشهد بأحديته في ألوهيته.
وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المصطفى من خليفته المشهود له في الغيب والشهادة بكمال خصوصيته، القائم لمولاه بكمال الوفاء في عبوديته، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، صلاة تدوم بدوام أبديته وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فلئن قصدت في هذا الكتاب أن أذكر جملاً من فضائل سيدنا ومولانا الإمام: قطب العارفين، علم المهتدين، حجة الصوفية، مرشد السالكين منقذ الهالكين، الجامع بين علم الأسياء والحروف والدوائر، المتكلم بنور بصيرته الكاملة على السرائر، كهف الموقنين، ونخبة الواصلين، مظهر شمس المعارف بعد غروبها، ومبدئ أسرار اللطائف بعد عزوبها^(١٠) الواصل إلى الله، والموصل إليه:

«شهاب الدين: أبي العباس بن عمر الأنصاري المرسى».

أسكنه الله حظيرة قدسه، ومتمعه - على مر الساعات - بموارد أنسه، وأذكر شيخه الذي أخذ عنه، ومنازلاته^(١١) التي نقلت عنه، أو سمعها منه، وكراماته، وعلومه وأسراره، ومعاملاته مع الله سبحانه وتعالى، وما قاله من تفسير آية من كتاب الله عز وجل، أو إظهار لمعنى خير نقل عن رسول الله ﷺ، أو كلام على حقيقة - نقلت عن أحد من أهل الطريق - أشكل معناها، ولم يفهم مغزاها، وما نقله عن شيخه الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، وما قاله هو من الشعر، أو قيل بحضرته، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر الطريق وأهلها؛ وأنقل ما يمكن إثباته من أخباره كثيرها وقليلها.

وكان أصحاب الشيخ الإمام القطب أبي الحسن - قدس الله روحه - قد أثبتوا جملاً من كلامه، وإن كان هو - رضي الله عنه - لم يضع كتاباً؛ وقد بلغني عنه أنه قيل له:
يا سيدي لم لا تضع الكتب في الدلالة على الله تعالى وعلوم القوم؟

«فقد بلغ رسول الله ﷺ كل ما يحتاج الإنسان إليه في أمر العقيدة، ولم يختلف المسلمون إلا عندما تعدوا النصوص، وأخذوا يقولون بأرائهم، أو أخذوا يضيفون إلى النصوص من عند أنفسهم، وكل ما يتصل بالذات أو الصفات يجب الإيمان به، على مراد الله فيه، فمثلاً حينما يقول الله سبحانه:

﴿يد الله فوق أيديهم﴾.

تقول فيها: إنا نؤمن بها على مراد الله سبحانه - وقوله تعالى:

﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

تقول فيها: إنا نؤمن بها على مراد الله فيها، وكل ما يتأتى من تأويل أو خروج عن هذا الموقف فإنه ليس سبيل أسلافنا - رضوان الله عليهم - وكلام المؤلف في ذلك من أحكم ما قيل.

فقال رضى الله عنه: كفى أصحابي!

كذلك شيخنا أبو العباس - رضى الله عنه - لم يضع في هذا الشأن كتاباً. والسبب في ذلك: أن علوم هذه الطائفة علوم التحقيق، وهي لا تتحملها عقول الخلق.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس - رضى الله عنه - يقول:

جميع ما في كتب القوم عبرات دموع من سواحل من بحر التحقيق!

ولا أعلم أن أحداً من أصحاب شيخنا أبي العباس رضى الله عنه تصدى إلى جمع كلامه، وذكر مناقبه وأسرار علومه وغرائبه، فحداني ذلك إلى وضع هذا الكتاب بعد أن استخرت الله تعالى وطلبت منه المعونة وهو خير معين، وسألته أن يهديني إلى الصراط المستبين..

وقسمته إلى مقدمة، وعشرة أبواب، وخاتمة:

أما المقدمة فتشتمل على إقامة الدليل على أن نبينا محمداً ﷺ أفضل بنى آدم، بل أفضل البشر، بل أفضل الخلق كافة (١٢) ..

وأفردت كل مقام بإقامة الدليل عليه من كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ، وبينت أن مدد الأولياء من الحقيقة المحمدية (١٣)، وأن الأولياء إنما هم مظاهر أنوار النبوة (١٤) ومطالع شوارقها..

(١٢) يقول الله تعالى: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.

والتقوى درجات، وأساسها اتقاء الشرك. ثم اتقاء المعاصي. ثم اتقاء الغفلات ثم اتقاء الخطرات. والدرجة العليا هي «أن يسلم لله قلبك» «وأن يسلم لله قلبك» في كمالها وقامها لم تكن إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم. وصورتها الصافية الصادقة هي ما عبر الله سبحانه وتعالى عنها بقوله لرسوله ﷺ:

﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَنَسَكْتُ وَجِئْتُ بِمَا يَرْضَى رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾. وهذه الدرجة لم يبلغها نبي مرسل فضلاً عن عامة البشر، إنها خاصة برسول الله ﷺ، ومن هنا كان أفضل الخلق على الإطلاق.

وكان العالم ناقصاً قبل وجوده ﷺ، فلما وجد كمل العالم.. إنه ﷺ (اللينة) التي كان قبل الملك في حاجة إليها ليكمل. قال ﷺ في الحديث الصحيح:

«مثل ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بناطناً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه. فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة. فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين».

أخرجه: البخاري ومسلم والإمام أحمد والترمذي - مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(١٣) يتحدث كثير من الناس عن (الحقيقة المحمدية)؛ ويتساءل كثير من الناس عن هذه الحقيقة: ما هي؟ وينكر بعض الناس هذه الكلمة، أو على الأقل يجادل فيها ويغاري!

والواقع أن الأمر أبسر من أن يثير نقاشاً، وأوضح من أن يكون مصدر مراءاة أو إنكار.

فالحقيقة المحمدية هي: النبوة ومحمد ﷺ: حقيقته نبوته، وهذه النبوة في علم الله منذ الأزل، قدرها الله سبحانه وتعالى بحكمته قبل خلق الكون، وقبل وجود العالم.

وعلى هذا الأساس يمكنك أن تقول:

إن الحقيقة المحمدية أزلية أو قديمة، وتقصد أنها كذلك في علم الله، ويمكنك أن تقول: إن الحقيقة المحمدية حادثة، وذلك يوم بعثته أي سنة ثلاث عشرة قبل الهجرة عندما أشرق فجر الهداية الخاتمة وبدأ النور يشرق مستنقلاً به ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾ والأمر على هذا الوضع لا يثير عاراً ولا إنكاراً - والله أعلم.

(١٤) إن تفسيرنا السابق للحقيقة المحمدية يتناقض - كما يرى القارئ - مع كلام المؤلف عن الأولياء.

وأعلمت أن أنوار الولاية دائمة الثبوت لزوم دوام أنوار النبوة. وذكرت الفرق بين الرسالة والنبوة والولاية (١٥) ..

وبينت من هو الأولى بالميراث في قوله ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» ..
وبينت ماهو العلم الذى أتى الله عليه، ومن هم العلماء الذين هم أولى بالزلفى لديه ..
وبينت أن الأولياء الظاهرين في أوقات الظلمة أولى بأن يكثر الله أنوارهم، ويجزل لهم من وجود اليقين ما يوجب انتصارهم، ليدافعوا ظلمة الأوقات، وليهزموا بعساكر أنوارهم جيوش الغفلات.
وذكرت أقسام الولاية، غزارة قدر الولي، وقخامة رتبته؛ وشقوف (١٦) منزلته، مما تضعه الكتاب العزيز والأحاديث النبوية، ليكون ذلك توطئة لك بتصديق ما يرد عليه من أخبار أوليائه، وكرامات أصفياه.

وأما الأبواب:

فالباب الأول: في التعريف بشيخه الذى أخذ عنه هذا الشأن، وشهادة من عاصره من العلماء الأعيان: أنه قطب الزمان، والحامل في وقته لواء أهل العيان.
الباب الثانى: في شهادة الشيخ له أنه الوارث المقام، والحائز قصب السبق بالتمام، وإخباره هو

(١٥) حينما يقطع الإنسان الطريق يصل إلى الولاية.

والولى إما أن يمكث ولياً فقط، فتكون معرفته خاصة به، أو يقتاره الله لتأدية رسالة إلى الآخرين فيكون نبياً، أو يكون رسولاً.

والرسول نبي، ولكن رسالته تأخذ صبغة عالمية، أما رسالة النبي فلها أهداف محددة المكان. إن الرسول مظهر الصفة الإلهية «الرحمن» في جميع أنحاء العالمين، إنه: (رحمة للعالمين) فلا تقتصر رسالته على دائرة خاصة. ولا شك أن النبوة أسمى من الولاية، ومع ذلك فقد رأى بعضهم أن مقام الولي (القرب) من الله في حين أن النبي منجبه بطبيعة رسالته إلى الخلق، ولكن ذلك خطأ محض، فإن النبوة تتضمن الولاية، فهي متضمنة لمقام القرب، ثم إنها أكثر من الولاية، وعلى ذلك فإن حالة الولي (ناقصة) بالنسبة لحالة النبي، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتها في العموم، وهذا العموم يصل إلى أعلى درجات ازدهاره في الرسالة: إذ هي عالمية والرسول - لاغيره - هو حقيقة (الإنسان العالمى).

والرسول - كما للنبي - اتجاهان:

١ - اتجاه داخلي: إنه الاتجاه نحو الحق.

٢ - اتجاه خارجي: إنه الاتجاه نحو الخلق.

ودرجة الرسول العالمية أسمى من درجة النبي المحدودة، ودرجة النبي المحدودة أسمى من درجة الولي الخاصة، ومقام الجميع القرب.

(١٦) نعود فنقول: إن الأولياء هم:

«الذين آمنوا وكانوا يتقون».

والذى يعاديه الإيمان والتقوى، ولا يكون هذا إلا فيمن تمحض للشر والعباد بالله، وعلى هذا الأساس يفهم كلام المؤلف رضى الله عنه سواء في ذلك الكلام في هذا الموضع أو الكلام المشابه فيما يأتي في الكتاب.

عن نفسه بما من عليه من النعم الجسام، وشهادة الأولياء له بأنه: بلغ من الوصول إلى الله لأفضل مرام.

الباب الثالث: في مجرباته ومنازلاته، وما اتفق لأصحابه معه ومكاشفاته.
الباب الرابع: في علمه وزهده، وورعه ورفع هبته، حلمه وصبره وسداد طريقته.
الباب الخامس: في آيات من كتاب الله تعالى تكلم على تبين معناها، وإظهار فحواها.
الباب السادس: فيما فسره من الأحاديث النبوية وإبداء أسرار فيها على مذهب أهل الخصوصية.

الباب السابع: في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق، وحمله لذلك على أجمل الطرائق..
الباب الثامن: في كلامه في الحقائق والمقامات، وكشفه فيها عن الأمور المعضلات..
الباب التاسع: فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته.
الباب العاشر: في ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذي رتب للأخدين في علومه وأفهامه، ولوازم ذلك من ذكر شيخه أبي الحسن وحزبه، ليتم العقد بنظامه..
وأما الخاتمة: ففى اتصال نسبتنا إليه.. ووصاياه نثرا ونظما تنهض إلى الله وتجمع عليه، وهى آخر الكتاب..

وليس كل شيء سمعته من الشيخ رضى الله عنه استحضرته وقت وضعي لهذا الكتاب، ولا كل شيء استحضرته يمكن إثباته، وقصدت بذلك أن تنتفع به هذه الطائفة^(١٧) خصوصاً وغيرهم عموماً، ليؤمن بأحوال هذه الطائفة من قسم الله له نصيباً من المنة، وجعل في قلبه تورا من الهداية، وليرجع المكذب إلى الاعتراف والمكابير إلى وجود الإنصاف، ولتستبين لمن أراد الله به الهدى المحجة؛ وتقوم على من لم تنصره عناية الله المحجة؛ فيكون للمصدق بتصديقه هذه الطائفة نصيب من الولاية؛ ودنو من العناية..

وقد قال الجنيد^(١٨) رضى الله عنه: التصديق يعلمنا هذا ولاية؛ وإذا فاتتك المنة في نفسك فلا

(١٧) الصوفية على وجه العموم، وليس مقصوده الشاذلية فحسب.

(١٨) سيد هذه الطائفة وإمامهم: أصله من نهاوند، ومنشؤه بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له «القوادرى» وكان فقيهاً على مذهب أبى ثور، وكان يفتى في حلقاته بحضرته وهو ابن عشرين سنة، مات سنة سبع وتسعين ومائتين (٢٩٧ هـ) ببغداد.

قال الروذبارى: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال: أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهو عندى عظيمة، والذي يسرق وزن أحسن حالاً من الذى يقول هذا فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى، وإليه رجعوا فيها، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها..

وقال الجنيد: الطرق كلها مسدودة على الخلق؛ إلا من اقتضى أثر الرسول ﷺ.

تفتك أن تصدق بها في غيرك؛ ﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾^(١٩) وقد قال بعض العارفين:
التصديق بالفتح لا يكون إلا بفتح.

مصدق ما قال هذا العارف قول الله تعالى:

﴿ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور﴾^(٢٠).

وقال سبحانه: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾^(٢١).

وقال سبحانه: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد﴾^(٢٢).

وقال: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾^(٢٣).

وإذا أراد الله خيراً جعله من المصدقين لأوليائه فيما جاءوا به؛ وإن قصر عقله عن إدراك ذلك؛ فمن أين يجب أن لا يهب الله لأوليائه إلا ما تسعه عقول العباد؛ وقد قالوا: يخشى على المكذب لهم سوء الخاتمة^(٢٤).

وقد قال أبو تراب النخشي^(٢٥): من لم يصدق بهذه الكرامات فقد كفر^(٢٦)؛ أى قد غطى عليه الأمر؛ وستر عنه شهود قدرة الله تعالى؛ جعلنا الله وإياكم من المعترفين بفضله في عبادته؛ ومن المصدقين بآثار عنايته في أهل وداده؛ إنه ولى ذلك والقادر عليه..

ولم أخل الكتاب من الكلام على الشيء المشكل وحل الأمر المعضل؛ والتنبيه على أمور جلية؛ وإظهار أسرار أبصار من لم يؤمن بهذه الطائفة عنها كليلة..

= وقال: من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة..
وقال: مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ وبلغ من تقديره أن كان الكتب
(الأديان) يحضرون مجلسه لألفاظه.

والفقهاء لتقريره.

والفلاسفة لدقة نظره ومعانيه.

والمتكلمون لتحقيقه.

والمصوفية لإشارته وحقايقه.

(١٩) البقرة: ٢٦٥.

(٢٠) ق: ٣٧.

(٢٠) النور: ٤٠.

(٢١) الزمر: ٩.

(٢١) الذاريات: ٥٥.

(٢٤) إن المكذب للأولياء مكذب للإيمان والتقوى اللذين هما ماهية الولي، ويرجع القارىء إلى ما كتبناه في مقدمة الكتاب.

(٢٥) هو أبو تراب عسكر بن حصين النخشي، من أجلى مشايخ خراسان، يتحدث عنه ابن الجلاء عن خبرة ومشاهدة ومعرفة فيقول: «لقيت ستمائة شيخ، ما لقيت فيهم مثل أربعة، أولهم أبو تراب النخشي، ويقول صاحب الكواكب الدرية: كان شيخ عصره بالاتفاق، جامعاً بين العلم والدين والزهد والتصوف بلا شقاق، متقشفاً متوكلاً، متخشعاً متيناً، قد أضاء في سماء المعاني بنوره، واشتهر في سماء المعاني حسنه وذكره.

(٢٦) من معاني الكفر: السر والتغطية، وكل شيء غطى شيئاً فقد «كفره»، ويسمى الزارع كافراً لأنه يغطي البذر بالتراب، ويسمى الزارع كافراً لذلك - وهذا هو المعنى الذى أراد أبو تراب. ومن معاني الكفر بطبيعة الحال: أنه ضد الإيمان. وليس هذا هو المعنى المراد في هذه الكلمة.

فأثمة سبحانه وتعالى يجعل ذلك لوجهه خالصاً؛ ومن أحوال التقطيعه مخلاً؛ وأن ين علينا بالصدق في الأقوال والأفعال والأحوال؛ وأن يجعلنا من العارفين به في الحال والمآل؛ وأن يتفضل علينا بالفهم عنه؛ وحسن الاستماع منه؛ إنه الإله القدير؛ وبالإجابة جدير..

وسميته: «لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن».

وهذا أو أن ابتدائي بما قصدت؛ وإظهار ما أردت؛ وبالله تعالى أستعين وعليه أتوكل؛ وإليه بجاه محمد سيّد المرسلين ﷺ أتوسّل؛ وهو حسينا ونعم الوكيل.

أما المقدمة:

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى لما أراد إتمام نعمته؛ وإفاضة فيض رحمته؛ واقتضى فضله العظيم أن ين على العباد بوجود معرفته؛ وعلم سبحانه عجز عقول عموم العباد عن التلقّي من ربه؛ جعل الأنبياء والرسل لهم الاستعداد التام لقبول ما يرد من ألوهيته؛ يتلقّون منه بما أودع فيهم من سر خصوصيته؛ ويلقّون عنه: جملاً للعباد على أحديثه؛ فهم برازخ الأنوار؛ ومعادن الأسرار؛ رحمة مهداة؛ ومئة مصفاة؛ حرس أسرارهم في أزله من رقى الأغيار^(٢٧)؛ وصانهم بوجود عنايته من الركون إلى الآثار، لا يحوّن إلا إياه، ولا يعبدون سواه، يلقي الروح من أمره عليهم، ويواصل الإمداد بالتأييد إليهم، وما زال فلك النبوة والرسالة دائراً إلى أن عاد الأمر من حيث ابتدئ، وختم بين له كمال الاصطفاء، وهو نبينا محمد ﷺ السيد الكامل، الفاتح الخاتم، نور الأنوار، وسر الأسرار، والمبجل في هذه الدار وفي تلك الدار، أعلى المخلوقات مناراً، وأتمهم فخاراً، دلّ على ذلك الكتاب المبين، قال الله تعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٢٨).

ومن رحم به غيره فهو أفضل من غيره. والعالم كل موجود سوى الله تعالى.
وأما تفضيله ﷺ على بني آدم خصوصاً فمن قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٢٩).
وأما تفضيله على آدم فمن قوله ﷺ:
«كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(٣٠).
ومن قوله:

«آدم فمن دونه من الأنبياء يوم القيامة تحت لوائى. وأنا أول شافع، وأنا أول مشفع، وأنا أول من تنشق عنه الأرض»^(٣١).

(٢٧) أى ما سوى الله.

(٢٨) الأنبياء: ١٠٧.

(٢٩) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه، ورواه مسلم وأبو داود عن أبي هريرة عن حديث بغير زيادة: «ولا فخر»..
(٣٠) قال العلمى في شرح الجامع الصغير حديث صحيح، وأخرج أحمد والبيهقى في تاريخه والبقوى وابن السكن وأبو نعيم في الحلية وصححه الحاكم بلفظ: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد» فى الترمذى وغيره عن أبي هريرة أنه قال للنبى ﷺ: «بني كنت أو كنت نبياً؟ قال: كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد. قال الترمذى: حسن صحيح؛ وصححه الحاكم أيضاً..
(٣١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه ولفظه: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر. وأنا أول من تنشق الأرض عنه ولا فخر. وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر. ولواء الحمد بيدى يوم القيامة ولا فخر».

وحديث الشفاعة المشهور الذي أخبرنا به الشيخ الإمام المحافظ بقية المحدثين، شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خلف بن أبي الحسن الدميّاطي بقراءتي عليه أو قراءة عليه وأنا أسمع، قال: أخبرنا الشيخان الإمام فخر القضاة أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن الحباب التميمي وأبو التقى صالح بن شجاع بن سيدهم المدلجي الكتاني، قالا: أخبرنا الشريف أبو الفاخر سعيد بن الحسين بن محمد بن سعيد العباسي المأموني قال: أخبرنا أبو عبد الله الفزاري قال: أخبرنا عبد الغافر الفارسي قال: أخبرنا أبو أحمد محمد بن عيسى بن عمرو بن الجلودي قال: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن سفيان الفقيه قال: حدثنا أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري قال: حدثنا أبو الربيع العتكي قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن حلال العنزي.

وحدثنا سعيد بن منصور واللفظ له قال: حدثنا حماد بن زيد قال: حدثنا معبد بن حلال العنزي قال:

انطلقنا إلى أنس بن مالك وتشفعنا بثابت، فأنتهينا إليه وهو يصلي الضحى، فاستأذن لنا ثابت، فدخلنا عليه، وأجلس ثابتاً معه على سريره، فقال له: يا أبا حمزة، إن إخوانك من أهل البصرة يسألونك أن تحدثهم حديث الشفاعة، قال: حدثنا محمد ﷺ قال:

إذا كان يوم القيامة ماج الناس بعضهم إلى بعض، فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: اشفع لذريرتك، فيقول:

لست لها ولكن عليكم بإبراهيم عليه السلام فإنه خليل الله.

فيأتون إبراهيم عليه السلام فيقول: لست لها، ولكن عليكم بموسى عليه السلام فإنه كليم الله.

فيأتون موسى عليه السلام؛ فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بعيسى عليه السلام فإنه روح الله وكلمته.

فيأتون عيسى عليه السلام، فيقول:

لست لها، ولكن عليكم بمحمد ﷺ.

فأوتى فأقول: أنا لها، فأنتقل فأستأذن على ربي، فيؤذن لي، فأقوم بين يديه، فأحده بمحامد لا أقدر عليها إلا أن يلهمني الله عز وجل، ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: رب، آمي آمي، فيقال: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من برة أو شعيرة من إيمان فأخرجه منها، فأنتقل فأفعل، ثم أرجع إلى ربي، فأحده بتلك المحامد، ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، آمي آمي، فيقال لي: انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها؛ فأنتقل فأفعل، ثم أعود إلى ربي فأحده بتلك المحامد ثم أخرج له ساجداً، فيقال لي: يا محمد ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب، آمي آمي، فيقال لي: انطلق فمن كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنتقل فأفعل ثم أعود إلى

ربِّي فأحمده بتلك المحامد ثم آخر له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقوم: يارب، أمتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه منها، فأنطلق فأفعل ثم أعود إلى ربِّي فأحمده بتلك المحامد ثم آخر له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد ارفع رأسك، وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: يارب، أمتى أمتى، فيقال لى: انطلق فمن كان فى قلبه أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل.

هذا حديث أنس الذى أخبرنا به، فخرجنا من عنده، فلما كنّا بظهر الجبان قلنا: لو ملنا إلى الحسن فسلمنا عليه وهو مستخف فى دار أبى خليفة، قال: فدخلنا عليه فقلنا: يا أبا سعيد خرجنا من عند أخيك أبى حمزة فلم نسمع بمثله حديث حدثناه فى الشفاعة، فقال: هيه، فحدثناه الحديث، فقال: هيه، فقلنا: ما زادنا، قال: قد حدثنا به منذ عشرين سنة وهو يومئذ جميع (٣٢)، ولقد ترك شيئاً ما أدرى أنسى الشيخ أو كره أن يحدثكم فتتكلوا، فقلنا له: حدثنا، فضحك وقال: ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ (٣٣).

ما ذكرت لكم هذا إلا وأنا أريد أن أحدثكم:

ثم أرجع إلى ربِّي فى الرابعة، فأحمده بتلك المحامد، ثم آخر له ساجدًا، فيقال لى: يا محمد، ارفع رأسك وقل يسمع لك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأقول: يارب ائذن لى فيمن قال: لا إله إلا الله، قال:

ليس ذلك لك. أو قال ليس ذلك إليك، ولكن وعزّى وكبريائى وعظمتى لأخرجن من النار من قال: «لا إله إلا الله» (٣٤)، قال:

(٣٢) أى فى أكمل قوته وقام ذاكرته ونضرة رجولته.

(٣٣) الأنبياء: ٣٧.

(٣٤) أى ليخرجه سبحة مالا بعد أن يكون قد استوفى جزاءه عما قدم من معاصى، اللهم إلا أن يتفضل سبحانه على البعض لحكمة، وقد روى البخارى ومسلم رضى الله عنهما فى هذا قوله ﷺ فى حديث جامع: «أنا سيد الناس يوم القيامة، هل تدرون ممّ ذلك؟»

(يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد، فينظرهم الناظر، ويسمعهم الداعي وتدنو منهم الشمس، فيبلغ الناس من الهم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما أنتم فيه إلى ما بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟) فيقول بعض الناس لبعض: أيكم آدم، فيأتونه، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فىك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى إلى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فقال: إن ربى غضب غضباً لم يغضب قبله مثله، ولا يغضب بعده مثله، وإنه تهاق عن الشجرة فعصيت، نفسى، نفسى، نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحاً فيقولون: يا نوح: أنت أول الرسل إلى الأرض، وقد سماك الله عبداً شكوراً، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك؟

فيقول: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه كانت لى دعوة دعوت بها على قومى، نفسى، نفسى، نفسى!!!

اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبى الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ =

فأشهد على الحسن أنه حدثنا به أنه سمع أنس بن مالك أراه قبل عشرين سنة، وهو يرمثذ جميع (٣٥) ..

فانظر رحمك الله ما تضمنه هذا الحديث من فخامة قدره ﷺ، وجلالة أمره، وأن أكابر الرسل والأنبياء لم ينازعوه في هذه الرتبة التي هي مختصة به وهي الشفاعة العامة في كل من ضمنه المحشر. فإن قلت: فما بال آدم أحال على نوح في حديث، وعلى إبراهيم في هذا، ودل نوح على إبراهيم، وإبراهيم على موسى، وموسى على عيسى، وعيسى على محمد ﷺ، ولم لم تكن الدلالة على محمد ﷺ من الأهل؟

فاعلم أنه لو وقعت الدلالة على محمد ﷺ من الأول لم يتبين من نفس هذا الحديث أن غيره لا تكون له هذه الرتبة، فأراد الحق سبحانه أن يدل كل واحد على من بعده، وكل واحد يقول: لست لها، مسلماً للرتبة، غير مدع لها، حتى أتوا عيسى فدل على رسول الله ﷺ، فقال: أنا لها. وفي هذا الحديث من الفوائد: أن الإيمان يزيد (٣٦) وينقص.

« فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، وإن يغضب بعده مثله، وإن كذبت ثلاث كذبات: نفسي، نفسي، نفسي! »

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى! فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وكلامه على الناس، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، وإن يغضب بعده مثله، وإن قد قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها: نفسي، نفسي، نفسي.

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمته أنزلنا إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في الهدى، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، وإن يغضب بعده مثله - ولم يذكر ذنباً - نفسي، نفسي، نفسي!

اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ. وفي رواية: فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء، وقد شرف الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟

فانطلق فأتى تحت العرش، فأقع ساجداً لربي، ثم يفتح الله على من يحامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد أرفع رأسك، وسل تعطى، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: أمتي يارب، أمتي يارب! فيقال: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيها سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصارع الجنة: كما بين مكة ومكة، أو كما بين مكة وبصرى. (٣٥) والحديث في صحيح مسلم (شرح النووي ج ٣ ص ٢٦٣) ومعنى جميع مجتمع القوة والحفظ.

(٣٦) يقول الإمام البخاري عن الإيمان:

هو قول وفعل، ويزيد وينقص، ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية، نذكر منها: قال الله تعالى:

﴿لِيُزَادُوا إِيَّانَا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾. ﴿وَزَادَهُمْ هُدًى﴾.

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾.

﴿وَزَادُوا الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادهم إيمانًا﴾.

﴿فَأَخَشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾.

وفيه: أن المعارف لا تنتهى، من قوله: لا أقدر عليه إلا أن يلهمني الله عز وجل، ويشهد لذلك قوله ﷺ:

«لا أحصى ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» (٣٧).

ويشهد له قوله سبحانه وتعالى:

﴿ولا يحيطون به علماً﴾ (٣٨).

إلى غير ذلك من الفوائد التي لو تكلمنا عليها لخرجنا عن غرض الكتاب، ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا ﷺ عين الرحمة، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (٣٩).

ﷺ، وشرف وكرم، ومجد وعظم، فدعا إلى الله بالبصيرة الواضحة (٤٠)، والبينة الفاتحة، وقرب المدارك، وبين المسالك، وحث على سلوك سبيل الهدى، واجتناب سبيل الردى فما ترك شيئاً يقرب إلى الله إلا ودعا إليه، ولا أدباً يصلح أن يكون العبد به مع الله إلا وحث عليه، ولا شيئاً يشغل العباد عن الله إلا وحث العباد منه، ولا عملاً يقطعهم عن الله إلا وأخرجهم عنه، لا يألوا نصيحاً (٤١) في تخليص العباد من أحوال القطيعة، ومواطن الهلكة، إلى أن ترحل ليل الشرك، وانقضت آثاره، وأضاء نهار الإيمان وأشرقت أنواره، فرفع ﷺ من الدين لواءه، ونم نظامه، وقرّر فرائضه وأحكامه، وبين حلاله وحرامه، وكما بين للعباد الأحكام، كذلك فتح لهم باب الأفهام حتى قال الراوى: لقد تركنا رسول الله ﷺ وإن الطير ليتحرك في السماء فنستفيد منه علماً، فقد قال سبحانه:

﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ (٤٢).

وقال سبحانه:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (٤٣).

وقال ﷺ:

(٣٧) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والإمام أحمد في مسنده.

(٣٨) طه: ١١٠.

(٣٩) الأنبياء: ١٠٧ - ويقول الرسول ﷺ: إنما أنا رحمة مهداة. أى مهداة من الله سبحانه وتعالى إلى الإنسانية.

(٤٠) يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قل هذه سبيل أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾، وإن من أول شروط الدعوة أن يكونوا على بصيرة من أمر دعوتهم، ومن أهم ما تتضمنه البصيرة: العلم، العلم بكتاب الله وسنة رسوله، وسيرته الشريفة.

(٤١) يقول الله تعالى في بيان حرص رسول الله ﷺ على هداية الناس: ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾. ويقول سبحانه:

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز عليه ما عنتم، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾.

(٤٢) البقرة: ٢٥٦. (٤٣) المائدة: ٣.

«تركها بيضاء نقية» (٤٤).

فجزاه الله خير ما جزى نبياً عن أمته.

ولما أكمل ﷺ البيان لسبيل الرشاد، وأظهر المسالك الموصلة إلى الله للعباد، توفاه الله إلى الدار التي هي خير له وأولى، بعد أن خير فاختار الرفيق الأعلى.

ثم جعل الحق سبحانه الدعاء إلى الله في أمته أبداً، ودائماً سرمداً، بما ورتوا منه، وأخذوا عنه، وقد شهد لهم الحق بذلك، وجعلهم أهلاً لما هنالك، قال الله سبحانه:

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (٤٥).

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: أي على معانية، يعاين سبيل كل واحد من الأتباع، فيحمله عليها.

ودليل ما قال الشيخ رضي الله عنه اختلاف وصاياه ﷺ لأصحابه على حسب اختلاف سبلهم، فقال لبلال رضي الله عنه:

(أُنْفِقْ بِلَالُ، وَلَا تَخْشَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ إِقْلَالًا) (٤٦).

وقال لآخر أراد أن يتخلع عن ماله كله:

«أمسك عليك مالك، فإنك إن تدع ورثتك أغنياء خير لك من أن تدعهم عالة يتكفون الناس» (٤٧).

وقال له ﷺ رجل: أوصني، فقال ﷺ:

«استح من الله كما تستحي من رجل صالح من قومك» (٤٨).

وقال له آخر: أوصني، فقال: لا تغضب.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: فتح الحق سبحانه بقوله:

«أنا ومن اتبعني» باب البصائر للاتباع. يريد الشيخ أن قول الله سبحانه:

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ (٤٩).

أي ومن اتبعني يدعو إلى الله على بصيرة، على ما يقتضيه اللسان: لأنك إذا قلت: زيد يدعو إلى

(٤٤) رواه أحمد وابن ماجه بنحوه ونص الحديث عن العرياض بن سارية: وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون. ووجلت منها القلوب، فقلنا يا رسول الله، إن هذه موعظة نودع فماذا تمهد إلينا؟ قال: «وقد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يمش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة وإن كان عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجماع الأنف حيثما قيد انقاد.

(٤٥) يوسف: ١٠٨.

(٤٦) البزار عن بلاء والطبراني عن ابن مسعود.

(٤٧) رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والنسائي من حديث كعب بن مالك.

(٤٨) رواه ابن عدي بنحوه بسند ضعيف.

(٤٩) يوسف: ١٠٨.

السلطان على نصيحة هو وأتباعه، أى وأتباعه يدعون إليه على نصيحة.
إذا ثبت هذا، فالرسول ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة الرسالة الكاملة، والأولياء يدعون على حسب بصائرهم: قطبانية وصديقية وولاية، وقد قال ﷺ:
«العلماء ورثة الأنبياء» (٥٠).

وقال ﷺ:

«إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهماً وإنما ورثوا العلم» (٥١).

وقال ﷺ:

«علماء أمّتي كأنبياء بنى إسرائيل».

وهنا نكتة: وهو أنه ﷺ لم يقل: علماء أمّتي كرسل بنى إسرائيل، فمن الناس من ظن أن النبي هو الذي نُبّي (٥٢) في نفسه، والرسول هو الذي أرسل إلى غيره، وليس الأمر كما ظن هذا القائل، ولو كان كذلك فلماذا خص الأنبياء دون الرسل بالذكر في قوله: علماء أمّتي كأنبياء بنى إسرائيل، وبما يدلّك على بطلان هذا المذهب قول الله سبحانه:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ ولا نبيٍّ﴾ (٥٣) الآية.

فدلّ على أن حكم الإرسال يعمّها، وإنما الفرق ما قال بعض أهل العلم: إن النبي لا يأتي بشريعة جديدة، إنما يجيء مقررًا لشريعة من كان قبله كيوشع بن نون فإنه إنما جاء مقررًا لشريعة موسى، وأمرًا بالعمل بما في التوراة، ولم يأت بشرع جديد، والرسول كموسى عليه السلام إذ أتى بشرع جديد وهو ما تضمنته التوراة، فقال ﷺ: علماء أمّتي كأنبياء بنى إسرائيل، أى يأتون مقررين ومؤكدين وأمرين بما جئت به لا أنهم يأتون بشرع جديد.

إعلام وبيان:

اعلم أن قول رسول الله ﷺ:

«العلماء ورثة الأنبياء».

و«علماء أمّتي كأنبياء بنى إسرائيل».

و«إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهماً وإنما ورثوا العلم»..

و«ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم» (٥٤).

و«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» (٥٥).

(٥٠، ٥١) رواء أبو داود والترمذى.

(٥٢) كون النبي ما نبّي في نفسه أو بتعبير المتكلمين: «ما أوحى إليه ما يعمل به ولم يؤمر بتبليغه» والرسول هو ما أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه. هذا ما جرى عليه الغالبية من علماء علم الكلام، وما ذكره المؤلف هنا أدق وأوضح.
(٥٣) الحج: ٥٢ وقام الآية: ﴿إلا إذا نفي ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾.

(٥٤) رواء الترمذى وقال حديث حسن.

(٥٥) رواء أبو داود والترمذى.

وقوله سبحانه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط﴾ (٥٦).
وقال: ﴿الذين أوتوا العلم درجات﴾ (٥٧).

و: ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم﴾ (٥٨).
وحينما وقع العلم في كتاب الله تعالى وكلام رسوله ﷺ فلما المراد به: العلم النافع المخدم للهوى، القامع، الذى تكتنفه الخشية وتكون معه الإنابة قال الله سبحانه:
﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (٥٩).

فلم يجعل علم من لم يخش الله العلماء علماً، وقد قال داود عليه السلام: يا رب، ما علم من لم يخشك، وما خشية من لم يطع أمرك؟

فشاهد العلم الذى هو مطلوب الله الخشية، وشاهد الخشية موافقة الأمر، أما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا، والتعلق لأربابها، وصرف الهمة إلى اكتسابها، والجمع والادخار، والمباهاة والاستكثار، وطول الأمل، ونسيان الآخرة، فما أبعد من هذا العلم علمه من أن يكون من ورثة الأنبياء، وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التى كان بها عند الموروث عنه؟

ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كمثل الشمعة تضيء على غيرها وهى تحرق نفسها (٦٠)؛ جعل الله العلم الذى علمه من هذا وصفه حجة عليه؛ وسبباً فى تكثير العقوبة لديه. ولا يغرنك أن يكون به انتفاع البادى والحاضر؛ فقد قال ﷺ:
«إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر» (٦١).

ومثل من يتعلم العلم لا كتساب الدنيا وتحصيل الرفعة فيها كمثل من يرفع العذرة بملعة من ياقوت؛ فلما أشرف الوسيلة؛ وما أحسن المتوسل إليه.
ومثل من قطع الأوقات فى طلب العلم فمكث أربعين سنة أو خمسين سنة يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل من قعد هذه المدة يتطهر ويحجد الطهارة ولم يصل صلاة واحدة؛ إذ مقصود العلم العمل، كما أن المقصود بالطهارة وجود الصلاة، ولقد سأل رجل الحسن البصرى رضى الله عنه عن مسألة فأخذه فيها، فقال الرجل للحسن: قد خالفك الفقهاء، فزجره الحسن وقال: ويحك، وهل رأيت فقيهاً؟ إنما الفقيه الذى فقه عن الله أمره ونهيه.
وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

(٥٦) آل عمران ١٨ - والقسط: هو العدل.

(٥٨) العنكبوت: ٤٩.

(٥٩) المجادلة: ١١.

(٦٠) فاطر: ٢٨.

(٦٠) ولأجل هذا كان الرسول ﷺ يقول فى دعائه - كما رواه الإمام أحمد - اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها.

(٦١) رواه الطبراني وصححه السيوطى وفى معناه قوله ﷺ: إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم، رواه أحمد والنسائى وابن حبان والطبراني.

«الفقيه من انفقاً الحجاب عن عيني قلبه وشاهد ملكوت ربه».

وإذ قد عرفت أن الدعاء إلى الله لا يزال أبداً، فاعلم أن الأنوار الظاهرة في أولياء الله إنما هي من إشراق أنوار النبوة عليهم، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس، وقلوب الأولياء كالأقمار، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ومقابلته إياها، فإذا الشمس منيرة نهاراً، ومضيئة أيضاً ليلاً، لظهور نورها في القمر الممدود منها، فإذا هي لا غروب لها فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فيهم، فالأولياء آيات الله يتلوها على عباده بإظهاره إياهم واحداً بعد واحد:

﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق﴾ (٦٢).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول في قوله عز وجل:

﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (٦٣).

أى ما نذهب من ولى الله إلا ونأت بخير منه أو مثله.

وقد سئل بعض العارفين عن أولياء المدد، أينقصون في زمن واحد؟.

فقال: لو نقص منهم واحد ما أرسلت السماء قطرها، ولا أبرزت الأرض نباتها؛ وفساد الوقت لا يكون بذهاب أعدادهم؛ ولا بنقص إمدادهم؛ ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله سبحانه وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم؛ فإذا كان أهل الزمن معرضين عن الله؛ مؤثرين لما سوى الله؛ لا تنجع فيهم الموعظة، ولا قيلهم إلى الله التذكرة؛ لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله فيهم؛ ولذلك قالوا: أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون. وقد قال ﷺ:

«لا تؤتوا الحكمة غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم» (٦٤).

فإذا كان الله سبحانه وضّاءاً على لسان رسوله ﷺ أن: لا تؤتوا الحكمة غير أهلها، فمن أولى بهذا الخلق الجميل منا، وقد قال ﷺ:

«إذا رأيت هوى مطاعاً، وشحاً متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك» (٦٥).

فسمعوا وصية رسول الله ﷺ، فأتروا الخفاء بل أثر الله لهم ذلك مع أنه لا بد أن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرين قائمين بالحجة، سالكين بالحجة، لقول رسول الله ﷺ.

(٦٢) الجاثية: ٦.

(٦٣) البقرة: ١٠٦.

(٦٤) إن حديث الصوفية عن بعض آيات القرآن، إنما هو إشارات تم بوجدانهم لا تنفى من قرب، ولا من بعد المعنى الذى يستمد من الآية بحسب اللغة وأسباب النزول، وموازن المفسرين. ولكن القرآن الكريم نبع فياض، يلهم ويشير ويوجه، وكل إنسان يأخذ منه بحسب صفاء نفسه، ولا عليه، في ذلك ما دام مؤمناً بالمعنى الذى تقرره الأوضاع الإسلامية الصادقة عاملاً به. وفي ضوء ما قلناه - وهو الذى يعترف به جميع الصوفية - نرجو من القارئ الكريم أن ينظر إلى ما يأتي من حديث للصوفية في إشاعات الآية الكريمة.

وهذا المعنى هو الذى يؤخذ من قوله تعالى: ﴿يؤتى الحكمة من يشاء﴾. وهى كلمة قرآنية لا منع فيها ولا تعميم.

(٦٥) أبو داود في الملاحم، والترمذى في التفسير، وابن ماجه في الفتن.

«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من نوافهم إلى قيام الساعة» (٦٦).
وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في مخاطباته لكميل بن زياد: اللهم لا تَحُلْ الأرض من قائم لك بحجبتك، أولئك الأقلون عدداً، الأعظمون عند الله قدراً، قلوبهم معلقة بالمحل الأعلى، أولئك خلفاء الله في عباده وبلاده، آه واشوقاه إلى رقيتهم. وروى الإمام الرياني محمد بن علي الترمذي رضي الله عنه في كتاب «الحق» (٦٧) له، برفعه إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«أمتي كالنظر لا يدري أوله خير أم آخره» (٦٨).
وروى أيضاً برفعه إلى أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:
«خير أمتي أولها وآخرها، وفي وسطها الكدر».
وروى أيضاً برفعه إلى عبد الرحمن بن سمرة قال:

- جئت مبشراً من غزوة مؤتة، فلما ذكرت قتل جعفر وزيد وابن رواحة بكى أصحاب رسول الله ﷺ فقال ﷺ: ما يبكيكم؟ فقالوا: وما لنا لا نبكي وقد قتل خيارنا وأشرافنا وأهل الفضل منا؟ فقال ﷺ: «لا تبكوا، إنما مثل أمتي مثل حديقة قام عليها صاحبها، فاجتلب رواكيبها، وهيا مسالكها، وحلق سعفها، فأطعمت عاماً فوجاً ثم عاماً فوجاً، فلعل آخرها طعماً يكون أجودها قنونا، وأطولها شمراخاً، والذي بعثني بالحق ليجدن ابن مريم من أمتي خلفاً من حواريه» (٦٩).
وروى أيضاً برفعه إلى سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن في أصلاب أصلاب رجال من أصحابي رجالاً ونساء يدخلون الجنة بغير حساب» (٧٠).

ثم تلا:

(٦٦) متفق عليه.
(٦٧) هو كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذي، وهو من الكتب التي كانت محل عناية كبرى من الشيخ أبي الحسن التتائي، ومن الشيخ أبي العباس المرسى وقد نال هذا الكتاب عناية الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي، ووصلت عنايته به إلى درجة أنه تحدث عنه غير مرة، وأجاب عن الأسئلة التي وجهها الحكيم الترمذي في كتابه. وهذا الكتاب طبع في لبنان.
(٦٨) رواه أحمد والترمذي والعلبراني وأبو يعلى.
(٦٩) القنوان: جمع قنو وهو العلق أي النخلة بحملها، والشمراخ مثله.
ومن خبر غزوة مؤتة ما ذكره ابن حزم في «جوامع السيرة» من أن المسلمين عندما دخلوا قرية مؤتة جعل المسلمون على ميمنتهم قطية بن قنادة العنزي، وعلى الميسرة عباية بن مالك الأنصاري، وقيل: عباد. واقتتلوا فقتل الأمير الأول: زيد بن حارثة ملاقياً بصدره الرماح، والراية في يده، فأخذها جعفر بن أبي طالب ونزل عن فرس شقراء. فقاتل حتى قطعت يمينه، فأخذ الراية بيسراه، فقطعت فاحتضنها، فقتل كذلك، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأخذ عبد الله بن رواحة الراية؛ وتردد عن النزول بعض التردد ثم صمم، فقاتل حتى قتل، فأخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان وقال: يا معشر المسلمين؛ اصطلحوا على رجل منكم، فقالوا: أنت. قال: لا. فأخذها خالد بن الوليد، وانحاز بالمسلمين، فأبى النبي ﷺ يقتل الأمراء المذكورين قبل ورود الخبر في يوم قتلهم بعينه أهد.
(٧٠) رواه ابن أبي حاتم في التفسير.

«وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم» (٧١).

وروى أيضا يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:
«في كل قرن من أمتي سابقون» (٧٢).

واعلم، جعلك الله تعالى من خاصة عباده، وعرفك لطائف وداذه، أنه سواء منهم الظاهر والباطن، والصديق والولي، فساد الوقت لا يكدر أنوارهم، ولا يحط مقدارهم؛ لأنهم مع الموقت لا مع الأوقات، ومن كان مع الموقت لا يتغير بتغير الوقت شيئا، ومن كان مع الوقت تغير بتغيره وتكدر بتكدره.

وقال الإمام أبو عبد الله الترمذي رضي الله عنه: الناس صنفان صنف منهم عمال الله يعبدونه على البر والتقوى فهم يحتاجون إلى خير الزمان وإقباله ودولة الحق؛ لأن تأييدهم من ذلك، وصنف منهم أهل اليقين فيعبدون الحق على وقاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب فهم غير ملتقين إلى إقبال الزمان وإدباره ولا يغيرهم إدباره وهو قول النبي ﷺ:
إن لله عبادا يغذوهم برحمته، يحبيهم في عافية، تمر بهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرمهم.

وقوله ﷺ:

تكون في أمتي فتن لا يتجو منها إلا من أحياء الله بالعلم.
قال الترمذي: يعني: بالعلم بالله فيما نرى.

لقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: رجال الليل هم الرجال وإن أولياء هذا الوقت ليؤيدون بشيئين: بالغنى واليقين، فالغنى لكثرة ما عند الناس من الإفلاس، واليقين لكثرة ما عند الناس من الشكوك.

وقال بعض العارفين: إن لله عبادا كلما اشتدت ظلمة الوقت قويت أنوار قلوبهم، فهم كالنواكب، كلما قويت ظلمة الليل قوى إشراقها، وأين نور النواكب من أنوار قلوب أوليائه، أنوار النواكب تتكدر وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار النواكب تهدي في الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه لا انكدار لها، وأنوار النواكب تهدي في الدنيا إلى الدنيا وأنوار قلوب أوليائه تهدي إلى الله تعالى، ولنا في هذا المعنى:

أمرتقب التجسوم من السماء	نجوم الأرض أبهر في الضياء
فتلك تسير وقتا ثم تخفى	وهسني لا تكدر بالهفاء
هداية تلك في ظلم الليالي	هداية هذه كشف الغطاء

وقال صوفي يوما بحضرة فقيه: إن لله عبادا هم في أوقات المحن والمحن لا تضرمهم، فقال ذلك

(٧١) الجمعة: ٣، ٤.

(٧٢) الأحاديث السابقة خرجها الترمذي في كتابه «ختم الأولياء».

الفقيه: هذا مالا أفهمه، أنا أريك مثال ذلك، الملائكة الموكلون بالنار هم في النار والنار لا تضرهم (٧٣).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: الدنيا كالنار وهي قائلة للمؤمن: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك طيباً.

واعلم أن شأن الولاية والوليّ عظيم، والخطب فيها جسيم وكفيك في ذلك ما حدثنا به الشيخ المسند الجليل شهاب الدين أبو المعالي أحمد بن إسحق بن محمد بن المؤيد الأبرقوهي رحمه الله، قال: أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن سايور القلانسي الشيرازي بها سنة تسع عشرة وستمئة، قال أخبرنا الإمام أبو المبارك عبد العزيز بن محمد بن منصور الشيرازي الأدمي قراءة عليه وأنا أسمع في سنة ثلاث وخمسمئة، قال حدثنا الشيخ الإمام أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد التميمي الحنبلي إملاءً عليّ في يوم السبت السادس عشر من صفر سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة بأصبهان، قال: أخبرنا أبو عمر عبد الواحد بن محمد بن عبد الله بن مهدي الفارسي حدثنا أبو عبد الله محمد بن مخلد بن حفص العطار الخطيب الدورى حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة حدثنا خالد بن مخلد عن سليمان بن بلال عن شريك بن أبي نمر عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله عز وجل قال: من عادى لي ولياً فقد آذنتني (٧٤) بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

وهذا الحديث أخرجه البخاري رضي الله عنه في صحيحه. وقد روى هذا الحديث من طريق آخر: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً وعقلاً ويدا ومؤيداً.

فاصغ رحمك الله إلى ما تضمنه هذا الحديث من غزارة قدر الولي وفخامة رتبته، حتى ينزله الحق هذه المنزلة، ويحلّه هذه المرتبة، كقوله ﷺ: حاكياً عن الله:

(٧٣) وإن القارئ للقرآن ليعلم ما ذكره القرآن الكريم عن قصة إبراهيم عليه السلام حينما قال قومه:

﴿احرقوه وانصروا آلهكم﴾

ثم ألقوه في النار، فكان الأمر الإنجلي:

﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾

إن الله سبحانه وتعالى قد حفظه لأنه كان موالياً له سبحانه وتعالى في أفعاله، ومن كان موالياً لله سبحانه وتعالى، كان متخذاً له ولياً، ومن اتقى الله ولياً وسار في حياته على ما أحبه الله سبحانه وتعالى، فإن الله يحفظه فتشتر به الفتن لا تضره.

﴿أليس الله بكاف عبده﴾ ؟

(٧٤) رواية البخاري «فقد آذنته الحرب» وكلا الروايتين صحيح في المعنى إن من عادى ولي الله آذنه بالحرب، فأذنه الله

بالحرب - أعادنا الله من ذلك وعافانا.

«من عادى لي ولياً فقد آذنتي بالحرب».

لأن الولي قد خرج عن تدبيره إلى تدبير الله، وعن انتصاره لنفسه لانتصار الله، وعن حوله وقوته بصدق التوكل على الله، وقد قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (٧٥).

وقد قال الله عز وجل: ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (٧٦).

وكان ذلك لهم لأنهم جعلوا الله تعالى مكان هومهم، فدفع عنهم الأغيار (٧٧)، وقام لهم بوجود الانتصار.

أخبرني الشيخ شهاب الدين الأبرقوهي، قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فسمعتة يقول: يقول الله عز وجل: «عبدى اجعلنى مكان هيك أكفك كل هيك، عبدى ما كنت لك فأنت في محل البعد، وما كنت بي فأنت في محل القرب واختر لنفسك».

وقد جاء في الحديث:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» (٧٨).

فإذا كان الحق سبحانه قد رضى لهم أن يشغلهم ذكره عن مسألتهم، فكيف لا يرضى لهم أن يشغلهم ذكره والثناء عليه عن الانتصار لنفوسهم؟

ومن عرف الله سُدَّ عليه باب الانتصار لنفسه (٧٩) إذ العارف قد اقتضت له معرفته أن لا يشهد فعلاً لغير معرفته، فكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعلاً فيهم؟ وكيف يدع أوليائه من نصرته وهم قد ألقوا نفوسهم بين يديه مسلمين ومستسلمين لما يريد منهم حكماً؟ فهم في معاقل عزه تحت سرادقات مجده، يصونهم من كل شيء إلا من ذكره، ويقطعهم عن كل شيء إلا عن حبه، ويحتازهم من كل شيء إلا من وجود قربه، ألسنتهم بذكره لهجة، وقلوبهم بأنواره بهجة، وطن لهم وطناً بين يديه، فقلوبهم جائمة في حضرتهم، وأسرارهم بحقيقة بشهود أحدىته.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

ولَّى الله مع الله كولد اللبوة في حجرها، أتراها تاركة ولدها لمن أراد اغتياله؟

(٧٥) الطلاق: ٣.

(٧٦) الروم: ٤٧.

(٧٧) جمع «غير» بمعنى: سوى، أى كل ما سوى الله.

(٧٨) البخارى في التاريخ واليزار في المسند، والبيهقى في الشعب من حديث عمر بن الخطاب.

(٧٩) قال تعالى: ﴿وجزاء سيئة سيئة مثله، فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

وقال: ﴿والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾.

وما كان الرسول ﷺ يقضب إلا الله.

وما يذكر أن المولى يقتدى برسول الله ﷺ في الانتصار لله سبحانه وتعالى، وما جوهر حياة المولى إلا الانتصار لله تعالى؛ ينتصر لله من نفسه، وينتصر لله في أسرته، وينتصر لله في مجتمعه، أنه يقوم بالمبدأ الإسلامى الواجب وهو: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد جاء في بعض الأحاديث أنه ﷺ كان في بعض غزواته وامرأة تطوف على ولدها رضيع، فلما وجدته أحنت عليه وألقت به الثدي، فنظر الصحابة إليها متعجبين، فقال ﷺ: «لله أرحم بعبده المؤمن من هذه» (٨٠) بولدها.

ومن هذه الرحمة برز انتصار الحق لهم ومحاربة من عاداهم؛ إذ هم محال أسرارهم ومعادن أنوارهم، وقد قال الله سبحانه:

﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ (٨١).

وقال: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ (٨٢).

غير أن مقابلة الحق سبحانه لمن آذى أوليائه ليس يلزم أن تكون معجزة؛ لقصر مدة الدنيا عند الله؛ ولأن الله لم يرض الدنيا أهلاً لعقوبة أعدائه كما لم يرضها أهلاً لإثابة أحبائه، وإن كانت معجزة فقد تكون قساوة في القلب، أو جهوداً في العين، أو تعويقاً عن طاعة الله، أو وقوعاً في ذنب، أو فترة في الهمة أو سلب للذادة خدمته.

وقد كان رجل في بني إسرائيل أقبل على الله ثم أعرض عنه فقال: يارب كم أعصيك ولا تماقني، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل لفلان: كم عاقبتك ولا تشعر؟ ألم أسليك حلاوة ذكرى ولذادة مناجاتي؟

وفائدة هذا البيان أن لا يحكم لإنسان آذى ولياً من أولياء الله بالسلامة، إذا لم تر عليه محنة في نفسه وماله وولده، فقد تكون محنته أكبر من أن يطلع العباد عليها.

وقوله ﷺ حاكياً عن الله عز وجل:

«وما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضته عليهم».

فاعلم أن الفرائض التي اقتضاها الحق من عباده على قسمين: ظاهرة وباطنة، فالظاهرة: الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، والحج، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبر الوالدين، إلى غير ذلك.

والباطنة: العلم بالله، والحب لله، والتوكل عليه، والثقة بوعده، والخوف منه، والرجاء فيه، إلى غير ذلك، وهي أيضاً تنقسم قسمين: أفعال وترك، شيء اقتضى الحق منك أن تفعله، وشيء اقتضى الحق منك أن لا تفعله، وقد جمع ذلك في آية واحدة، قال الله سبحانه:

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾ (٨٣).

فهذا أمر طلب الله منك أن تفعله، ثم قال:

﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ (٨٣).

(٨٠) رواه البخاري في الأدب، ومسلم في التوبة، وأبو داود في الجنائز وابن ماجه في الزهد.

(٨١) البقرة: ٢٥٧.

(٨٢) النحل: ٩٠.

(٨٣) الحج: ٣٨.

فهذا أمر يقتضى منك أن تتركه.

ثم أعلم رحمتك الله أن الله لم يأمر العباد بشيء وجوباً أو يقتضيه منهم ندباً إلا والمصلحة لهم في فعل ذلك الأمر، ولم يقتض منهم ترك شيء تحريماً أو كراهة إلا والمصلحة لهم في أمرهم بتركه وجوباً أو ندباً ولستأقول كما قال من عدل به عن طريق الهدى: إنه يجب (٨٤) على الله رعاية مصالح عباده. بل إننا نقول: ذلك عادة الحق وشرعته المستمرة، فعلها مع عباده على سبيل التفضل، فليت شعري إذا قالوا يجب على الله رعاية مصالح عباده فمن هو الموجب عليه؟

ثم إننا نظرنا فوجدنا كل مأمور به أو مندوب إليه يستلزم الجمع (٨٥) على الله، وكل منهى عنه أو مكروه يتضمن التفرقة (٨٦) عنه، فإذا مطلوب الله من عباده وجود الجمع عليه. لكن الطاعات هي أسباب الجمع ووسائله فلذلك أمر بها، والمعصية هي أسباب التفرقة ووسائلها فلذلك نهى عنها. وأما الفرائض الظاهرة فلا تنفك عن فروض باطنية، والفرائض الباطنة شروطها ومجدها (٨٧) لها، وبين الفرائض الظاهرة والباطنة ما بين الظاهر والباطن.

وأفهم ههنا قوله ﷺ:

«نية المؤمن خير من عمله» (٨٨).

(٨٤) يشير بذلك إلى رأى المعتزلة.

(٨٥) الجمع ما كان من أقبل الحق من إبداء معاف، وإسداء لطف، وإحسان (انظر الرسالة القشيرية). والجمع في كل معانيه يقصد به القرب من الله سبحانه وتعالى، وآثار القرب، من الله سبحانه وتعالى لا حدود له، ذلك أن كمال الله سبحانه وتعالى لا يتناهى، ويكون معنى القرب من الله سبحانه وتعالى: زيادة كمال، وزيادة الكمال من آثار زيادة الإيمان، وكلما زادت استقامة الإنسان زاد إيمانه، فزاد بذلك كماله، وزاد قربه من الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أكثر من مرة في كتابه الكريم زيادة الإيمان، وتحدث سبحانه عن أهل اليمن، وعن الأبرار، وعن المقربين، والمقربون هم فئة أهل الإيمان، ودونهم الأبرار في المنزلة، وأهل اليمن ناجون وكلهم فضلاء يتفاوتون في الفضل بحسب همهم في طاعة الله والخضوع له. والتفرقة: هي البعد عن الله سبحانه وتعالى بالمعاصي، وهي بعد عن الكمال، ونقص في الإيمان.

(٨٦) أى رؤية الكسب من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية.

(٨٧) أى معينة عليها.

(٨٨) روى القضاة في مسند الشهاب، وابن عساكر في أماليه وقال غريب والطبراني في المعجم الكبير: قال الهيثمي: رجاله موثقون إلا حاتم بن عباد بن دينار لم أر من ذكر له ترجمة، وقال المناوي: له عدة طرق تحيّر ضعفه، وإنما كانت نية المؤمن خيراً من عمله.

لأن تقليد الله العبد في الجنة ليس بعمله، وإنما هو لنيته؛ لأنه لو كان بعمله كان خلوده فيها بقدر مدة عمله، أو أضعافه، لكنه جازاه بنيته؛ لأنه كان نائياً أن يطيع الله أبداً، فلما أخترته منيته جوزى بنيته، وكذا الكافر لأنه لو جوزى بعمله لم يستحق التخليد في النار إلا بقدر مدة كفره ولأنه لوى الإقامة على كفره أبداً لو بقى فجوزى بنيته، ذكره بعضهم. وقال الأكرمانى: المراد أن النية خير من العمل بلا نية؛ إذ لو كان المراد خير من عمل مع نية لزم كون الشيء خيراً من نفسه مع غيره، أو المراد أن الجزء الذى هو النية خير من الجزء الذى هو العمل؛ لاستحالة دخول الرياء فيها، أو أن النية خير من جملة الخيرات الواقعة بعمله، أو أن النية فعل القلب، وفعل الأشراف أشرف، أو لأن القصد من الطاعة تنوير القلب، وتنويره بها أكثر لأنها صفة.

وقال البعض: إننا قال النبي ﷺ ذلك؛ لأن النية عبودية القلب والعمل عبودية الجوارح وعمل القلب أبلغ وأثمن، وهو أمير، والجوارح رعية، وعمل الملك أعظم وأبلغ، ولأن العمل يدخل تحت الحصر، والنية لا، إذ المتحقق في إيمانه عقد نيته على أن يطيع الله ما أحياء، ولو أماته ثم أحياء، وتم ثم، وهذا اعتقاد منبر مستدام، فيرتب له من الجزاء على نيته ما لا يترتب له على عمله.

وكذلك الذنوب الباطنة صغائرها وكبائرها أشد من الذنوب الظاهرة، صغيرها من صغيرها وكبيرها من كبيرها، ولما كانت الفرائض اقتضاها الحق من عبده اقتضاة إلزام حتمه عليه لم يدخل العبد فيها إلا باختيار الله له، فاندفع هوى العبد فيها؛ لأن الله سبحانه وقت أعدادها وآمادها وأسبابها، فلما كان كذلك كان قيام العبد فيها مقتطعا عن اختياره لنفسه، راجعا إلى اختياره الله له، فأوجبت من القرب إلى الله ما لم يوجب غيرهما فلذلك قال: «ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما اقترضته عليهم».

ثم قال: وما يزال عبيد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه.
فاعلم أن النوافل هي الزيادة؛ ولذلك سمي النفل نفلا، وهو ما يتفله الإمام لمن يراه: زائدا على نصيبه من الغنيمة، وقال الله سبحانه:
﴿ومن الليل فتهجد به نافلة لك﴾ (٨٩).

= وقال بعضهم: معناه، أن المؤمن كلما عمل خيرا نوى أن يعمل ما هو خير منه، فليس لئنه في الخير منتهى، والفاجر كلما عمل شرا نوى أن يعمل ما هو شر منه، فليس لئنه في الشر منتهى.

وقال بعضهم في حديث آخر: من نوى حسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشر حسنات، فالعمل في هذا الحديث خير من النية، وليس ذلك مرادا للحديث الأول، وإنما تكون النية خيرا من العمل في حال دون حال.
وقال بعض شراح مسلم: أفاد هذا الخبر أن الثواب المترتب على الصلاة أكثر للنية وباقية لغيرها من قيام وغيره.
وفي رواية: «نية المؤمن أبلغ من عمله» لما تفروا؛ ولأن المؤمن في عمل ونيته عند فراغه لعمل ثان، ولأن النية بانفرادها توصل إلى ما لا يوصله العمل بانفراده، ولأنها هي التي تقلب العمل الصالح فاسدا، والفاسد صالحا، مثابا عليه، ويثاب عليها أضعاف ما يثاب على العمل، ويعاقب عليها أضعاف ما يعاقب عليه، فكانت أبلغ وأفع.
وقيل: إذا فسدت النية وقعت البلية.

ومن الناس من تكون نيته وهمة أجل من الدنيا وما عليها، وآخر نيته وهمة من أغس نية وهمة، فالنية تبلغ بصاحبها في الخير والشر ما لا يبلغ عمله، فحين نية من طلب العلم وعلمه ليوصل الله عليه وملائكته وتستغفر له دواب البر وحيتان البحر إلى نية من طلبه للأكل أو وظيفة كتدريس؟

وسبحان الله كم بين من يريد بعلمه وجه الله والنظر إليه وسماخ كلامه وتسليمه عليه في جنة عدن، وبين من يطلب حظا خسيسا كتدريس أو غيره من العرض الفاني.

قال الحكميم: والنية نهوض القلب إلى الله، وبدونها خاطر ثم المشيئة، ثم الإرادة ثم النهوض؛ ثم اللجوء إلى الله تعالى مرتعلا بعقله وعمله وذهنه وهمة وعزمه فمن هنا تتم النية، ومنه يخرج إلى الأركان فيظهر على الجوارح فعلة، وإذا صبح العزم خرج الرياء والفخر والخيلاء من جميع أعماله وبلغ مقام الأقوياء؛ وأما غير الكامل فصدوره مرج (يستأن) من المروج ملتف فيه من الثبات ما إذا تخطى فيه لا يكاد يستبين موضع قدمه أين يضعها من كثرة التفاني؛ فهذا صدر فيه أشغال النفس وفنونها ووساوس شهواتها فمن أين يأتي النور؟

وإذا يستدير قلب أجرد أزهري في صدره فمسح قد شرحه الله للإسلام فهو على نور من ربه (وطب بذكر الله ورحمته) وصلب بآلام الله.

والناس في هذه النية على طبقات: أما نية العامة فارتحلهم إلى الله بهذا العلم والعقل والذهن والهمة والعزم؛ فمبلغ ارتحالهم المحو، ثم ليس لقلوبهم من القوة ما يرتحلون به فيطهرون لأنه لا ريش لقلوبهم والمحو مسدود لأن القلوب لما مالت إلى النفوس وإطاعتها أفسد طريقها إلى ربه.

وأما العارفون فنياتهم صارت كلها نية واحدة لأن القلب ارتحل إلى الله ووجد الطريق إليه فمر والقلب أمير والنفس أسير، أهد فيض القدير ج ٦ ص ٢٩٢.

أى زيادة لك من فضلنا على ما اقتضته الفرائض لك.
واعلم أن الحق سبحانه لم يوجب شيئاً من الواجبات غالباً إلا وجعل من جنسه نافلة حتى إذا قام العبد بذلك الواجب وفيه خلل ما جبر بالنافلة التي هي من جنسه؛ ولذلك جاء في الحديث: أنه ينظر في صلاة العبد فإن قام بها كما أمره الله جوزى عليها وأثبتت له وإن كان فيها خلل أكملت من نافلته» (٩٠) حتى قال أهل العلم: إنما تثبت لك نافلة إذا سلمت لك الفريضة. ولما علم الله سبحانه أن في عباده المؤمنين أقوياء وضعفاء كما جاء في الحديث: «المؤمن القوى أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف» أو قال: «خير من المؤمن الضعيف» وفي كل خير (٩١).

ففسح الله على الضعفاء بالاكْتفاء بالواجبات، وفتح للأقوياء باب نوافل الخيرات، فعباد أنهمضهم إلى القيام بالواجبات خوف عقوبته، فقاموا بها تخليصاً لأنفسهم من وجود الهلكة وملاقاة العقوبة، فيما قاموا لله شوقاً له ولا طلباً برؤيته، فلو قوبلوا بالمحاققة لم يقبل منهم قيامهم هذا، فإنهم لم ينهضوا إلا لأجل نفوسهم ولم يطلبوا إلا حظوظهم، فقاموا بواجبات الله مجرورين بسلاسل الإيجاب؛ لذلك جاء في الحديث:

«عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل» (٩٢).

وأما العباد الآخرون فعندهم من غليان الشغف ووجود الحب ما ليس تكفيهم الواجبات، بل قلوبهم متلفتة إلى الله من عوائق هذه الدار، فلو لما يحجر عليهم التثفل بالصلاة في أوقات النهي لسر مدوا الأوقات بها، ولحملوا أنفسهم فوق ما يطيقون.

ومما يدل على أن الناس انقسموا على هذين القسمين أن رسول الله ﷺ قال في حديث: «بادروا بالأعمال سبعاً، هل ينتظر أحدكم إلا غنى مطغياً، أو فقراً متسياً، أو مرضاً مفسداً، أو هرمًا مفنداً، أو موتاً مجهزاً، أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة فالساعة أدهى وأمر» (٩٣).

فهذا الحديث يقتضى إنهاء الهمم إلى معاملة الله سبحانه وتعالى، والحث على المبادرة إلى طاعته، ومسابقة العوارض والقواطع قبل ورودها، فهذا خطاب الفريق الأول فطالبهم الرسول ﷺ بالمبادرة بالأعمال، وجاءت أحاديث أخر أمرة للعباد بالاعتقاد في الطاعة لئلا يطيعوا باعت الشغف فيحملون أنفسهم فوق ما يطيقون فيؤدى ذلك إلى عجزهم عن طاعة الله أو قيامهم فيها بوجود التكلف، فقال ﷺ:

(٩٠) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم عن عيم الدار بنحوه وصححه السورطى.

(٩١) رواه مسلم ونصه: المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أنى فعلت كذا، كان كذا، وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(٩٢) رواه أحمد والبخارى وأبو داود.

(٩٣) رواه الترمذى والحاكم وصححه.

«أكلفوا من العمل ما تطيقون فو الله لا يمل الله حتى تملوا» (٩٤).
وقال: القصد القصد تبلغوا (٩٥).

وقوله: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق» (٩٦).

وقوله ﷺ «ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله».

ومثل القائم بالواجبات المكتفى بها والقائم بها وبالنواقل معها كمثلي عبيدين خارجيهما (٩٧) الملك على أربعة دراهم كل يوم فأما أحدهما فقام بها ولم يزد، وأما الآخر فقام بها وعمد إلى طرف الفواكه وغرائب التحف فاشترها وأهداها إلى السيد، فهو لا شك أولى بؤد السيد من العبد الآخر. وقوله: فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به الحديث إلى آخره. المعنى به: وجود البقاء بعد الفناء فتمحى أوصافك وتطوى بظهور أوصاف المولى قبك. وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

إن لله عباداً يحو أفعالهم بأفعاله وأوصافهم بأوصافه وذواتهم بذواته وحملهم من أسرارهم ما يعجز عامة الأولياء عن سماعه، وهم الذين غرقوا في بحر الذات وتيار الصفات، فهي إذا فناءات ثلاث أن يفنيك عن أفعالك بأفعاله، وعن أوصافك بأوصافه، وعن ذاتك بذاته، ولذا قال قائلهم:

وقوم تاهوا في أرض بقفر وقوم تاهوا في ميدان حبه
فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقا من قرب قربه

فإذا أفناك عنك أبقاك به، فالفناء دهلج البقاء، ومنه يدخل إليه، فمن صدق فناءه صدق بقاؤه، ومن كان عماً سوى الله ففناؤه كان بالله بقاؤه، ولذلك قالوا: من كان في الله تلفه كان على الله خلفه، فالفناء يوجب عذرهم، والبقاء يوجب نصرهم، الفناء يوجب غيبتهم عن كل شيء، والبقاء يحضرهم مع الله في كل شيء فلا ينقطعون عنه بشيء، الفناء يبيتهم، والبقاء يحييهم، ومن دكت جبال وجوده استمع داعي شهوده، قال الله سبحانه:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا. لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا. يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (٩٨).

(٩٤) رواه أحمد وأبو داود والنسائي ورواه الشيخان بنحوه.

(٩٥) رواه البخاري.

(٩٦) رواه أحمد عن أنس وصححه.

(٩٧) أطلقها ليعمل حرّين على أن يؤدّيا إليه أربعة دراهم كل يوم.

(٩٨) طه: (١٠٥ - ١٠٨) وبما يذكر هنا أنه قد أشار القوم بالفناء: إلى سقوط الأوصاف المذمومة.

وأشاروا بالبقاء: إلى قيام الأوصاف المحمودة به.

وإذا كان العبد لا يخلو عن أحد هذين القسمين، فمن المعلوم: أنه إذا لم يكن أحد القسمين كان القسم الآخر لا محالة، فمن فنى عن أوصافه المذمومة ظهرت عليه الصفات المحمودة، ومن غلبت عليه الخصال المذمومة استترت عنه الصفات المحمودة.

وصاحب البقاء يقوم عن الله، وصاحب الفناء يقوم الله عنه.
 وقوله: وما ترددت في شيء أنا فاعله أكثر من ترددي في قبض روح عبدي المؤمن، يكره الموت
 وأكره مساءته ولا يذ له منه.
 اعلم أن التردد يجب تأويله ولا يحمل على ظاهره، وإنما التردد في المخلوقين: إما لتقابل
 الجواذب، وإما لاتبهام العواقب وذلك محال في حق الله سبحانه، وإنما المراد بالتردد ههنا: أن سابق
 علم الله يقتضي وفاة العبد في الوقت الذي سبق العلم بتعيينه، وصفة الرأفة تقتضي دفع ذلك لولا
 ما سبق العلم، وقد أشار الحق سبحانه إلى صفة الرأفة بقوله: يكره الموت وأكره مساءته، وأشار إلى
 صفة العلم بقوله: ولا يذ له منه.

انعطاف:

واعلم رحمك الله بإقباله عليك وجعل أنواره واصله إليك، أنها ولايتان: ولي يتولى الله، وولي
 يتولاه الله، وقد قال الله عز وجل في الولاية الأولى:
 ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (٩٩).
 وقال في الولاية الثانية:
 ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٠).

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: من أجل مواهب الله الرضا بمواقع القضاء، والصبر عند
 نزول البلاء، والتوكل على الله عند الشدائد، والرجوع إليه عند النوائب.
 فمن خرجت له هذه الأربع من خزان الأعمال على بساط المجاهدة، ومتابعة السنة، والاعتناء
 بالأئمة، فقد صحت ولايته لله ولرسوله وللمؤمنين، ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب
 الله هم الغالبون.
 ومن خرجت له من خزان المن على بساط المحبة، فقد تمت ولاية الله له بقوله:
 ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

ففرق بين الولايتين: فعبد يتولى الله، وعبد يتولاه الله فهما ولايتان: صغرى وكبرى، فولايته
 لله خرجت من المجاهدة، وولايته لرسوله خرجت من متابعتك لسنة، وولايته للمؤمنين خرجت
 من الاعتناء بالأئمة، فافهم ذلك من قوله:
 ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ... الْآيَةَ﴾.

واعلم رحمك الله بورود عواطفه (١٠١)، وفهمك لطائف عوارفه: أن الصلاح الذي في قوله عز
 وجل:

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾.

(٩٩) المائدة: ٥٦.

(١٠٠) الأعراف: ١٩٦.

(١٠١) أي: ينعمه وعطاياه.

ليس مرادًا به الصلاح الذى يقصده أهل الطريق عند تفصيل المراتب، فيقولون فلان صالح وشهيد وولى، بل الصلاح هنا المراد به: الذين صلحوا لحضرته بتحقيق الفناء عن خليقته، ألم تسمع قول الله سبحانه حاكياً عن يوسف عليه السلام.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

أراد بالصالحين هنا المرسلين من آياته، لأن الله أهلهم لنبوته ورسالته، فكانوا لها أهلاً. وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الإيمان، وولاية الإيقان، فولاية الإيمان قول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (١٠٢) وفي هذه الآية قوائد:

القائدة الأولى: اختصاص اسم الله بالذكر في هذا الموطن دون ما سواه من الأسماء فقال الله سبحانه:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

ولم يقل: الرحمن، ولا القهار، ولا غير ذلك من الأسماء التى تتضمن الأوصاف؛ لأنه أراد أن يعرفك شمول ولايته لعباده المؤمنين من الاسم الجامع لجميع الأسماء فلو ذكر اسماً من أسماء الأوصاف لكانت الولاية من حيثية ذلك الاسم.

القائدة الثانية: ربط الولاية بالإيمان؛ ليعرفك عزارة قدر الإيمان وعلو منصبه حتى كان سبباً لنبوت ولاية الله للعبد، ولا يفهم من هذه الآية اختصاص الولاية بمن وقع منه الإيمان قبل نزول هذا الخطاب لإتيانه بصيغة الماضى، بل المراد أن من قام به الإيمان وجبت ولاية الله له أى وقت كان ذلك الإيمان، وقد تساق الأفعال على صيغة خاصة وليس المراد خصوص تلك الصيغة، كما تقول قد أفلح من آمن وخاب من كفر، ألا ترى أن المراد بالأول: قد أفلح من كان منه إيمان، وقد خاب من كان منه كفر من غير تعرض لزمن معين.

القائدة الثالثة: دلّ سبحانه بقوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور على وسع رحمته وسبوغ نعمته: إذ لما قال:

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

علم أنهم قد يدخلون في الظلمات، ولكن الله لولايته إياهم يتولى إخراجهم، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَمْ يَصِرُوا عَلَىٰ مَآ فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

فساق ذلك مساق المدح للمؤمنين، كما ساق قوله: يخرجهم من الظلمات إلى النور، مساق

البشارة لهم، ولم يقل: والذين لا يفعلون الفاحشة؛ إذ لو قال ذلك لم يدخل فيه إلا أهل الاعتناء الأكبر.

وكذلك قوله:

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (١٠٣).

وكذلك قوله: ﴿وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظِ﴾ (١٠٤).

فمدحهم بالمغفرة بعد الغضب، ولم يقل: والذين لا يغضبون، فيصفهم بفقدان الغضب أصلاً؛ إذ البشرية التي هم متصفون بها لا تقتضي ذلك.

الفائدة الرابعة: إعلام الحق سبحانه في هذه الآية المؤمنين ببشارة عظيمة تتضمنها ولايته؛ لأنها تضمنت كل خير من خيور (١٠٥) الدنيا والآخرة، من: نور وعلم، وفتح وشهود، ومغفرة ويقين، وتأيد ووجود مزيد، وحور وقصور، وأنهار وثمار، ورؤية الله، ورضى عن الله، ومن الله، وما بين ذلك من الحشر مع المتقين، وأخذ الكتاب باليمين، وثقل ميزان الحسنات، والتثبيت على الصراط وما سوى ذلك من المنح والمواهب التي تضمنتها ولاية الله لعباده المؤمنين، فهي البشارة التي تضمنت كل بشارة.

واعلم أن ولاية الله تتضمن النفع والدفع.

أما النفع فمن قوله:

﴿قُلْ لَّا كَانَتْ قَرِيَّةٌ آمَنَتْ فَتَنْفَعُ إِيمَانُهَا﴾ (١٠٦).

ومن قوله: ﴿قُلْ لَّكَ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ (١٠٧).

وفي هذه وصف الكافرين، فمفهومه أن الإيمان ينفع المؤمنين ولو عند رؤية البأس، وكذلك قوله:

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ (١٠٨).

فمفهومه إذا كانت مؤمنة من قبل نفعا (١٠٩) بإيمانها.

وأما الدفع فمن قوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (١١٠).

وتتضمن النصر لقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١١).

وتتضمن النجاة لقوله:

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢).

(١٠٨) الأنعام: ١٥٨.

(١٠٩) أي انتفاعها بإيمانها.

(١١٠) الحج: ٣٨.

(١١١) الروم: ٤٧.

(١١٢) الأنبياء: ٨٨.

(١٠٣) الشورى: ٣٧.

(١٠٤) آل عمران: ١٢٤.

(١٠٥) جمع خير.

(١٠٦) يونس: ٩٨.

(١٠٧) غافر: ٨٥.

الفائدة الخامسة: قوله:

﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.
 أى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.
 ومن ظلمات البدعة إلى نور السنة.
 ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.
 ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق.
 ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة.
 ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.
 ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف.
 ومن ظلمات الهوى إلى نور التقوى.
 ومن ظلمات الدعوى إلى إشراق نور التبرى من الحول والقوى.
 ومن ظلمات الكون إلى شهود المكون.
 ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض.
 إلى غير ذلك مما لا يحصره العدّ مما يخرجهم منه ويخرجهم إليه.
 الولاية الثانية: ولاية الإيقان، وهى تتضمن الإيمان والتوكل، وقد قال الله سبحانه:
 ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (١١٣).

ولا يكون التوكل إلا مع اليقين، ولا يكون يقين وتوكل إلا مع إيمان؛ لأن اليقين عبارة عن استقرار العلم بالله فى القلب، مأخوذ من يقن الماء فى الجبل إذا سكن فيه، فكل يقين إيمان، وليس كل إيمان يقيناً.

والفرق بينهما أن الإيمان قد تكون معه الغفلة، واليقين لا تجامعه الغفلة.

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية الصادقين، وولاية الصديقين.

فولاية الصادقين بإخلاص العمل لله، والقيام بالوفاء مع الله، طلباً للجزاء من الله.
 وولاية الصديقين بالفناء عما سوى الله، والبقاء فى كل شيء بالله. وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: فى بعض كتب الله المنزلة على أنبيائه، «قال الله: «من أطاعنى فى كل شيء أطعته فى كل شيء»».

فقال الشيخ أبو الحسن: (من أطاعنى فى كل شيء بهجرته لكل شيء) أطعته فى كل شيء بأن أتجلى له فى كل شيء حتى يرانى أقرب إليه من كل شيء، هذه طريق أولى، وهى طريق السالكين،

وطريق كبرى: من أطاعني في كل شيء بإقباله على كل شيء لحسن إرادة مولاه في كل شيء، أطعته في كل شيء، بأن أتجلى له في كل شيء، حتى يراني كأني عين كل شيء.

وإذ قد عرفت هذا فاعلم أنها وليان: وليٌ يفنى عن كل شيء فلا يشهد مع الله شيئاً، ووليٌ يبقى في كل شيء فيشهد الله في كل شيء، وهذا أتم؛ لأن الله سبحانه لم يظهر المملكة إلا كى يشهد فيها، فالكائنات مرايا الصفات، فمن غاب عن الكون غاب عن شهود الحق فيه، فما نصبت الكائنات لتراها ولكن لترى فيها مولاه، فمراد الحق منك أن تراها بعين من لا يراها: تراها من حيث ظهوره فيها، ولا تراها من حيث كونيتها. ولنا في هذا المعنى:

ما أبينت لك العوالم إلا لتراها بعين من لا يراها
فأرق عنها رقبتي من ليس يرضى حالة دون أن يرى مولاه

فالناظر للكائنات غير شاهد للحق فيها غافل، والفاني عنها عبد بسطوات الشهود ذاهل، والشاهد للحق فيها عبد مخصص كامل. وإنما ترفع الهمة عن الكون من حيث كونيته لا من حيث ظهور الحق فيه، وذلك: لعدم نفوذهم إليه في كل شيء لا لعدم ظهوره في كل شيء، فإنه ظاهر في كل شيء حتى إنه ظاهر فيها به احتجب فلا حجاب. ولنا في هذا المعنى:

أرى الكل محتاجاً وأنت لك الغنى
وأنت الذى تُبدي الوداد تَكْرِمًا
وما طاب عيش لم تكن فيه واصلًا
عزمت على أن أترك الكون كله
شهودك يجلو والحجاب لأنسه
وما أحسن الأحباب في كل حالة
وإن الأولى لم يشهدوك بمشهد
وأنت الذى أظهرت ثم ظهرت في
ظهرت لكل الكون فالكون مظهر
فسأى فزاد عن وداك ينشئ
وأية نفس لم يلهها هواك
ومثل من يخطى ومثل من يعفو
ومثل من يرمى ومثل من ينجفو
ولم يصف - لا والله - أنى له يصفو
وأقفو سبيل الحب والمجتبى يقفو
إذا حقق التحقيق صار هو الكشف
فله ما يسدو وله ما ينجفو
قلوبهم عن نبيل سر الهوى غُلف (١١٤)
جميع المبادئ مثل ما شهد العرف
وفيه له أيضا كما جاءت الصحف
وأية عين بعد قربك لى تغفو
على حبكم طرًا نفوس الورى وقف

وإن شئت قلت هما ولايتان: ولاية دليل وبرهان، وولاية شهود وعيان. ولاية الدليل والبرهان لأهل الاعتبار، وولاية الشهود والعيان لأهل الاستبصار. فلأهل الولاية الأولى قوله سبحانه: ﴿وَسُورِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١١٥).

ولأهل الولاية الثانية:

﴿قُلْ اللَّهُ تَعَالَى فِي خُوضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١١٦)

(١١٤) أى منطاة عن الحق.

(١١٥) فصلت: ٥٣.

(١١٦) الأنعام: ٩١.

وأرباب الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان؛ لأن أهل الشهود والعيان قدسوا الحق في ظهوره أن يحتاج إلى دليل يدل عليه، وكيف يحتاج إلى الدليل من نصب الدليل؟ وكيف يكون معروفًا به وهو المعروف له؟

قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كيف يعرف بالمعارف من به عرفت المعارف؟ أم كيف يعرف بشيء من سبق وجوده وجود كل شيء؟
وقال مريد لشيخه: يا أستاذ، أين الله؟ فقال: أسحقتك الله، أتطلب مع العين «أين». وأنشد بعض العارفين:

لقد ظهرت فلا تحقّي على أحد إلّا على أكمه لا يبصر القمر
ثم استترت عن الأبصار يا صمد فكيف يُعرف من بالعرّة استترا
فما احتجب الحق عن العباد إلّا بعظيم ظهوره، ولا منع الأبصار أن تشهد إلّا قهارية نوره، فعظيم القرب هو الذي غيّب عنك شهود القرب.
قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:
حقيقة القرب أن تغيب في القرب عن القرب لعظيم القرب، كمن يشم رائحة المسك فلا يزال يدنو منها، وكلما دنا منها تزايد ريحها، فلما دخل البيت الذي هو فيه انقطعت رائحته عنه. وأنشد بعض العارفين:

كم ذا تموه بالشعبيين والعلم والأمر أوضح من نار على علم
أراك تسأل عن نجد وأنت بها وعن تهامة هذا فعل متهم
ووجدت بخط شيخنا أبي العباس رضي الله عنه:

أعندك من ليلي حديث محرر بإيراده يحیی الرميم وينشر
فعهدى بها العهد القديم وإنى على كل حال في هواها مقصر
وقد كان منها الطيف قدماً يزورنى ولما يزور ما باله يتعذر
فهل بخلت حتى يطيف خيالها أم اعتلّ حتى لا يصحّ التصوّر
ومن وجه ليلي طلعة الشمس تستضي وفي الشمس أبصار الورى تنحير
وما احتجبت إلّا برفع حجابها ومن عجبى أن الظهور تستر

وأعلم أن الأدلة إنما نصبت لمن يطلب الحق لا لمن يشهده؛ فإن الشاهد غنى بوضوح الشهود عن أن يحتاج إلى دليل، فتكون المعرفة باعتبار توصيل الوسائل إليها كسبية ثم تعود في نهايتها ضرورية.

وإذا كان من الكائنات ما هو غنى بوضوحه عن إقامة دليل، فالكون أولى بغناه عن الدليل منها.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:
إنّا ننظر إلى الله ببصائر الإيمان والإيقان، فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان وإنّا لا نرى أحداً

من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق؟ وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئاً.

ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إليه، فليت شعري هل لها وجود معه حتى توصل إليه، أو هل له من الوجود ما ليس له حتى تكون هي المظهرة له.

وإن كانت الكائنات موصلة إليه، فليس ذلك لها من حيث ذاتها، ولكن هو الذي ولّاها رتبة التوصيل فوصلت، فما وصل إليه غير إلهيته، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهي لمن وقف عندها ولم ينفذ إلى قدرته عين الحجاب، وقد قال الراوي: أصبح رسول الله ﷺ في أثر سحابة كانت من الليل، فقال:

أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: قال ربكم: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب.

رواه مالك في موطنه (١١٧)، فلا بد من الأسباب وجوداً ولا بد من الغيبة عنها شهوداً. وكيف تكون الكائنات مظهرة له وهو الذي أظهرها أو معرفة له وهو الذي عرفها. فإن قلت: فقد جاء في الحديث: من عرف نفسه عرف ربه فهذا يدل على أن معرفة النفس موصلة إلى معرفة الله وهي كَوْن من الأكوان ففيه إثبات توصيل الكائنات إليه.

فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: في هذا الحديث تأويلان: أحدهما: أي من عرف نفسه بهذا وعجزها وفقرها عرف الله بعزّه وقدرته وغناه فتكون معرفة النفس أولاً ثم معرفة الله من بعد.

والتأويل الثاني: من عرف نفسه عرف ربه، أي من عرف نفسه فقد دلّ ذلك منه على أنه عرف الله من قبل، فالأول حال السالكين والثاني حال المجذوبين.

واعلم بسط الله لك بساط منته وجعلك من أهل حضرته أن الله سبحانه إذا تولى ولّيا صان قلبه من الأغيار، وحرسه بدوام الأنوار، حتى لقد قال بعض العارفين: إذا كان الحق سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كيلا يسترق السمع منها، فقلب المؤمن أولى بذلك لقول الله سبحانه فيها يحكيه عنه رسول الله ﷺ: «لم تسعني أرضي ولا سمائي ويسعني قلب عبدي المؤمن» (١١٨).

فانظر رحمك الله هذا الأمر الأكبر الذي أعطيه هذا القلب حتى صار لهذه الرتبة أهلاً. ولقد قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لو كشف عن نور المؤمن العاصي لطبق ما بين السماء والأرض فما ظنك بتور المؤمن المطيع.

ولقد سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: لو كشف عن حقيقة الولي لعبد لأن

(١١٧) ورواه البخاري ومسلم.

(١١٨) لعل أصل هذا الحديث ما رواه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني من قول النبي ﷺ: إن لله آية من أهل الأرض، وآية ربكم قلوب عباده الصالحين.

أوصافه من أوصاف ونعوته من نعوت، ولقد أخبرني بعض المريدين قال: صليت خلف شيخى صلاة فشهدت ما أهر عقل، وذلك أنى شهدت بدن الشيخ والأنوار قد ملأته، وانبثت الأنوار من وجوده حتى أننى لم أستطيع النظر إليه، فلو كشف الحق عن مشرقات أنوار قلوب أوليائه لانتوى نور الشمس والقمر في مشرقات أنوار قلوبهم، وأين نور الشمس والقمر من أنوارهم؟ الشمس يطرأ عليها الكسوف والغروب، وأنوار قلوب أوليائه لا كسوف لها ولا غروب؛ ولذلك قال قائلهم:

إن شمس النهار تغرب بالليل
ول شمس القلوب ليست تغيب
وتور الشمس يشهد به الآثار ونور اليقين يشهد به المؤثر.

ولنا في هذا المعنى:

هذه الشمس قابلتنا بنور ولشمس اليقين أهر نوراً
فراينا بهذه النور لكنا بهاتيك قد رأينا المنيرا

لكن الحق سبحانه يوفى أعيان الكائنات حقها، ويعطيها قسطها، فيقدر لكن كون رتبته، ويوفيه دولته، فلذلك ستر سر الخصوصية في وجود البشرية، ولا بد للشمس من سحاب وللحسان من نقاب، وهل يكون الكنز إلا مدفوناً والسر إلا مضموناً؟ وضع ذلك سبحانه ليكون سر الولاية غيباً، فيكون المؤمن به مؤمناً به مؤمناً بالغيب، وأيضاً أجل ولايته أن يظهره في دار لابقاء لها فأرعى عليه ذيل الستر حتى إذا كانت الدار الآخرة التي رضىها أهلاً لظهوره واقتربه ووجود كشف حجابها، كذلك يكشف الحجاب هنالك عن سر الولاية ويجل مقداره ويرفع مناره (١١٩).

(١١٩) حين بدأ الرسول ﷺ الجهر بدعوته، بعد نحو ثلاث سنوات من الإسرار بها، فإنه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالبرهنة على صدقه هو، وتحدى العرب بصدقه! ومن قبل ذلك حين فاجأه الملك في القار ونزل الوحي لم يبدأ الملك أو لم يبدأ الوحي بإثبات وجود الله، وإنما بدأ بالأمر بأن يقرأ الرسول صلوات الله وسلامه عليه باسم ربه: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾. ومضى القرن الأول كله، ولم يحاول إنسان قط أن يتحدث حديثاً عابراً أو مستفيضاً عن إثبات وجود الله - تعالى - ومضى أكثر القرن الثاني والمسألة - فيما يتعلق بوجود الله - لا توضع موضع البحث. ذلك أن وجود الله: إما هو أمر يدهى لا ينبغي أن يتحدث فيه المؤمنون نفيًا أو إثباتًا، ولا سلبًا أو إيجابًا؛ إن وجود الله من القضايا المسلمة التي لا توضع في الأوساط الدينية موضع البحث لأنها قطرية؛ وإن كل شخص يحاول وضعها موضع البحث إنما هو شخص في إيمانه دخل. وفي دينه انحراف، فما خفى الله قط حتى يحتاج إلى أن يثبت البشر، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ومن المعروف أن الدين الإسلامى لم يجيء لإثبات وجود الله، وإنما جاء لتوحيد الله. وإذا تصفحت القرآن أو التوراة - حتى على وضعها الخالي - أو الإنجيل - حتى في وضحه الراهن: فإنك لا تجد أن مسألة وجود الله قد اتخذت في أى سفر منها مكانة تجعلها هدفًا من الأهداف الدينية، أو احتلت مكاناً يشعر بأنها من مقاصد الرسالة السماوية.

والقرآن الكريم: يتحدث عن بدهة وجود الله حتى عند ذوى العقائد المنحرفة يقول سبحانه: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ إنهم يقولون: إن الخالق هو الله. مع أنهم مشركون أو متحرفون بوجه من الوجوه في إيمانهم بالله تعالى، وما نزلت الأديان قط لإثبات وجود الله، وإنما نزلت لتصحيح الاعتقاد في الله، أو لتصحيح طريق التوحيد.

أما الآيات الكثيرة التي يظن بعض الناس أنها نزلت لإثبات الوجود، فليست من ذلك في قليل ولا في كثير، إنها تبين عظمة الله وجلاله وكبريائه، وهيمته الكاملة على العالم، ما عظم من أمره ودنى منه، لا تفوت هيئته صغيرة ولا كبيرة، ولا يخرج عن =

فاعلم ربك الله أن من أراد الله به أن يكون داعياً إليه من أوليائه، فلا بد من إظهاره للعباد إذ

«سلطانه ما دق وما جل».

وقد أتت على هذا الوضع لتقود الإنسان إلى إسلام وجهه لله إسلاماً كاملاً بحيث لا يصدر ولا يرد إلا باسمه سبحانه، ولا يأتي ما يأتي أو يدع ما يدع إلا في سبيله تعالى.

ومضى القرن الأول على ذلك، ومضى القرن الثاني - أو أكثره - على الفطرة ثم كانت الفلسفة اليونانية والفلسفة اليونانية فلسفة وثنية؛ لأنها تصدر عن العقل لا عن الوحي، وكل فكرة تصدر عن العقل لا عن الوحي في عالم ما وراء الطبيعة، أي في عالم العقيدة إنما هي فكرة وثنية، أي أنها فكرة لا حق لها في الوجود؛ لأن عالم العقيدة إنما هو من اختصاص الله، يبينه على لسان رسوله، وكل تدخل من الإنسان في هذا العالم، إنما هو تدخل فيها ليس للإنسان التدخل فيه؛ لأنه اقتحام لساحة محرمة مقدسة لا ينبغي أن يدخلها الإنسان إلا دخول الساجد الخاضع الخاضع المسلم لما جاء به الوحي الإلهي. إن الفلسفة اليونانية في عالم العقيدة؛ فلسفة وثنية؛ إنها وثنية حتى حين تثبت وجود الله، ولا يخرجها إثباتها وجود الله عن أن تكون وثنية، إنها وثنية بالمبدأ الذي قامت عليه، وهو مبدأ تأليه العقل البشري. ويستوى بعد ذلك أن تكون قد أثبتت وجود الله أو أنكرته.

وهي حينما تثبت وجود الله عقلياً ليس في ذلك كبير فائدة، ولا يبرر ذلك وجودها، ولا قيمة لما تثبت، وإثباتها والعدم سواء؛ ذلك أن العقل الذي أثبت هو العقل الذي يمكنه أن ينكر، وهو العقل الذي ينكر بالعقل. ولا لزوم إذن للثبوت والتصفيق الذي نحى به كل عبقرية فكرية في الشرق أو في الغرب تحاول فكراً أن تثبت وجود الله. إننا لا نقيم عقيدتنا على فكر بشري مهما كان هذا الفكر عبقرياً. ويجب على المؤمن ألا يقيم وزناً - أي وزن - لأي نتائج فكرية في عالم ما وراء الطبيعة سواء خالف معتقده أو وافقه، إنه في معتقده يدين لله وحده، وكفى بالله مصدراً، وكفى بالله هادياً، وكفى بالله مرشداً ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم. ومن يعتصم بالله فهو حسبه.

إن كل ما عدا الهدى الإلهي في عالم الدين إنما هو وثنية وضلال. كانت الفلسفة اليونانية فلسفة وثنية بشرية، وقد أرادت أن تجد لها من المصالح ما يخلصها من الخطأ فاختارت فناً وثنياً آخر، هو فن المنطق، فما أجدى ولا أغنى، ولا تقدم بالفكر الوثني في عالم الصواب شريراً. وبقيت هذه الفلسفة الوثنية - عبر القرون - على ما هي عليه، فيها كل سمات الوثنية من ضلال وخرافات. ولقد كانت الأمة اليونانية مهدورة بعض المدن فما كان في ربوعها، دين منزل من السماء نلجأ إليه مهتدية مسترشدة، وما كان مثلها في ذلك إلا كمثيل العصر الجاهلي في الجزيرة العربية؛ فلجأت إلى العقل وأهله، وأخذت تثبت به وتنكر فضلت وأضلت. جاءت الديانة النصرانية مصححة للوضع، فزلت فكرة الألوهية من تدنيس للوثنية، رسمت بالله جل جلاله عن أن تضع وجوده موضع البحث ثم تسَلَّت إليها - كمكروب خبيث - وثنية اليونان، فجعلت من وجود الله - مجرد وجود الله ياباً ضحياً من أبواب البحث أو من أبواب اللاهوت الكسبي، ونزلت بذلك الفكر الدينية المقدسة عن الله إلى مستوى الجَوِّ الوثني البشري؛ وجاء الإسلام تطهيراً كاملاً للعقيدة، وتركيزاً تاماً للإيمان، وأعلن بمجرد التسمية: «الإسلام» الحرب على التدخل البشري في دين الله ورسالته، فما جاء الإسلام إلا للاستسلام المطلق لله سبحانه وتعالى، إنه الاسترسال مع الله على ما يرضيه، وهل للإنسان غير هذا بالنسبة لله؟ وهل للمؤمن أن يتصرف تصرفاً آخر؟ وهل إذا تصرف تصرفاً آخر سُمي مؤمناً؟ إن الاسترسال مع الله على ما يجب هو الإسلام، وهو الدين لا دين غيره، يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ويقول سبحانه:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

وإن كل من لا يستسلم لله في وجهه استسلاماً مطلقاً، فإنه يبتنى - في قليل أو في كثير حسب انحرافه - غير الإسلام ديناً. ولقد كان الإسلام توجيهاً، وكان مبادئاً.

ومن توجييه الإسلام: أن وجود الله لا ينبغي أن يوضع موضع البحث، وكل من وضعه موضع البحث؛ فإنه بذلك يعدل عن توجييه الله تعالى إلى توجييه بشري، إنه يبتنى غير الإسلام موبجهاً؛

ولقد ابتنى المسلمون الأول الإسلام توجيهاً كما ابتنوه مبادئ، وسار الأمر على ذلك إلى أن تسَلَّت الفلسفة اليونانية -

لا يكون الدعاء إلى الله إلا كذلك، ثم لا بد أن يكسوه الحق سبحانه كسوتين: الجلالة، واليهاء.

= كمكروب خبيث - إلى الجوّ الإسلامي، تسلمت في عهد المأمون، وتولى كبر هذا التسلسل المأمون، وشجّعه على ذلك معتزلة عصره، وقابل المؤمنون ذلك بكثير من التفوق، وحقّ لهم ذلك، فما كان منطق الدين ولا منطق الفطرة السليمة يقضى بأن تكون راية العصمة، راية الدين الإلهي مرغوة ترغف على ربوع الأمة الإسلامية في محيط العقيدة؛ لتمثيل هذه الراية قليلاً أو كثيراً لترفع بجوارها راية أرسطو أو راية أبيقور.

ورفع المأمون راية الانحراف الوثنية بجوار راية الهداية المعصومة وعارض المؤمنون واحتجوا وبيّنوا أن الوثنية ولو وافقت الدين فهي وثنية.

ولكن التهج الوثني أخذ يقوى شيئاً فشيئاً، ثم طلب التصريح بالإقامة واستوطن، ومعاذ الله أن تكون عقائد الإسلام الكبرى - الإيمان بالله وبالرسالة والبحث - قد تلوّثت بالوثنية!

كلّا، وإلّا الذي تلوّث بالوثنية - وإلى حدّ كبير - إلّا هو التهج والتزعة والاتجاه في البحث ونتج البحث وليس ذلك بالأمر الخفّ أو الذي لا يؤبه له، كلّا! - فذلك له خطورته في جانب قوة الإيمان وضعف.

ويفرق بين أن تأخذ قضايا الوحي مأخذ المستسلم المسترسل معها على ما تريد، وأن تأخذها محكّمًا فيها عقلك مؤوّلًا لها أو عادلاً بها إلى اتجاه خاص، أو شارحًا لها على نزعة معينة.

ويتصوّر آخر: فرّق بين أن تصدر عن الوحي متفهّمًا له بعقلك، وبين أن تصدر عن عقلك متفهّمًا للوحي.

ولعلّ بعض الناس لا يرى فرقاً في التعبيرين، ولكن الفرق كبير إذا نظرنا إلى الوضع الإنساني: فهو إمّا أن ينطلق عن الوحي قائداً العقل إلى الخضوع له، وإمّا أن ينطلق عن العقل محاولاً تأويل الوحي بما يوافق النتائج التي وصل إليها العقل، والأوّل طريق المؤمنين المسلمين، والثاني طريق الفلاسفة أو نهج الوثنيين، والنتج الوثني - نهج إثبات وجود الله عقلياً - هو الذي أتاح الانحراف الكامل أي إنكار وجود الله، فمادام النتج الوثني قد أعطى حقّ الوجود، فإن الوثنية - كمنهج - تأتي بالوثنية كنتائج!

إن وضع مسألة وجود الله موضع البحث، هو الذي هيأ لذي الفطر المنحرفة أن يلحدوا في دين الله، وأن يكفروا به سبحانه. هذه نتيجة!

أمّا النتيجة الثانية فإنها ضعف الإيمان، وإذا كنت تضع الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع بحث، فمعنى ذلك أنك وضعت موضع شك وريبة، ولو لم يكن كذلك لما وضع موضع البحث.

وإذا كان الوجود الإلهي - مجرد الوجود - موضع شك وريبة فماذا بقي من أمور الدين لا يوضع موضع شك وريبة؟! إن الإيمان في هذه الأوضاع الوثنية لا يتأتّى له إلا أن يظهر شيئاً فشيئاً حتى يصبح كلاً إيماناً!

وهذا هو ما حدث لبعض الأفراد في الأمة الإسلامية!

لقد وصل إيمانهم إلى درجة يشبه أن يكون معدوماً، وما ذلك إلا لتغلغل النهج الوثني في بحث قضايا الدين ومبادئه. لقد أصبحت قضايا الدين - كلّ قضاياها - موضع بحث وهل يتأتّى أن تبقى قضية من قضايا الدين في مجال اليقين بعد أن وضع وجود الله - مجرد وجوده سبحانه - موضع البحث؟ نستفركم ألهم وتوب إليكم! وتعود فنقول: إن الدين في نفسه محفوظ بحفظ الله لكتابه العزيز.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

ولكن الذي تشكو منه إمّا هو: التهج، أو المنهج أو النزعة، أو الاتجاه في البحث.

إن الذي تشكو منه إمّا هو :

منهج البحث الوثني، وإن شئت قلت، إمّا هو منهج البحث اليوناني. سئل أحد العارفين عن الدليل على الله فقال: الله! فقيل له: فما العقل؟ فقال: العقل عاجز لا يدلّ إلا على عاجز مثله!

أما الإمام الكبير العارف بالله ابن عطاء الله السكندري الذي جمع بين رئاسة الشريعة ورئاسة الحقيقة فإنه يقول:

إلّهي: كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك؟

أليكون تغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك؟ متى شئت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك؟ متى يحدث حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك؟

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي أظهر كل شيء»!!

أما الجلالة فليعظمه العباد فيقفوا على حدود الأدب معه، ويضع له في قلوب العباد هيبه يبصره بها؛ ليكون إذا أمر ونهى مسموعاً أمره ونهيه، وجعل هذه الهيبه في قلوب العباد من تمكين الحق له ليعينه على القيام له بالنصرة، قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (١٢٠).

وهي من إظهار إعزاز الحق لعباده المؤمنين، قال الله سبحانه: ﴿وَوَقَّعَ الْعُرَّةَ وَارْسُولَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٢١).

وهذه الهيبه التي جعلها الحق في قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لا نبساط جاء المتبوع عليهم، ألم تسمع قوله ﷺ: نصرت بالرعب مسيرة شهر (١٢٢)؟ أليسهم الحق ملابس هيبته، وأظهر عليهم إجلال عظمته، كلما نزلوا إلى أرض العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية، فهم الملوك وإن لم تحقق عليهم البتود (١٢٣) والأعزاء وإن لم تسر أمامهم الجنود.

ولله در القائل في مالك بن أنس رضى الله عنه:

يَأْبَى الْجَوَابَ فَمَا يُرَاجِعُ هَيْبَةً وَالسَّائِلُونَ نَوَاصِي الْأَذْقَانِ
أَدَبُ الْوَقَارِ وَعِزُّ سُلْطَانِ الثَّقَى فَهُوَ الْمَطَاعُ وَلَيْسَ ذَا سُلْطَانِ

ومن ملكه الله أمر نفسه وهواه فقد آتاه الله الملك، قال الله تعالى:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ (١٢٤).

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول:

قال ملك من الملوك لبعض العارفين تَقَنَّ عَلَى:

فقال له ذلك العارف: إِلَى تَقُولِ وَلِي عَبْدَانِ قَدْ مَلِكْتُهُمَا وَمَلِكَاكَ وَقَهْرْتُهُمَا وَقَهْرَاكَ وَهِيَ الشَّهْوَةُ

= «كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر بكل شيء» ١٢

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الذي ظهر في كل شيء» ١٣

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الظاهر قبل وجود كل شيء» ١٤

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أظهر من كل شيء» ١٥

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو الواحد الذي ليس معه شيء» ١٦

«كيف يتصور أن يحجبه شيء وهو أقرب إليك من كل شيء» ١٧

«كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه ما كان وجود شيء» ١٨

«شتان بين من يستدل عليه، المستدل به عرف الحق لأهله فأثبت الأمر من وجود أصله، والاستدلال عليه من عدم الوصول

إليه، وإلا فمتى غاب حتى يستدل عليه، متى بعد حتى تكون الآثار هي التي توصل إليه» ١٩

(١٢٠) الحج: ٤٦.

(١٢١) المنافقون: ٨.

(١٢٢) رواه البخاري ومسلم والنسائي.

(١٢٣) أي ترغف الرايات.

(١٢٤) آل عمران: ٢٦ - وما ذكره المؤلف رضى الله عنه هو بعض ما تشير إليه الآية الكريمة وهي عامة، فهي تشمل الملك

في الآفاق - كل الآفاق - وفي الأنفس، أنه سبحانه المالك للسموات والأرض وما بين السموات والأرض، وهو سبحانه المملك

ما يشاء لمن يشاء، ومع ذلك ما يشاء لمن يشاء فهو المالك الدائم لكل ما خلق ويخلق.

والحرص؟ فأنت عبد عبيد. فكيف أقتنى على عبد عبيد؟!

الكسوة الثانية التي يكسوها الحق سبحانه لأوليائه إذا أظهرهم: كسوة البهاء، وذلك ليحليهم في قلوب عباده فينظرون إليهم بعين الألفة والمحبة، فيكون ذلك باعثاً لهم على الانقياد إليهم، أفلا ترى كيف قال الله سبحانه في شأن موسى عليه السلام:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ (١٢٥).

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ (١٢٦). فحلاهم بحلية الهيبة ليحبهم العباد فيجرهم حبهم إلى حب الله، والحب في الله يوجب المحبة من الله، لقوله ﷺ حاكياً عن الله: (وجبت محبتي للمتحابين في) (١٢٧).

وهي مراتب أربع: الحب لله، والحب في الله، والحب بالله، والحب من الله. الحب لله ابتداءً، والحب من الله انتهاءً، والحب في الله وبالله واسطة بينهما.

الحب لله هو أن تؤثره ولا تؤثر عليه سواء (١٢٨)، والحب في الله أن تحب فيه من والاه، والحب بالله أن تحب العبد من أحبه وما أحبه منقطعا عن نفسه وهواه، والحب من الله هو أن يأخذك من كل شيء فلا تحب إلا إياه.

وعلاوة الحب لله دوام ذكره مع الحضور، وعلاوة الحب في الله أن تحب من لم يحسن إليك بدنياً من أهل الطاعة والخير، وعلاوة الحب بالله أن يكون باعث الحظ ينور الله مقهوراً، وعلاوة الحب من الله أن يجذبك إليه فيجعل ما سواه عنك مستوراً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

من أحب الله وأحب الله فقد تمت ولايته بالحب.

والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة له غير مشيئته: فإذا من ثبتت ولايته من الله لا يكره الموت، ويعلم ذلك من قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَتُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٢٩).

فإذا الولي على الحقيقة لا يكره الموت إن عرض عليه.

وقد أحب الله من لا محبوب له سواء، وأحب له من لا يحب شيئاً لهواه، وأحب لقاءه من ذاق أنس مولاه.

(١٢٥) طه: ٣٩.

(١٢٦) مريم: ٩٦.

(١٢٧) قال النووي: حديث صحيح رواه مالك في الموطأ.

(١٢٨) يقول الله سبحانه:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾.

(١٢٩) الجمعة: ٦.

ويتمخض لك الحب له في عشرة فاعتبرها فيها وراها:
في الرسول ﷺ (١٣٠)، والصديق، والفاروق، والصحابه، والتابعين، والأولياء والعلماء الهداة إلى الله تعالى، والشهداء، والصالحين، والمؤمنين.

فإذا اخترق الأمر بعد الإيمان إلى عشرة أشياء: إلى السنة والبدعة والهداية والضلالة، والطاعة والمعصية، والعدل والجور، والحق والباطل، وميزت وأحببت وأبغضت فأحب له، وأبغض له، ولست تنال يأيها كنت، وقد يجتمع لك الوصفان في شخص واحد، ويجب عليك القيام بحقها جميعاً، فإذا قد بان لك الحب لله في العشرة الأول، فانظر هل ترى للهوى هناك أثراً، فذلك فاعتبر حب من حضر من إخوانك الصادقين، والمشايخ الصالحين، والعلماء المهتدين، وسائر من حضر ومن لم يحضر ممن غاب عنك أو مات، فإن وجدت قلبك لا متعلق له بمن حضر كما لا متعلق له بمن غاب عنك أو مات فقد خلص الحب من الهوى وثبت الحب لله، وإن وجدت شيئاً يتعلق به فيمن تحب أو فيما تحب فارجع إلى العلم وأتقن النظر في الأقسام الخمسة من الواجب والمندوب إليه والمكروه والمحظور والمباح.

واعلم أن قول الشيخ: «من ثبتت ولايته لا يكره الموت» هذا ميزان أعطاه للمريدين ليزنوا به نفوسهم إذا ادعى فيهم أو ادعوا ولاية الله، فإن من شأن النفوس وجود الدعاوى والتوئب إلى المراتب العالية من غير أن يسلك السبيل الموصلة إليها؛ ولهذا قال سيحانه: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ (١٣١).

وقال هنا: ﴿فتمّنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ (١٣٢).

وقال الرسول ﷺ لحارثة: «لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟» لما قال لحارثة: «كيف أصبحت؟» فقال: أصبحت مؤمناً حقاً، ولا يجب الموت من فيه البقاياء، ولا من هو مصر على شيء من الخطايا.

وجعل الله ثمن الموت شاهداً للولي بولايته، وعدم تمنيه شاهداً للغوى بغوايته.

وقل سيحانه: ﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ (١٣٣).

وبالموت ميزان على الأفعال والأحوال، كما هو ميزان في دائرة الرتب أما الرتب فكما تقدم، وأما الأفعال والأحوال فإذا التبس عليك أمر أنت فيه لا تدري، هل رضا الله في تركه أو فعله أو

(١٣٠) يقول رسول الله ﷺ:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». رواه مسلم.

ولقد قال سيدنا عمر مرة لرسول الله ﷺ:

واقة لأنت يا رسول الله أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي. فقال: لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك.

فقال عمر: فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي. فقال: الآن يا عمر.

(١٣١) النمل: ٦٤.

(١٣٢) الجمعة: ٦.

(١٣٣) الرحمن: ٩.

حالة أنت بها لا تدري؛ هل قمت فيها بحق أو قمت فيها بهوى، فأورد الموت على ما أنت فيه من أفعال وأحوال فكل حالة وعمل يثبت مع تقدير ورود الموت عليها ولم تنهزم فهي حق، وكل حالة وعمل هزمها الموت فهي باطل إذ الموت حق، والحق يهزم الباطل ويدمغه لقول الله عز وجل: ﴿يَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ (١٣٤).

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَآمُ الْغُيُوبِ﴾ (١٣٥).

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (١٣٦).

وما كنت فيه قائماً بحق لم يهزمه الموت إذ هو حق، والموت حق، والحق لا يهزم الحق. وقد تجاربت الكلام أنا وبعض من يشتغل بالعلم في أنه ينبغي إخلاص النية فيه، وأنه لا يشتغل به إلا الله، فقلت له: الذي يقرأ العلم لله هو الذي إذا قلت له غداً تموت لم يضع الكتاب من يده. وربما غر الغافل من طلبية العلم قول من قال: «طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا الله». وليس في قول هذا القائل ما يستروح به من طلب العلم للرئاسة والمنافسة، وإنما أخبر هذا القائل عن أمر من به عليه، وفتنة سلمه الله منها، لا يلزم أن يقاس عليه فيها غيره وذلك بمثابة من به مرض مزمن في المعنى أعياء علاجه وضاق منه خلقه فأخذ خنجراً وضرب به مراق يظنه ليقتل نفسه فصادف ذلك المعنى فقطعه فخرج الداء منه، فهذا لا يستصوب العقله فعله وإن نجحت عاقبته، وليست سلامة العواقب رافعة للعتب عن الملقين أنفسهم للتهلكة.

«ليس المرء بمحمود وإن سلماً».

وقول الشيخ رضي الله عنه: «وقد أحب الله من لا محبوب له سواء» فهو كلام يستدعي معرفة المحبة وما هي؟

اعلم أن المحبة هي من أجل مقامات اليقين، حق اختلف أهل الله أيها أتم: مقام المحبة أو مقام الرضا؟

وإن كان الذي نقول به: إن مقام الرضا أتم؛ لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب، وقوى عليه وجود الشغف، فأداه ذلك إلى طلب شهود ما لا يليق بمقامه، ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب، والراضى عن الله راضى عنه أشده أم حجيته؟ والمحب يحب دوام الوصلة، والراضى عن الله راضى عنه وصله أو قطعه إذ ليس هو مع ما يريد لنفسه، بل إنما هو مع ما يريد الله له، المحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له.

ولنا في هذا المعنى:

وكننت قديماً أطلب الوصل منهم	فلما أتاني العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلباً له	فإن قربوا فضل وإن بعدوا عدل

(١٣٤) الأنبياء: ١٨.

(١٣٥) سبأ: ٤٨.

(١٣٦) الإسراء: ٨١.

وإن أظهروا لم يظهروا غير وصفهم وإن ستروا فالستر من أجلهم يحلو
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

المحبة آخذه من الله لقلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلة لطاعته، والعقل
متحصناً بمعرفته، والروح مأخوذة في حضرته، والسرّ مغموراً في مشاهدته، والعبد يستزيد فيزاد،
وينفتح بما هو أعذب من لذيق مناجاته، فيكسى حلال التقريب على بساط القرية، ويسّ أبكار
الحقائق وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا:

أولياء الله عرائس ولا يرى العرائس المجرمون.
قال له القائل: قد علمت الحب.

فما شراب الحب؟

وما كأس الحب؟

ومن الساقى؟

وما الذوق؟

وما الشراب؟

وما الرى؟

وما السكر؟

وما الصحو؟

قال: الشراب هو التور الساطع عن جمال المحبوب،
والكأس هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب.

والساقى هو المتولى الأكبر للمخصوصين من أوليائه والصالحين من عباده وهو الله العالم بالمقادير
ومصالح أحيائه، فمن كشف له عن ذلك الجمال وحظى منه بشيء نفساً أو نفسين، ثم أرى عليه
الحجاب فهو الذائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقاً.

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك
هو الرى.

وربما غاب عن المحسوس والمعقول. فلا يدرى ما يقال، ولا ما يقول: فذاك هو السكر.
وقد تدور عليهم الكئوس وتختلف لديهم الحالات، فيردون إلى الذكر والطاعات، ولا يحجبون
عن الصفات، ومع تزامم المقدورات فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم.
فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يبتدون في ليلهم.

وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم.

﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾ (١٣٧).

قال الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن رضى الله عنها:
الزم الطهارة من الشرك، كلما أحدثت تطهرت من دنس حب الدنيا، كلما ملئت إلى شهوة
أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت.

وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو، كلما أفقت
أو تيقظت شربت، حتى يكورك وصحوك به، وحتى تغيب بجماله، عن المحبة، وعن الشراب
والشرب والكأس بما يبدو لك من نور جماله وقدر كمال جلاله.

ولعلَّ أُحْدِثَ مَنْ لَا يَعْرِفُ الْمَحَبَّةَ وَلَا الشَّرَابَ وَلَا الشَّرْبَ وَلَا الْكَأْسَ وَلَا الْسَّكْرَ وَلَا الصَّحْوَ.
قال له القائل: أجل، وكم من غريق في شيء لا يعرف بفرقه، فعرفني ونبيهي عما أجهل أو لما
مُنَّ به عليّ وأنا عنه غافل.

قلت لك: نعم المحبة آخذة من الله تعالى قلب من أحب بما يكشف له من نور جماله وقدر
كمال جلاله.

وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء
بالأسماء والنعمت بالنعمت والأفعال بالأفعال ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عز وجل.

والشرب سقى القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر، ويكون الشرب
بالتدريب بعد التدويب والتهذيب فيسقى كل على قدره.

فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله سبحانه يتولى ذلك منه له.

ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كاللائكة والعلماء والأكابر من المقربين.

فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئاً، فما ظنك بعد بالذوق، وبعد بالشرب، وبعد
بالرى، وبعد بالسكر والمشروب.

ثم الصحو بعد ذلك على مقادير شتى كما أن السكر أيضاً كذلك.

والكأس مغرفة الحق يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن شاء من عباده
المخصوصين من خلقه، فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة، وتارة يشهدا معنوية، وتارة
يشهدا علمية، فالصورة حظ الأبدان والأنفس، والمعنوية حظ القلوب والعقول، والعلمية حظ
الأرواح والأسرار.

فياله من شراب ما أعذبه، فطوي لمن شرب منه، وداوم عليه، ولم يقطع عنه.

نسأل الله من فضله: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (١٣٨).

وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقد يسقون من كنوس كثيرة، وقد
يسقى الواحد بكأس وكنوس، وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الأكؤس، وقد يختلف الشرب من

كأس واحدة وإن شرب منه الجمل الفقير من الأحبّة (١٣٩).

(١٣٩) لقد خلق بنا المؤلف في موضوع المحبة في صورة أسمى ما تكون السواطف، والواقع أن المحبة «صراط الأولياء» على حدّ تعبير الشبلي.

إنها صراطهم الدائم، حين يصلون إليها تلجج بها ألسنتهم، وقتلّ بها قلوبهم إلى آخر نفس من حياتهم. والناس في العواطف درجات: فمنهم سلطان المحبين، ومنهم سلطان العاشقين. ومهما جرح الإنسان أمر الحب، ومهما كان سلطانه فإنه في الأوضاع الشرعية التي التزمها الصوفية له شروط، وله علامات لن يتأتى أن يكون الحب بدونه. يقول الله تعالى في حديث قدسي:

«من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبّ إليّ مما افترضه عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذته».

وفي هذا الحديث الشريف يبدأ الله سبحانه بالتوجيه في قوة إلى صفاء القلب وطهارة النية بالنسبة لأوليائه.. وأوليائه هم:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾.

ومن عاداهم فإنما يعادي: المؤمن التقى.

ونتيجة هذه العداوة ما يقوله الله تعالى:

«آذنته بالحرب».

ثم يرسم الله سبحانه الطريق إلى حبه، وأول خطوة في هذا الطريق:

«أداء ما افترضه عليك»

ولن يتأتى حب الله سبحانه دون الشرط الأول: شرط القرب منه سبحانه وهو أداء الفرائض.

والحب دون أداء الفرائض زيف وكذب، بل إن أداء الفرائض شرط لحسن الظن بالله.

لقد ترك قوم العمل وقالوا: نحن نحسن الظن بالله - وكذبوا كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل»!

لا بد من أداء الفرائض، وإلا لما كان لهم لها إلى القرب من الله تعالى من سبقي ومع أداء الفرائض - في وجوب القرب - الإكثار من النوافل، فإذا أكثر من النوافل أحبه الله:

«وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه»!

ويترتب على حب الله تعالى للعبد هذا الخير الكثير الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي.

ويربط أسلافنا - رضوان الله عليهم - ربطاً محكمًا بين محبة الله سبحانه وأنبايع رسول الله ﷺ. متتاسقين في ذلك مع توجيه الله سبحانه:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

وهذا الربط معتد: الربط بين محبة الله تعالى والعمل.

ومقدمات محبة الله تعالى - في توفيقه - هي العمل، ومن نتائج محبة الله سبحانه: العمل.

يقول الإمام أبو سعيد الخراساني:

«بلغنا عن الحسن البصري رضي الله عنه أن ناساً قالوا - على عهد رسول الله ﷺ:

«يا رسول الله، إنا نحب ربنا حباً شديداً» فجعل الله تعالى لمحبتهم علماً وأنزل عز وجل:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾

فمن صدق المحبة اتباع رسول الله ﷺ في هديه وزهده وأخلاقه والتأسي به في الأمور كلها، والإعراض عن الدنيا وزهرتها وبعثتها، فإن الله عز وجل جعل محمداً عليه الصلاة والسلام علماً ودليلاً وحجة على أمته. ومن صدق المحبة لله تعالى إظهار محبة الله عز وجل في جميع الأمور على نفسك وهواك، وأن تبدأ في الأمور كلها بأمره قبل أمر نفسك.

ويقول:

فعلامة المحب الموافقة للمحسوب، والتجاري مع طرقاته في كل الأمور والتقرب إليه بكل حيلة، والحرب من كل ما لا يعينه على مذهبه.

انعطاف:

ثم اعلم فتح الله بصيرتك لشهود أنواره، ووالى عليك ورود معارفه وأسراره، أن من أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة.

«أما عن صلة المحبة بالإيمان فإن الإمام الغزالي يقول: وقد جعل رسول الله ﷺ الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو زين العقيلي: يا رسول الله، ما الإيمان؟ قال: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وفي حديث آخر:

«لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»

وفي رواية: «ومن نفسه».

كيف وقد قال الله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا، وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ، فَإِنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والإنكار... اهـ.

ومن أجل تعبيرات المحبين عن شعورهم ما يقوله يحيى بن معاذ: إلهي إني مقيم بفنائك، مشغول بتفانيك، صغيراً أخذتني إليك، وسريلتني بمعرفتلك، وأسكتتني من لطفلك، وتقلتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال: سترتاً وتوبةً، وزهداً وشوقاً، ورضاً وحباً، تسقيني من حياضك، وتهللني في رياضك، ملازماً لأمرك، ومشغوفاً بقولك... ولما طرَّ شاربي، ولاح طائري، فكيف أنصرف اليوم عنك كبيراً، وقد اعتدت هذا منك صغيراً، فلي ما بقيت حولك ددنة، وبالطراقة إليك مهمة، لأني محبٌ، وكل محبٌ بحبيبه شغوف، وعن غير حبيبه مصروف.

وبعد:

فإن ثمرة محبة الله تعالى هي ما قاله سبحانه عن أوليائه:

﴿لَهُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

وهي أيضاً أن يجد حلاوة الإيمان، يقول رسول الله ﷺ:

«ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان:

١ - أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

٢ - وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله.

٣ - وأن يكره أن يعبد في الكفر كما يكره أن يلقى في النار.

ولقد سمع الناس كثيراً عن عاطفة الحب الإلهي عند السيدة رابعة العدوية رضي الله عنها، وسمعوا عن حب الإمام ابن الفارض، والإمام البرعي. ونحب أن نضع بجزائر هؤلاء شخصية تشبها نموذجاً للصوفية في صلته بالله سبحانه: إنها شخصية الإمام الشبلي!

وإذا كان الجرم الفقير من الشعب الإسلامي قد أخذ فكرة عن الحب عند بعض الصوفية، فإنه لم تنح له الفرصة لأخذ فكرة مستفيضة عن الحب عند الشبلي ولكن المؤرخين للحياة أبي بكر الشبلي يتحدثون عن حبه الصديق وهيامه المستمر. ومنهم مثلاً صاحب الحلية الذي يقول عنه:

ومنهم المجتذب الوهمان، والمستلب السكران، الوارد العطشان، اجتذب عن الكدور والأغيار، واستلب إلى الحضور والأنوار، وسقى بالدنان، وارتمى بمثل ريان: أبو بكر الشهير بالشبلي.

وسرى القارئ أن أسباب المحبة عنده، وأن ثمارها، وأن تصرفها وكل ما يحيط بها منغمس في جو من الاتباع لرسول الله ﷺ، وشعار من التزام الشريعة القراء، وهكذا يتخذ الصوفية الشريعة والاقتداء برسول الله ﷺ أساساً لكل تصرفاتهم.

أما عن أسباب المحبة، فلأنها فيما يرى الشبلي نتيجة «الهمة»

والهمة عند الصوفية هي التشمير والجد في العبادة.

ويقول الشبلي:

«إن من ملئت همته ضعفت محبته»

سمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: يكون الولي مشحونا بالعلوم والمعارف والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أعطى العبارة كان كالإذن له من الله في الكلام، ويجب أن تفهم أن من أذن له في التعبير بهيت^(١٤٠) في مسامع الخلق عبارته، وحليت لديهم إشارته.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذى لم يؤذن له يخرج مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فتقبل من أحدهما وترد على الآخر.

ثم اعلم أن مبنى أمر الولي على الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه، والاعتناء بشهوده، قال الله سبحانه:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾^(١٤١).

وقال سبحانه: ﴿أليس الله بكاف عبده﴾^(١٤٢).

= فمع الهمّة إذن صموداً وهبوطاً تكون المحبة صموداً وهبوطاً.

ولقد جلس عنده جمع من المريدين فوجدهم غفلة لا يذكرون، فقال في حزن:

كفى حزناً بالواله الصب أن يرى منازل من يسوى ممطرة قفرا

وسئل مرة عن أعجب شيء فقال:

«من عرف الله ثم عصاه»!

ولا يسرّ المحب شيء أكثر من موافقة من يحب.

قال أبو القاسم عبدالله بن علي البصري: قال رجل للشبل:

إلى ماذا تستريح قلوب المشتاقين؟ قال:

«إلى سرور من اشتاقوا إليه وموافقته» وأنشد:

أُسْرُ بِمَهْلِكِي فِيهِ لَأَقَى أُسْرُ بِمَا يَسْرُ الْإِلْفُ جِدَا

وَلَوْ سَلْتُ عِظَامِي عَنْ بَسْلَاهَا لَأَنْكَرْتُ الْبِلَى وَسَمِعْتُ جِدَا

وَلَسَوْ أَنْخَرَجْتَ مِنْ سَقَمِي لِنَادَى لَهَبُ الشُّوقِ بِي بِسْأَلِهِ رَدَا

ولابد للمحب من الأدب الكامل في القول فضلاً عن السلوك ويقول الشبل:

«الانبساط مع الحق بالقول ترك أدب».

والمحبة رقى للمحبوب، وإذا سألت عن الفرق بين رقى العبودية ورقى المحبة فإن أحمد بن محمد بن عمران قال:

سمعت الشبل - وسئل - فقل: ما الفرق بين رقى العبودية ورقى المحبة؟ فقال: كم بين عبد إذا أعتق صار حراً، وعبد كلما

أعتق ازداد رقاً.

ثم أنشأ يقول:

لنحتسرن عظامي بعبد إذ بلغت يوم الحساب وفيها حيكم علق

وقد يسأل إنسان عن تعريف المحبة عند الشبل: ما هي؟

والجواب: إنه يقول:

«المحبة اتباع أوامر المحبوب، وتجنب نواهيه، ومع ذلك فيجب الصدق والإخلاص، وكنان الحال مع بذل الجهد في المجاهدة،

ثم بعد ذلك لا توصل للمحبوب إلا بفضل الله وببرحمته فيذلك فليفرحوا».

(١٤٠) بهيت: أي حسنت وراقت.

(١٤٢) الزمن: ٣٦.

(١٤١) التلاقي: ٣.

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (١٤٣).

وقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ يَرِيكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٤٤) ؟ فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكنم الأحوال، تحقيقاً لفنائهم، وتثبيتاً لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحياً في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين، وأيدوا بالرسوخ والتمكين، وتحققوا بحقيقة الفناء، وردوا إلى وجود اليقاع، فهناك إن شاء الحق أظهرهم، وإن شاء سترهم، وإن شاء أظهرهم هادين لعباده إليه، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء كما قدمناه، فلما لم يكن الظهور مطلبهم، وأراد الله سبحانه إظهارهم فأظهرهم، تولاهم في ذلك بتأييده وواردات مزیده لقوله ﷺ: يا عبد الرحمن بن سمره لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها (١٤٥).

ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهوراً ولا خفاء، بل إرادته وقف على اختيار سيده له. وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: من أحب الظهور فهو عبد الظهور، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء، ومن كان عبداً لله فسواء عليه أظهره أو أخفاه.

ولتختتم هذه المقدمة بذكر كرامات أولياء الله جوازا ووقوعا وأقسام ذلك على سبيل الاختصار، وكون هذا قد سبق إلى الكلام عليه بالإيعاب غيرنا قد أقام لنا الاعتذار، لكننا ننبه على نكت (١٤٦) مفيدة لأولى الألباب، ويكشف عن وجه حسنها ما أسدل عليه من نقاب، ليكون ذلك مهيباً لك لقبول ما نورده عن هذه الطائفة من الكرامات، وما نسنده إليهم من بواهر الآيات إن شاء الله تعالى.

فصل في الكلام على الكرامات

اعلم أن الكلام في الكرامات ينحصر في طرفين :

الطرف الأول : الجسوان

والثاني : الوقوع.

أما الجواز فلا يخفى أن ظهور الكرامة من الأولياء من الممكنات؛ لأنه لو لم يكن من الممكنات، فلما أن يكون من الواجبات، وما أن يكون من المستحيلات، وباطل أن يكون من المستحيلات فإن المستحيل هو الذي لو قدر وجوده لزم منه محال عقلي، ولا يلزم من تقدير وجود الكرامات محال عقلي، وباطل أن يكون جريان الكرامات على الأولياء وجوبا إذا الطائفة مجمعة على أنه قد يكون الولي وليا وإن لم تخرق العادة له.

فتمين أن يكون من الجائزات، وكل شيء كان من الجائزات لا يحيله العقل، وكل ما لا يحيله العقل ولم يرد بعدم وقوعه نقل فجائز أن يكرم الله به أوليائه.

ثم إن هذه الكرامات قد تكون طيا للأرض، ومشيا على الماء، وطيرانا في الهواء، وإطلاعا على كوائن كانت وكوائن بعد لم تكن من غير طريق العادة، وتكثيرا لطعام أو شراب، أو إثيانا بشجرة في غير إيثانها، أو اتباع ماء من غير حفر، أو تسخير حيوانات عادية، أو إجابة دعوة بإتيان مطر في غير وقته، أو صبرا عن الغذاء مدة تخرج عن طور العادة أو إثمارا لشجرة يابسة ما ليس عادتها أن تكون مشجرة له، وهذه كلها كرامات ظاهرة حسية.

وكرامات هي عند أهل الله أفضل منها وأجل وهي الكرامة المعنوية : كالعرفه بالله، والخشية له، ودوام المراقبة له، والمصارعة لامتنال أمره ونهيه، والرسوخ في اليقين والقوة والتمكين، ودوام الثقة به، وصدق التوكل عليه، إلى غير ذلك.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول :

الطى على قسمين : طى أصغر و طى أكبر.

فالطى الأصغر لعامة هذه الطائفة أن تطوى لهم الأرض من مشرقها إلى مغربها في نفس واحد. والطى الأكبر طى أوصاف النفوس.

وصدق رضي الله عنه فإن طى الأرض لو أعجزك الله عنه وأفقدك إياه ما نقص ذلك من رتبك عنده إذا قمت له بالوفاء في العبودية، و طى أوصاف النفوس لو لم تقدم عليه به لكنت من المعتوبين وحشرت في زمرة الغافلين.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوى والمخادعة فمن

أعطيتها ثم جعل يشناق إلى غيرها فهو عبد مفتر كذاب وذو خطأ في العلم والعمل بالصواب، كمن أكرم بشهود الملك على نعت الرضا فجعل يشناق إلى سياسة الدواب وخلع الرضا، وكل كرامة لا يصحبها الرضا من الله ومن الله فصاحبها مستدرج مغرور أو ناقص أو هالك مشهور. واعلم أن اطلاع أولياء الله على بعض الغيوب لا يحيله العقل وقد ورد به النقل.

قال أبو بكر لعائشة رضى الله عنها في مرض موته وزوجته حامل: إنما هما أخواك وأختاك ووطن خارجة أراها جارية فأخبر بأن في بطن امرأته جارية وكان كما قال رضى الله عنه. وقال عمر رضى الله عنه: يا سارية الجبل، وسارية بأقصى العراق؛ فسمع سارية صوته وكان قد أطلعه الله على سارية وقد أحاط به العدو فأمره بالانحياز إلى الجبل فأنحاز هو والجيش الذي كان معه فانتصروا وظفروا وكان قد قال ذلك وهو في أثناء خطبته على المنبر فترك الخطبة، وقال يا سارية الجبل، وعاد إلى خطبته، فجاء بعض الصحابة إلى على رضى الله عنه فقالوا له: بينما عمر اليوم يخطب إذا ترك خطبته وقال: يا سارية الجبل، ثم عاد إلى خطبته، فقال على: ويحكم دعوا عمر فإنه ما دخل في شيء إلا كان له المخرج منه، فبعد ذلك قدم سارية وأخبر عن ذلك اليوم أنه سمع. نداء عمر في الوقت الذي نادى فيه عمر (١٤٧).

وقول عثمان رضى الله عنه لداخل دخل عليه وكان قد نظر إلى محاسن امرأة في الطريق: يدخل أحدكم وآثار الزنى بادية في وجهه.

وأما على بن أبي طالب رضى الله عنه فقد جاء عنه في هذا الباب العجب العجيب حتى إنه ذكر الأخباريون عنه أنه أرجف بالكوفة أن معاوية قد مات فقال رضى الله عنه إذا بلغه ذلك: والله ما مات ولن يموت حتى يملك ما تحت قدمي هاتين، وإنا أراة ابن هند أن يشيع ذلك حتى يستثير علمي فيه، فمن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية، وعلموا أن الأمر صائر إليه.

وحكايات الأولياء في كل عصر ومصر تتضمن ثبوت ذلك بما بلغ حد التواتر فلا يمكن جحده. ثم أنا أدلك - رحمك الله - على أمر يسهل عليك التصديق بذلك، وهو أن اطلاع العبد المخصوص على غيب من غيوب الله ليس بجشمانيته ولا وجود صورته، وإنما هو بنور الحق فيه. دليل ذلك قوله ﷺ:

(١٤٧) يقول ابن خلدون في هذا المقام:

(وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعرفية عن المقاصد المذمومة أو إنما يقصدون جمع الهمة، والإقبال على الله بالكلفة ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوسيد، وينبدون في رياضتهم إلى الجمع، والجوع، والتفلة بالذكر، فيها تتم وجهتهم في هذه الرياضة، لأنه إذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب إلى العرفان بالله، وإذا عريت عن الذكر كانت شيطانية، وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف لهؤلاء المتصوفة إنما هو بالعرض، ولا يكون مقصوداً من أول الأمر؛ لأنه إذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله، وإنما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب، وأخسر بها صفقة، فإنها في الحقيقة شرك، قال بعضهم: «ومن أثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني» أي (فقد قال بأن الله له ثان - أي أشرك بالله) فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لا شيء سواه، وإذا حصل في أثناء ذلك ما يحصل بالعرض وغير مقصود لهم.

وكثير منهم يفر منه إذا عرض له ولا يحفل به، وإنما يريد الله لذاته لا لغيره، وحصول ذلك لهم معروف، ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فحاشا، وما يقع لهم من التصرف كرامة، وليس شيء من ذلك بذكر في حقهم، وقد ذهب =

«أتقوا فراصة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» (١٤٨).

فكيف يستغرب أن يطلق مؤمن على غيب من غيوب الله بعد أن شهد له الرسول ﷺ أنه إنما ينظر بنور ربه لا بوجود نفسه!

وكذلك قوله في الحديث الذي تقدم.

فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به - الحديث إلى آخره.

ومن كان الحق بصره فليس الاطلاع على الغيب بمستغرب فيه.

وفي بعض طرق هذا الحديث: فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً وقلباً وعقلاً ويداً ومؤيداً.

فإن قلت: كيف تصنع بهذه الآية؟ وهي قوله سبحانه:

﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول﴾ (١٤٩).

فلم يستثن أحداً إلا الرسول؟

فاعلم أني سمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه يقول: وفي معناه أو صديق أو ولي (١٥٠).

فإن قلت هذه زيادة على ما تضمنه الكتاب العزيز.

فاعلم أنه إذا قيل إن السلطان لم يأذن اليوم إلا للوزير وحده ربما دخل ممالك الوزير معه.

= إلى إنكاره الأستاذ أبو إسحق الأسفرايني. وأبو محمد بن أبي زيد المالكي - فراراً من التباس المعجزة بغيرها، والممول عليه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتمحيص فهو كاف.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال:

«إن فيكم محدثين، وإن منهم عمر» (أي فيكم من يجبر بالأمر كأنه حدث به).

وقد وقع للمصاحبه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضي الله عنه: يا سارية الجبل - وهو سارية بن ذئب، كان قائداً على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات، وتورط مع المشركين في معترك، وهم بالانهزام، وكان يقر به جيل يتجهز إليه، فرفع لعمر ذلك وهو يحطّب على الثبر بالمدينة فتأذاه:

«يا سارية الجبل» وسمعه سارية وهو بكائه، ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة.

ووقع مثله أيضاً لأبي بكر - رضي الله عنه - في وصيته عائشة ابنته رضي الله عنها في شأن ما تحلها من أوسق الثمر من حديثه، ثم نهىها على جذافه لتحوزه عن الورقة، فقال في سياق كلامه... «وإنما هما أخواك وأختاك» فقالت: (إنما هي أسباء.

فمن الأخرى؟ فقال: «إن ذا بطن بنت خارجة أراها جارية» فكانت جارية، وقع في الموطأ في باب: «ما لا يجوز من النحل». ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم، ولئن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء إلا أن أهل التصوف يقولون: إنه يقل في زمن النبوة، إذا لا يبقى للمريد حالة بحضرة النبي حتى إنهم يقولون:

إن المرید إذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله ما دام فيها حتى يفارقها.

والله يرزقنا الهداية ويرشدنا إلى الحق... أهـ. مقدمة ابن خلدون ٥٣٢/٨ - ٥٣٥ مع تصريف يسير.

(١٤٨) رواه البخاري في التاريخ والترمذي عن أبي سعيد والحكيم الترمذي، والطبراني وابن عدي عن أبي أمامة، وابن

جرير عن ابن عمر.. والفراصة بكسر الفاء دقة النظر، ووفور العلم بنور البصيرة.

(١٤٩) الجنب: ٢٦، ٢٧.

(١٥٠) في تفسير الألوسي لهذه الآيات.. ظهر الآية أنه تعالى عالم كل غيب وحده لا يظهر على غيبه المختص به، وهو ما يتعلق بذاته تعالى وصفاته عز وجل بدلالة الإضافة: «إلا رسولا» وهو كذلك، فإن غيبه تعالى لا يطلع عليه إلا بالإعلام من رسول ملكي أو بشري، ولا كل غيبه تعالى الخاص مطلع عليه، بل بعضه وأقل القليل منه، فنل المفهوم على أن غير هذا النوع الخاص من الغيب لا منع من اطلاع الله تعالى غير الرسول عليه، فهذا امر الآية دون تعسف. إلخ.

وكان الإذن لمتبوعهم إذناً لهم، كذلك الولي إذا أطلعه الله على غيب من غيوبه فإنما ذلك لانطوائه في جاء النبوة، وقيامه بصدق المتابعة، فما رأى ذلك بنفسه وإنما رآه بنور متبوعه. وأيضاً أن الآية تشير إلى نفى اطلاع العباد على غيب الله إلا من أطلعه الله. وبين سبحانه سبب إطلاعه من أطلعه على غيب من غيوبه وأن ذلك إنما كان لأنه مرتضى عنده بقوله إلا من ارتضى.

وقوله من رسول خصّ الرسول بالذكر ولم يذكر النبي ولا الصديق ولا الولي وإن كان كل منهم ممن ارتضى؛ لأن الرسول أولى بذلك مما سواه.

أمور تسهل عليك الإيمان بكرامات أولياء الله وأن لا تستكثرها عليهم:

الأول: أن تعلم أن قدرة الله التي لا يكبر عليها شيء هي التي أظهرت الكرامة في هذا الولي فلا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة السيد؛ فجحد الكرامة للولي جحدٌ لقدرة القدير؛ وعمى منك من شهود عظيمة وصفه سبحانه وتعالى.

الثاني: أنه ربما كان سبب إنكار الكرامة استكثارها على ذلك العبد الذي أضيفت إليه؛ وذلك العبد إنما أظهرت الكرامة عليه شهادة بصدق طريق متبوعة؛ فهي بالنسبة إلى من ظهرت عليه وهو ذلك الولي كرامة؛ وهي بالنسبة إلى من ظهرت ببركات متابعتها معجزة؛ فلذلك قالوا:

كل كرامة لولي فهي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي مُتبع له؛ فلا تنظر إلى التابع ولكن انظر إلى عظيم المتبوع.

الثالث: أن تعلم أن الذي أعطاه الله سبحانه لأوليائه من الإيمان واليقين مما أنت مصدق به ومثبت له أعظم مما استغريته، وأنكرته، من اطلاع على غيب أو طيران في الهواء، أو مشي على الماء؛ فمثلك إذا استغريت ذلك على المؤمن كمثل من يستغرب على عبيد من خواص الملك أعطاه الملك سبطاً (١٥١) مملوءاً ياقوتاً ثميناً علمت أنت به؛ كل يا قوة تضمّنها ذلك السبط تساوي عشرة آلاف دينار؛ ثم قال ذلك العبد الذي هو من خواص الملك أو قيل عنه: إن الملك قد أعطاه مائة دينار؛ فاستغريت أنت ذلك فهل يستصوب استغراك هذا ذوقهم ولبّ؟ وما أكرم الله تعالى العباد في الدنيا والآخرة كرامةً بمثل كرامة الإيمان به والمعرفة برؤيته؛ لأن كل خير من خيور الدنيا والآخرة إنما هو فرع الإيمان بالله من أحوال ومقامات، وأوراد وواردات، وكل نور وعلم وفتح، ونفوذ إلى غيب وسماع مخاطبة؛ وجريان كرامة؛ وما تضمنته الجنة من حور وقصور وأنهار وثمار، وكان به أهلها فيها من رضى عن الله؛ ورضى من الله؛ ورؤية الله؛ فكل ذلك إنما هو من نتائج الإيمان؛ ووجود آثاره وإمداد أنواره.

جعلنا الله وإياك من المؤمنين برؤية الإيمان الذي رضىه لخاصة عبادته؛ وبسطنا وإياك بالتسليم له في مراده.

واعلم أن من الناس من واجهه الخذلان من الله فأنكر كرامات أولياء الله أصلاً، فنعوذ بالله من

(١٥١) سبطاً: وعاء يعى فيه الطبيب وما أشبهه من أدوات النساء مفتوح الأول والوسط.

هذا المذهب؛ وهو حقيق بأن لا يذكر؛ لكن سبب ذكره أن تعلم أن الله إذا أراد أن يضل عبداً لم ينصره عقل ولم ينفعه (١٥٢) علم.

قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ (١٥٣).

وقال سبحانه: ﴿فَإِنْ زُلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٥٤).

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ (١٥٥).

لذلك كانت الأحوال والأقوال والأفعال ومراتب الإنزال موقوفة على توفيقه، لا توجب أنواراً، ولا تستحق قبولاً، ولا يستوجب صاحبها إقبالا حتى ينصره التوفيق، ولعزازه قدره عند الله لم يذكره في كتابه العزيز إلا في موضع واحد، فقال سبحانه: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (١٥٦)، والجالب للتوفيق وعلامته صدق الرجعى إلى الله في أول كل فعل وترك بتحقيق الفقر والفاقة إليه، والاتغماس في بحر الذلة والمسكنة بين يديه، واستصحاب ذلك إلى الفراغ ومن بعد ذلك أبداً، وقد قال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ (١٥٧).

وقال: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ﴾ (١٥٨).

فلا تدخل جنة علمك وعملك وما أعطيت من نور وفتح، فتقول كما قال من خذل فأخبر الله عنه:

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ (١٥٩) الآية.

ولكن ادخلها كما بين لك وقل كما رضى لك:

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (١٦٠).

وأفهم ههنا قوله عليه السلام: «لا حول ولا قوة إلا بالله كثر من كنوز الجنة» وفي رواية: كثر من كنوز تحت العرش (١٦١).

فالترجمة (١٦٢) ظاهر الكنز والمكنوز فيها هو صدق التبرى من الحول والقوة؛ والرجوع إلى حول الله وقوته.

(١٥٢) وفي ذلك يقول الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فسأول ما يجنى عليه اجتهاده
(١٥٣) المائة: ٤١.

(١٥٤) البقرة: ٢٠٩.

(١٥٥) المؤمنون: ٨٨.

(١٥٦) هود: ٨٨.

(١٦٠) الكهف: ٣٩.

(١٦١) روى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، واللفظ فيها روى الشيخان عن أبي موسى قال: قال لي رسول الله ﷺ: ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ فقلت: بلى يا رسول الله. قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

(١٦٢) أى اللفظ والكلام المنطوق به.

ومن أنكر كرامات أولياء الله فالدلائل الثقلية والعقلية ترد عليه، ونحشى على من هذا مذهبه سوء الخفافة.

ومن الناس فرقة أخرى صدقوا بكرامات الأولياء الذين ليسوا في زمنهم كمعروف وسري والجنيد وأشباههم وكذبوا بكرامات أولياء زمانهم، فهم كما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ما هي إلا إسرائيلية صدقوا بموسى وعيسى عليهما السلام وكذبوا بمحمد ﷺ لأنهم أدركوا زمانه. وفرقة أخرى يصدقون بأن في ملكة الله أولياء لهم كرامات من غير أن يسلموا ذلك لأحد من أهل زمانهم معينا، فكل من ذكر لهم أنه ولي أو نسبت إليه كرامة دافعوا إثبات ذلك بتقاييس اقتضتها عقولهم المعقولة بحال العقلة، المخدوعة بتأينة الهوى، فلن يجرى عليهم هذا التصديق وجود الاقتداء ولا إشراق نور الاهتداء؛ إذ الاقتداء لا يكون بولي مجهول العين في كون الله، بل الاقتداء إنما يكون بولي ذلك الله عليه، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه، فطوى عنك شهود بشريته في وجود خصوصيته، وألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد، يعرفك برعونات نفسك وكمايتها ودفائنها، ويدلك على الجمع على الله، ويعلمك الفرار عما سوى الله، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله، ويوقفك على إساءة نفسك، ويعرفك بإحسان الله إليك، فيفيدك معرفة إساءة نفسك الهرب منها وعدم الركون إليها، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه، والقيام بالشكر إليه، والدوام على عمر الساعات بين يديه (١٦٣).

فإن قلت: فأين من هذا وصفه؟ لقد دللتني على أغرب من عتقاء مغرب. فاعلم أنه لا يعوزك وجدان الدالين، وإنما قد يعوزك وجود الصديق في طلبهم، جد صدقا تجد مرشدا، وتجد ذلك في آيتين من كتاب الله: قال الله سبحانه:

﴿أَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا﴾ (١٦٤).

وقال سبحانه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ (١٦٥).

فلو اضطرتت إلى من يوصلك إلى الله اضطرار الظمان للقاء، والخائف للأمن؛ لوجدت ذلك

(١٦٣) يجيب على المرید أن يتأدب بشيخ، فإن لم يكن له أستاذ لا يفلح أبدا، يقول أبو يزيد البسطامي: من لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان.

وقال أبو علي الدقاق: الشجرة إذا ثبتت بنفسها من غير غارس فإنها تروق لكن لا تنمر، كذلك المرید إذا لم يكن له أستاذ يأخذ منه طريقه نفسا فنفسا، فهو عايد هواه لا يجد نفاذا.

ويشترط الرازي في الشيخ أن يكون مخلصا صادقا قد اتجه الصراط المستقيم وأن يكون سالكا؛ أما السالك فلأن الوصول تارة بالجدية: وقال تعالى: «الله يجيبني إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب»، وأخرى بالسلوك. والآول لا يصح أن يقتدى به لأنه مثل من وجد كنزا غنيا، فإنه وإن كان ذا مال لكنه غير عالم بكيفية اكتساب المال، فلا ينفع به التلميذ الطالب لتعلم كيفية الاكتساب، وأما الثاني فهو الذي يصلح لتربية المرید لأن من سلك الطريق، وعرف مراحلها ومتازلها، وأطلع على متالفا ومعاطيا أمكنه إرشاد الغير إلى سواء السبيل، والإخبار عن كيفية تلك الأحوال على التفصيل.

(١٦٤) النمل: ٦٢.

(١٦٥) محمد: ٢٦.

أقرب إليك من وجود طلبك، ولو اضطرت إلى الله اضطرار الأم لولدها إذا فقدته لوجدت الحق منك قريباً ولك مجيباً، ولوجدت الوصول غير متعذر عليك؛ ولتوجه الحق بتبيين ذلك إليك؛ فهذا الكلام في طريق الجواز والوقوع جميعاً.

وذكر أعيان الكرامات التي اتفقت للسلف رضى الله عنهم لا يستطيع حصرها؛ وقد أشبع القول فيها الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته وأفرد له باباً.

واعلم أن الكرامة تارة تظهر للولي في نفسه.

وتارة تظهر فيه لغيره.

فإن ظهرت للولي في نفسه فالمراد تعريفه بقدرته الله وفرديته وأحدثيته؛ وأن قدرته لا تتوقف على الأسباب؛ وأن العوائد هو حاكم عليها ليس هي حاكمة عليه.

وإنما جعل العوائد والوسائط والأسباب حجب قدرته، وسحب شمس أحدثيته؛ فواقف عندها مخدول، وتأخذ منها إليه هو بالعناية موصول.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه؛

فائدة الكرامة تعريف اليقين من الله تعالى بالعلم والقدرة والإرادة والصفات الأزلية، بجمع لا يفترق، وأمر لا يتعدد كأنها صفة واحدة قائمة بذات الواحد.

أيستوى من تعرف الله إليه بنوره بمن تعرف إلى الله بعقله؛

ولأجل أنها تثبت لمن أظهرت له ربما وجدها أهل البدايات في بداياتهم وفقدوا أرباب النهايات في نهايتهم؛ إذ ما عليه أهل النهاية في الرسوخ في اليقين والقوة والتمكين لا يحتاجون معه إلى مثبت، وهكذا كان السلف رضى الله عنهم لم يواجههم الحق سبحانه إلى وجود الكرامات الحسية لما أعطاهم من المعارف الغيبية والعلوم الإلهادية، ولا يحتاج جبل إلى مرساة، فالكرامة دافعة لزلزلة الشك في المنة، ومعرفة بفضل الله فيمن أظهرت عليه، وشاهدة له بالاستقامة مع الله سبحانه.

والناس في الكرامات على ثلاثة أقسام:

قوم يجعلونها غاية الأمر، فإن وجدوها عظموا من أظهرت عليه، وإن فقدوها لم يتوجهوا بالتعظيم إليه.

وقسم قالوا؛ وما هي الكرامات؟ إنما هي خدع يخدع بها أهل الإرادة ليقفوا على حدودهم، وحتى لا يلجوا مقاماً ليس هو لهم، حتى قال أبو تراب النخشي لأبي عباس الرقي؛ ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقال: ما رأيت أحداً إلا وهو يؤمن بها. فقال: من لم يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال. فقلت: ما أعرف لهم قولاً.

فقال: بلى قد زعم أصحابك أنها خدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حالة السكون إليها، فأما من لم يقترح ذلك ولم يسكنها فتلك مرتبة الربانيين.

وكان هذا من أبي تراب بعد أن عطش أصحابه فضرب بيده الأرض فنبع الماء.
فقال فتى هنالك: أريد أن أشربه في قدح.
فضرب بيده إلى الأرض فناولوه قدحاً من زجاج أبيض فشرب وسقانا.
قال أبو العباس الرقي: وما زال القدح معنا إلى مكة.
والقول الفصل في ذلك أنه لا ينبغي أن تطلب، أدباً مع الله، ومن أظهرت عليه عظم لأنها شهادة
له بالاستقامة مع الله.

القسم الثاني: وهو أن تظهر الكرامة في الولي لغيره، فالمراد بذلك تعريف ذلك العبد الذي
شهدها بصحة طريق هذا الولي الذي أظهرت عليه الكرامة: إما أن يكون جاحداً فمرجع إلى
الاعتراف، أو كافراً فيعود إلى الإيمان، أو شاكاً في خصوصية ذلك العبد فأظهرت عليه ليعرفك الله
بما فيه من ودائع الإحسان.

وقد انبسط الكلام في هذه المقدمة، وما كان لنا باختيار، ولكن قد تضمنت علومنا وأسرارنا،
وأطلعت على من له نصيب من المئة مشرقاً أنوار.

وهذا أو أن ابتدأنا بما قصدنا، وإظهارنا ما إليه صمدنا (١٦٦)، والله هو القائم بالبيان، وهو ولي
الفضل والإحسان، له الحمد كما يجب للجلالة، والشكر لتوالي نعمه وأفضاله، وهو حسبنا ونعم
الوكيل.

وأما الكتاب فهو ينقسم كما تقدم إلى عشرة أبواب:

البَابُ الأولُ

في التعريف بشيخه الذي أخذ عنه هذا
الشان، وشهادة من عاصره من أهل زمانه من
العلماء الأعيان، إنه قطب الزمان والحامل في
وقته لواء أهل العيان

وهو الشيخ الإمام حجة الصوفية علم المهتدين، زين العارفين، أستاذ الأكابر، والمنفرد في زمانه
بالمعارف السنية والمفاخر، العالم بالله، والدال على الله، زمزم الأسرار ومعدن الأنوار، والقطب
الغوث الجامع: تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرمز بن
حاتم بن قصي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطلال بن أحمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن
الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
عرف بالشاذلي.

منشؤه بالمغرب الأقصى.

ومبدأ ظهوره بشاذلة: بلدة على القرب من تونس، وإليها نسب.
له السياحات الكثيرة، والمنازلات الجليلة، والعلوم الغزيرة، لم يدخل في طريق الله حتى كان يعدّ
للمناظرة في العلوم الظاهرة، ذا علوم حجة.

ذكره الشيخ صفى الدين بن أبي المنصور رضي الله عنه في كتابه، وأثنى عليه الثناء الكبير.

وذكره الشيخ قطب الدين القسطلاني رضي الله عنه في جملة من لقيه من المشايخ، وأثنى عليه.

وذكره الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضي الله عنه، وشهد له بالقبطانية.

وذكره الشيخ عبد الغفار بن نوح رضي الله عنه في كتابه الوصيد، وأثنى عليه.

لم يختلف في قبطانيته ذو قلب مستنير، ولا عارف بصير، جاء في هذه الطريق بالعجب العجيب،
وشرع من علم الحقيقة الأطناب^(١)، ووسّع للسالكين الرحاب، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي
الإسلام تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ
أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه.

وأخبرني الشيخ العارف مكي بن الأسمر رضي الله عنه قال:

(١) الأطناب: جمع طنّب وطمّب هو جبل الخباء والسرايق ونحوهما، وما يشدّ به البيت من الحبال بين الأرض والطرانق.

حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ الإمام مفتي الأنام عز الدين بن عبد السلام، والشيخ
 مجد الدين بن تقي الدين علي بن وهب القشيري المدرس، والشيخ يحيى الدين بن سراقه،
 والشيخ مجد الدين الأحمي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، رضي الله عنهم؛ ورسالة القشيري تقرأ
 عليهم، وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت، إلى أن فرغ كلامهم فقالوا:
 يا سيدي نريد أن نسمع منك.

فقال: أنتم سادات الوقت وكبرائه، وقد تكلمتم.

فقالوا: لا بد أن نسمع منك.

قال: فسكت الشيخ ساعة، ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة.

فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال:

اسمعوا هذا الكلام الغريب الغريب العهد من الله (٢).

وأخبرني الشيخ أبو عبد الله بن الحاج قال: أخبرني الشيخ أبو زكرياء يحيى البلسي قال:
 صحبت الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضي الله عنه ثم سافرت إلى الأندلس، فقال لي الشيخ
 أبو الحسن عند وداعي إياه: إذا وصلت إلى الأندلس فاجتمع بالشيخ أبي العباس بن مكنون فإن
 أبا العباس بن مكنون اطلع على الوجود، وعرف حيث هو، ولم يطلع الناس على أبي العباس
 فيعلمون حيث هو. قال: فلما جئت إلى الأندلس جئت إلى الشيخ أبي العباس بن مكنون فحين
 وقع بصره عليّ قال لي ولم يعرفني قبل: جئت يا يحيى، جئت يا يحيى، الحمد لله على اجتماعك
 بقطب الزمان، يا يحيى، الذي أخبرك به الشيخ أبو الحسن لا تحجب به أحدًا.

أخبرني رشيد الدين بن الرايس قال: تخاصمت أنا وبعض أصحاب المشايخ فأنيت إلى الشيخ
 أبي الحسن فذكرت مقاولتنا له فقال الشيخ: كنت تقول له: أنا ربّاني القطب، ومن ربّاه القطب
 ربّته أربعون بدلًا (٣).

وأخبرني والدي رحمه الله قال: دخلت على الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه فسمعتة
 يقول: والله لقد تسألوني عن المسألة لا يكون عندي لها جواب فأرى الجواب مسطرًا في الدواة
 والحصير والحائط.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي يومًا:

والله إنه لينزل على المدد فأرى سريانه في الخوت في الماء، والطائر في الهواء. وكان الشيخ أمين
 الدين جبريل حاضرًا فقال للشيخ أبي الحسن: فأنت إذا القطب، فأنت إذا القطب. فقال الشيخ

(٢) أي أنه ليس علم كتب ولا دراسة، وإنما هو إلهامات وتجليات من الحق سبحانه في جانب المعرفة، والله سبحانه وتعالى
 يقول عن عبد من عباده: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلِيمًا﴾.

(٣) ورد في السنة المطهرة أحاديث صحيحة وحسنة عن الأبدال تذكر منها قوله ﷺ: «الأبدال في هذه الأمة ثلاثون رجلًا،
 قلوبهم على قلب إبراهيم خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلًا» رواه الإمام أحمد، «الأبدال في أمّتي ثلاثون، بهم
 تقوم الأرض، وبهم تطرون، وبهم تنصرون» رواه الإمام أحمد.

«الأبدال في أهل الشام، وبهم ينصرون، وبهم يزقون» رواه الطبراني عن عوف بن مالك، وروى له السيوطي بالحسن.

أبو الحسن: أنا عبدالله، أنا عبدالله.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: والله ما ولى الله ولياً إلا وضع حبه في قلبي قبل أن يوليه، ولا رفض عبداً إلا وألقى بفضه في قلبي قبل أن يرفضه. وأخبرني بعض أصحابنا قال: لما رجع الشيخ أبو الحسن من الحج أتى إلى الشيخ الإمام عز الدين بن عبد السلام قبل أن يأتي منزله فقال له: الرسول ﷺ يسلم عليك. قال: فاستصغر الشيخ عز الدين نفسه أن يكون أهلاً لذلك، قال: فدعا الشيخ عز الدين إلى خانقات الصوفية بالقاهرة وحضر معه محيي الدين بن سراقه وأبو العلم ياسين أحد أصحاب الشيخ العارف بالله محيي الدين بن عربي، فقال الشيخ محيي الدين بن سراقه للشيخ عز الدين: ليهنكم ما سمعنا يا سيدي، والله إن هذا لشيء يفرح به أن يكون في هذا الزمان من يسلم عليه رسول الله ﷺ، فقال الشيخ عز الدين: الله يسترنا. فقال الشيخ أبو العلم ياسين: اللهم افضحنا حتى يتبين المحق من الميطل. ثم أشاروا للقوال أن يقول وهو من البعد بحيث لا يسمع ما دار بينهم فكان أول ما قال: صدق المحدث والحديث كما جرى وحديث أهل الحق ما لا يفترى

فقام الشيخ عز الدين وطاب وقته وقام الجميع لقيامه.

وأخبرني الفقيه مكي الدين الأسمر رضى الله عنه قال: سمعت مخاطبة الحق فقلت له: يا سيدي كيف كان ذلك؟ فقال: كان في الإسكندرية بعض الصالحين صاحب الشيخ أبا الحسن ثم كثر عليه ما سمعه منه من العلوم الجليلة والمخرقات فلم يسع ذلك عقله، فانقطع عن الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه، فإذا ليلة من الليالي وأنا أسمع أن فلاناً دعانا في هذا الوقت بست دعوات فإن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلي دعانا بكذا دعانا بكذا حتى عيئت لي الست دعوات، قال: ثم انفصل الخطاب عني، فنظرت إلى المتوسط في ذلك الوقت فعرفت الوقت الذي كان ذلك الرجل دعا فيه، ثم أصبحت فذهبت إلى ذلك الرجل فقلت له: دعوت الله البارحة بست دعوات دعوته بكذا، دعوته بكذا، إلى أن عددت له الست دعوات فقال: نعم. فقلت له: أتريد أن يستجاب لك؟ قال: ومن لي بذلك؟ فقلت له: قيل لي: إن أراد أن يستجاب له فليوال الشيخ أبا الحسن الشاذلي.

وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: كان الشيخ قد قال لي:

إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل من أحد شيئاً، فمكثت على ذلك سنة ثم قال لي: إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تقبل من أحد شيئاً، فكان إذا اشتد الوقت على أخرج إلى ساحل بحر الإسكندرية ألتقط ما يرميه البحر بالساحل من القمح حين يرفع من المراكب، فأنا يوماً على ذلك وإذا عبد القادر النقاد - وكان من أولياء الله - يفعل كفعلي، فقال لي:

أطلعت البارحة على مقام الشيخ أبي الحسن.

فقلت له: وأين مقام الشيخ؟

فقال: عند العرش.

فقلت له: ذاك مقام تنزل لك الشيخ فيه حتى رأيته.

ثم دخلت أنا وهو على الشيخ، فلما استقر بنا المجلس قال الشيخ رضى الله عنه:
 رأيت البارحة عبد القادر النقاد فى المنام فقال لى:
 أعرشى أنت أم كرسى؟
 فقلت له:

دع عنك ذا.

العلية أرضية.

والنفس سعاوية.

والقلب عرشى.

والروح كرسى.

والسر مع الله بلا أين.

والأمر يتنزل فيها بين ذلك ويتلوه الشاهد منه.

وقدم بعض الدالين على الله إلى الإسكندرية فقال الشيخ مكين الدين الأسمر: هذا الرجل
 يدعو الناس إلى باب الله وكان الشيخ أبو الحسن يدخلهم على الله.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت مع الشيخ أبي الحسن بالقيروان.

وكان شهر رمضان.

وكانت ليلة جمعة.

وكانت ليلة سبع وعشرين.

فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه.

فلما دخل الجامع، وأحرم، رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل، فلما
 أصبحنا وخرجنا من الجامع قال الشيخ:

ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر، ورأيت الرسول ﷺ وهو يقول:

يا على طهر ثيابك من الدنس، تحظ بمدد الله فى كل نفس.

قلت: يا رسول الله: وما ثيابى؟

قال: اعلم أن الله قد خلق عليك خمس خلق:

خلعة المحبة.

وخلعة المعرفة.

وخلعة التوحيد.

وخلعة الإيمان.

وخلعة الإسلام.

فمن أحب الله هان عليه كل شىء.

ومن عرف الله صغر لديه كل شىء.

ومن وحد الله لم يشرك به شيئاً.

ومن آمن بالله آمن من كل شيء.

ومن أسلم لله ما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه، وإن اعتذر إليه قبل عذره، ففهمته حينئذ معنى قوله عز وجل: (وثيابك فطهر).

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه:

جلت في ملكوت الله فرأيت أبا مدين متعلقاً يساق العرش وهو رجل أشقر أزرق العينين، فقلت له: ما علومك وما مقامك؟ فقال: أما علمي فأحد وسبعون علماً، وأما مقامي فأربع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت له: فما تقول في شيعي أبي الحسن الشاذلي؟ قال: زائد على أربعين علماً، هو البحر الذي لا يحاط به.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قيل للشيخ أبي الحسن: من هو شيخك يا سيدي؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب لأحد، بل أعوم في عشرة أبحر: خمسة من الأدميين النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وخمسة من الروحانيين جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح الأكبر.

وأخبرني ولده سيدنا ومولانا الإمام العارف شهاب الدين أحمد قال: قال الشيخ عند موته: والله لقد جئت في هذا الطريق بما لم يأت به أحد.

ومن الأمر المشهور أنه لما دفن بحميراء وغسل من مائها كثر الماء بعد ذلك وعذب حتى صار يكفي الركب إذا نزل عليه ولم يكن قبل ذلك كذلك.

وكتب إلى الشيخ أبو عبد الله بن النعمان رضي الله عنه أبياتاً يوصيني فيها بالشيخ أبي العباس رضي الله عنه:

عطاء إله العرش في الثغر أحمد سررت به في الصحب فإله أحد

ثم يقول في الشيخ أبي العباس رضي الله عنه:

ووارث علم الشاذلي حقيقة وذلك قطب فاعلموه وأوحد

رأيت له بعد الممات عجائب تدل على من كان للفتح يبعد

فالذي عنى الشيخ أبو عبد الله بقوله: «رأيت له بعد الممات عجائب» أن الماء حلا فوق ما كان وكثر لما غسل منه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: قال الشيخ: قيل لي:

ما على وجه الأرض مجلس في الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام.

ولا على وجه الأرض مجلس في علم الحديث أبهى من مجلس الشيخ زكي الدين عبد العظيم.

ولا على وجه الأرض مجلس في علم الحقائق أبهى من مجلسك.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: لما نزلت بتونس حين أتيت من «مرسية» وأنا إذ ذاك شاب فسمعت بذكر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه:

فقال لى رجل: تقضى بنا إليه؟

قلت: حتى أستخير الله، فتمت تلك الليلة، فرأيت كأني أصعد إلى رأس جبل، فلما علوت فوقه رأيت هنالك رجلاً عليه برنس أخضر وهو جالس، وعن يمينه رجل، وعن يساره رجل، فنظرت إليه فقال لى:

عثرت على خليفة الزمان.

قال: فانتبهت، فلما كان بعد صلاة الصبح، أتاني الرجل الذي دعاني إلى زيارة الشيخ فمست معه.

فلما دخلنا على الشيخ رأيته على الصفة التي رأيته فوق الجبل، قال: فدهشت، فقال لى: عثرت على خليفة الزمان. ما اسمك؟ فذكرت له اسمى ونسبى.

فقال لى: رفعت إلى منذ عشرة أعوام.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: لما قدمنا من المغرب إلى الإسكندرية نزلنا عند عمود السوارى من ظاهرها، وكان وصولنا عند اصفرار الشمس، وكانت بنا فاقة وجوع شديد، فبعث لنا رجل من عدول الإسكندرية طعاماً، فلما قيل للشيخ عنه قال: لا يأكل أحد منه شيئاً، فبتنا على ما نحن عليه من الجوع، فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ وقال: مدوا السماط وأحضروا ذلك الطعام. ففعلنا وتقدمنا فأكلنا، فقال الشيخ رضى الله عنه: رأيته في المنام قائلاً يقول لى: أحلّ الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت ليلة من الليالي نائماً بالإسكندرية وإذا قائل يقول: مكة والمدينة!

فلما أصبحت عزمتم على السفر.

وكان الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه بالمقسم بالقاهرة، فسافرت إليه، فلما مثلت بين يديه قال لى:

مكة والمدينة.

فقلت: لأجل ذلك جئت يا سيدى.

قال: اجلس. فجلست، وإذا رجل داخل عليه وقال:

يا سيدى عزمتم على الحج، وما معى شيء من الدنيا.

فقال لى الشيخ: أى شيء معك؟

قلت: عشرة دنانير.

قال: ادفعها لهذا الرجل. فدفعتها له.

فقال لى الشيخ: إذا كان غداً أخرج إلى الساحل واشتر لى عشرين أردب قمح.

فأصبحت ونزلت إلى الساحل واشترت عشرين أردبًا قمحًا وحملت إلى المخزن وأتيت إلى الشيخ فقال لي:

هذا القمح قيل لي أنه مسوس ما نأخذ منه شيئًا.

فبقيت متحيرًا لا أدري كيف أصنع فبقيت ثلاثة أيام لا يطالبني صاحب القمح بالثمن فلما كان اليوم الرابع وإذا رجل يطوف عليّ فلما رأيته قال:

أنت صاحب القمح؟

قلت: نعم.

قال: تأخذ فيه فائدة ألف درهم؟

قلت: نعم.

قال: فوزن لي ألف درهم فوضع الله البركة فيها فلو قلت إلى أنفق منها إلى اليوم لصدقت.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه:

سافرنا مع الشيخ رضي الله عنه في السنة التي توفي فيها، فلما كنا عند أحميم قال لي الشيخ:

رأيت البارحة كافي في جلبة وأنا في البحر، والرياح قد اختلفت، والأمواج قد تلاطمت، والمركب

قد انفتح، وأشرفنا على الغرق، فأتيت إلى جانب المركب، وقلت: أيها البحر، إن كنت أمرت

بالسمع والطاعة لي فآلئمة الله السميع العليم، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم،

فسمعت البحر يقول: الطاعة الطاعة.

فلما سافرنا، وتوفي الشيخ رضي الله عنه ودفنناه بحمير من صحراء عيذاب وكنا في جلبة، فلما

صرنا في وسط البحر، اختلفت الأمواج، وتلاطمت الرياح، وانفتح المركب، وأشرفنا على الغرق،

وتسيت كلام الشيخ، فلما اشتد الأمر ذكرت ذلك فأتيت إلى جانب المركب وقلت:

أيها البحر إن كنت أمرت بالسمع والطاعة لأولياء الله فآلئمة الله السميع العليم، ما قلت كما قال

الشيخ بالسمع والطاعة لي، وإن كنت أمرت بغير ذلك فالحكم لله العزيز الحكيم، فسمعت البحر

يقول: الطاعة الطاعة.

وسكن البحر وطاب السفر.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في بحر عيذاب وكنا في شدة من الريح

الأزيب^(٤)، وكان المركب قد انفتح، فقال الشيخ: رأيت السماء قد فتحت ونزل منها ملكان، أحدهما

يقول: موسى أعلم من الخضر، والآخر يقول: الخضر أعلم من موسى. ونزل ملك آخر وهو يقول:

والله ما علم الخضر في علم موسى إلا أعلم الهدى في علم سليمان حين قال: ﴿أَعْطَتْ بَا لَمْ يَحِطْ

بِهِ﴾^(٥)، ففهمتم أن الله سلمنا في سفرنا فإن موسى سخر له البحر^(٦).

(٤) الأزيب: الشديد. (٥) النمل: ٢٢.

(٦) حيث انفلق البحر معجزة وكرامة لموسى ومن آمن معه حينما فرّوا هاربين من فرعون وقومه الذين تبعوهم. قال تعالى:

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ، فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْكُورُونَ قَالَ: كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ، فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ

اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ.﴾ (الشعراء: ٦٠ - ٦٣).

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: قال رجل للشيخ: ما تقول في الخضر أحي هو أم ميت؟ فقال الشيخ رضي الله عنه: اذهب إلى الفقيه ناصر الدين بن الأبياري فإنه يفتي أنه حي وأنه نبي والشيخ عبد المعطي لقيه. وسكت ساعة، وقال: أنا لقيته وسبابته ووسطاه سواء. وأعلم أن بقاء الخضر قد أجمع عليه هذه الطائفة وتواتر عن أولياء كل عصر لقاءه والأخذ عنه واشتهر ذلك إلى أن بلغ الأمر إلى حد التواتر الذي لا يمكن جحده، والحكايات في ذلك كثيرة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لقيت الخضر في صحراء عذاب فقال لي: يا أبا الحسن أصحبك الله اللطف الجميل، وكان لك صاحباً في المقام والرحيل.

وذكر الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه أن أبا السعود بن الشبل كان يوماً في مدرسة الشيخ عبد القادر الكيلاني رضي الله عنه يكنس فيها، فوقف الخضر على رأسه وقال: السلام عليكم. فرفع أبو السعود رأسه وقال: وعليكم السلام. ثم عاد إلى شغله بما هو فيه، فقال له الخضر: ما بالك لم تهتيل بي كأنك لم تعرفني فقال أبو السعود: بلى قد عرفتك، أنت الخضر. فقال له الخضر: فما بالك لم تهتيل^(٧) بي؟ قال: فقال له أبو السعود - والتفت إلي: الشيخ عبد القادر الكيلاني لم يترك في هذا الشيخ فضلة لغيره.

وقال الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه مخبراً عن نفسه كنت أنا وصاحب لي بالمغرب الأقصى بساحل البحر المحيط وهناك مسجد يأوي إليه الأبدال، فرأيت أنا وصاحبى رجلاً قد وضع حصيراً في الهواء على مقدار أربعة أذرع من الأرض وصلى عليها فجئت أنا وصاحبى ووقفت تحتها وقلت:

شغل المحب عن الحبيب سره في حب من خلق الهواء وسخره
العسافون عقسولهم معسولة عن كل كون ترتضيه مطهره
فهم لديه مكرمون وعنده أسرارهم محفوظة ومحسره^(٨)

قال: فأوجز في صلاته وقال: إنما فعلت هذا لهذا المنكر الذي معك وأنا أبو العباس الخضر، ولم أكن أعلم أن صاحبى ينكر كرامات الأولياء فالتفت إلى صاحبى وقلت: يا فلان أكنت تنكر كرامات الأولياء؟ قال: نعم. قلت: فما تقول الآن؟

قال: فما بعد العيان ما يقال، وقال الشيخ عبد المعطي الإسكندراني لتلميذه عند موته: خذ هذه الجبة فطال ما عانقت فيها الخضر.

وقالت زوجة القرشي رضي الله عنه: خرجت من عند الشيخ ولم أترك عنده أحداً فسمعت عنده رجلاً يكلمه فوقفت حتى انقطع كلامه ثم دخلت فقلت: يا سيدى! خرجت وما كان عندك

(٧) يعنى: لم لم تهتم بي وتفتنم فرصة وجودي.

(٨) معنى كلام ابن عربي رضي الله عنه: أن العارف لا يهتم بخوارق العادات، فإنها في الكون ومن الكون. واعتناء العارف كل اهتمامه - أن يكون سره مع الله وسعادته - كل سعادته - أن يكون مع المكون، وكأن ابن عربي بشعره هذا ينتقد هذا الذي يرتفع في الهواء، ولكن هذا الذي يرتفع في الهواء لم يكن يفعل ذلك هوياً في نفسه؛ ولذلك عطف فعله تعليلاً أرضى ابن عربي.

أحد والآن سمعت كلاماً عندك. فقال الشيخ: الخضر أتاني بزيتونة من أرض نجد فقال لي: كل هذه الزيتونة ففيها شفاؤك.

فقلت له: اذهب أنت وزيتونك لا حاجة لي بها.
وكان الشيخ به داء الجذام.

وقد جاء أنه لما توفي رسول الله ﷺ سمعوا قائلاً يقول من جوف البيت، يسمعون صوته ولا يرون شخصه: إن في الله خلفاً من كل هالك، وعوضاً من كل فائت، وإن المصاب من حرم الثواب. قال الراوي، كانوا يرون أنه الخضر^(٩).

واعلم رحمك الله أن من أنكر وجود الخضر فقد غلط.
أو من قال إنه غير خضر موسى.

أو من قال لكل زمان خضر وأن الحضرية رتبة يقوم بها رجل في كل زمان.
والمنكر لوجود الخضر معترف على نفسه بأن منة الله بقاء الخضر لم تواجهه وليته إذ فاته الوصول إليها لا يفوته الإيمان بها.

ولا تفتر بما عساك أن تقف عليه من كلام أبي الفرج بن الجوزي في كتاب سماه: «عجالة المنتظر في شرح حال الخضر» أنكر فيه وجود الخضر وقال: من قال إنه موجود فلنما ذلك هواجس ووساوس وهوس قام به واستدل على عدم وجوده بقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾^(١٠).

فمجب لهذا الرجل كيف استدل بهذه الآية ولا دليل فيها؛ لأن الخلد هو بقاء لا موت بعده، وليس هو المدعى في الخضر، إنما المدعى في الخضر طول إقامة يكون الموت بعدها.

فاعجبوا رحمكم الله لرجل يصدق بطول بقاء إبليس وينكر طول بقاء الخضر.

(٩) قال الحافظ البيهقي: أخبرنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفقيه، حدثنا شافع بن محمد، حدثنا أبو جعفر بن سلامة الطحاوي، حدثنا المزني، حدثنا الشافعي، عن القاسم بن عبد الله بن عمر بن حفص عن جعفر بن محمد عن أبيه - الحديث بطوله - وفيه:

فلما توفي النبي ﷺ وجاءت التسمية سمعوا صوتاً من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفاً من كل هالك، ودرجاً من كل فائت، فبالحق نقول، وإياه فارجوا، فلنما المصاب من حرم الثواب، فقال على رضي الله عنه: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام.

وهذا الحديث مرسل وفي إسناده ضعف بحال القاسم العمري هذا، فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكلية آخرون. ورواه الربيع عن الشافعي عن القاسم عن جعفر عن أبيه عن جده، وفي الإسناد العمري المذكور.

وروى البيهقي عن الحاكم عن أبي جعفر اليفدادي حدثنا عبد الله بن الحارث أو عبد الرحمن بن المرتد الصفاق، حدثنا أبو الوليد الخزومي، حدثنا أنس بن عياض عن جعفر بن محمد عن جابر بن عبد الله قال: لما توفي رسول الله ﷺ ناداهم مناد، يسمعون الحسن ولا يرون الشخص فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته. إن في الله عزاءً من كل مصيبة، وخلفاً من كل فائت، ودرجاً من كل هالك، فبالحق نقول، وإياه فارجوا، فلنما المحروم من حرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. ثم قال البيهقي: هذان الإسنادان وإن كانا ضعيفين فأحدهما يتأكد بالآخر، ويدل على أن له أصلاً من حديث جعفر.. والله أعلم. (سيرة ابن كثير)

وما يروونه عن رسول الله ﷺ: لو كان الخضر حياً لزارني فلم يثبته أهل الحديث.
فإن قالوا: لو كان ذلك لنقل.

فاعلم أنه ليس كل شيء أطلع الله عليه رسوله ﷺ يلزمه الإعلام به.
كيف، وقد روى عنه ﷺ أنه قال: علّمني ربي ثلاثة علوم: علم أمرني بإفشائه، وعلم نهاني عن
إفشائه، وعلم خيرني في إفشائه.

وقال بعض عارفين: إن الله سبحانه أطلع الخضر على أرواح الأولياء فسأل ربه أن يبقيه في
دائرة الشهادة حتى يراهم شهادة كما رآهم غيباً.

وقال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في سفر ونحن قاصدون إلى
الإسكندرية حين مجيئنا من المغرب، فأخذني ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله، فأتيت إلى الشيخ
أبي الحسن رضي الله عنه فلما أحس بي قال: أحمد قلت: نعم يا سيدي قال: آدم خلقه الله بيده
وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة نصف يوم خمسمائة عام^(١١) ثم نزل به إلى الأرض، والله ما نزل
الله بآدم إلى الأرض لينقصه، ولكن نزل به إلى الأرض ليكمل له، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن
يخلق بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١٢) ما قال في الجنة ولا في السماء فكان نزوله إلى
الأرض نزول كرامة لا نزول إهانة فإنه كان يعبد الله في الجنة بالتعريف، فأنزله إلى الأرض ليعبده
بالتكليف، فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفة، وأنت أيضاً لك قسط من آدم: كانت
بدايتك في سماء الروح في جنة المعارف فأنزلت إلى الأرض النفس لتعبده بالتكليف، فلما توفرت
فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة.

وأخبرني بعض أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال: قال الشيخ ليلة: اجتمع بي
الشريف البوني، وشرف الدين بن المجلي وأخبراني أنها دخلا على امرأة بغيري الإسكندرية، قالوا:
فقلت لنا: أرياني أيديكما فشمت أيدينا، وقالت: أخوان صالحان، ثم قالت: انتهيت في المعرفة إلى
مقام الحيرة. فقلت: إلهي هم يخرج العارفون من الحيرة؟ فقلت لي: بالتوحيد، فهل فيكم من يعرف
هذا التوحيد الذي يخرج به العارفون من الحيرة؟ قالوا: قتلنا لها، إنما جئنا لنلتبس بركتك. قال:
ثم قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: ألا دلّوها على من ضيق عليه، ألا دلّوها على من ضيق
عليه؟ ثم توجه إلى جهتها وقال: التوحيد الذي يخرج به العارفون من الحيرة لا إله إلا هو، يخرج
العارفون من الحيرة بلا إله إلا هو، فأصبح بعض أصحاب الشيخ فذهب إليها فوجدها وهي
تقول: استغثت استغثت، فعلمنا أن الشيخ أمدها في تلك الساعة.

وأخبرني بعض أصحاب الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه قال: دخل على الشيخ أبي الحسن
عبد القادر النقاد فقال له الشيخ: يا عبد القادر أيعصى الولي؟ فقال عبد القادر: أي والله الذي
لا إله إلا هو وهو يطالع عين الحقيقة. فقال الشيخ أبو الحسن: أشهد أنك ولي الله.

(١١) يقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنفِ سَنَةٍ مَّا تَعْدُونَ﴾.

(١٢) البقرة: ٣٠.

وقال الشيخ أبو الحسن: كنت في بعض سياحاتي قد أويت إلى مغارة بالمغرب من مدينة للمسلمين فمكثت ثلاثة أيام لم أذق طعاماً فبعد الثلاثة الأيام دخل على ناس من الروم كانت قد أرسلت سفينتهم هناك فلما رأوني قالوا: قسيس من المسلمين، ووضعوا عندي طعاماً وإداماً كثيراً، فعجبت كيف رزقت على أيدي الكافرين ومنعت ذلك من المسلمين، فإذا قاتل يقول لي: ليس الرجل من نصر بأحيائه إنما الرجل من نصر بأعدائه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: نمت ليلة في سياحتي على راية من الأرض فجاءت السباع فطافت بي وأقامت إلى الصباح، فما وجدت أنسا كأنس وجدته في تلك الليلة فلما أصبحت خطر لي أنه قد حصل لي من مقام الأنس بالله شيء، فهبطت وادياً، وكان هنالك طيور حجل لم أرها، فلما أحسست بي طارت بكرة فخفق قلبي رعباً فإذا قاتل يقول لي: أيا من كان البارحة بأنس بالسباع، مالك توجل من خفقان الحجل^(١٣)، ولكنك البارحة بنا والآن أنت بنفسك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: قلت يوماً وأنا في مغارة في سياحتي:

إلهي متى أكون لك عبداً شكوراً؟ فإذا قاتل يقول لي:

إذا لم تر منعا عليه غيرك.

فقلت: إلهي كيف لا أرى منعا عليه غيري وقد أنعمت على الأنبياء، قد أنعمت على العلماء، وقد أنعمت على الملوك؟ فإذا قاتل يقول لي:

ولولا الأنبياء لما اهتديت.

ولولا العلماء لما اقتديت.

ولولا الملوك لما أمنت، فالكل نعمة مني عليك.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: جعت مرة ثمانين يوماً فخطر لي أن قد حصل لي من هذا الأمر شيء، وإذا بامرأة خارجة من مغارة ووجهها كأنه الشمس حسنا وهي تقول منحوس منحوس، جاع ثمانين يوماً فأخذ يدل على الله بعمله، وما أنا لي ستة أشهر لم أذق طعاماً.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: كنت في سياحتي في مبدأ أمرى حصل لي تردد: هل ألزم البراري والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار، أو أرجع إلى المدائن والديار لصحية العلماء والأخيار؟ فوصف لي ولي هناك، وكان برأس جبل فصعدت إليه، فما وصلت إليه إلا ليلاً، فقلت في نفسي: لا أدخل عليه في هذا الوقت، فسمعته يقول من داخل المغارة: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك، فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئي إلا إليك، قال: فالتفت إلى نفسي وقلت: يا نفس انظري من أي بحر يغترف هذا الشيخ، فلما أصبحت دخلت إليه فأرعبت من هيئته.

فقلت له:

يا سيدي كيف حالك؟

(١٣) الحجل: بفتحين: إناث البعاقيب، والبعاقيب ذكورها.

فقال: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار. فقلت: يا سيدي أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا الآن فيه، وأما شكواك من برد الرضا والتسليم فلماذا؟
فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتها عن الله.

قلت: ياسيدي سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قوما سألوك أن تسخر لهم خلقك، فسخرت لهم خلقك، فمضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق على حتى لا يكون ملجئى إلا إليك، فتبسم ثم قال:

يا بني، عوض ما تقول: سخر لي خلقك، قل: يارب كن لي، أترى إذا كان لك أيفوتك شيء؟ فما هذه الجنابة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت أنا وصاحب لي قد أويئنا إلى مغارة نطلب الوصول إلى الله فكنا نقول غدا يفتح لنا، بعد غد يفتح لنا، فدخل علينا رجل له هبة فقلنا له: من أنت؟ فقال: أنا عبد الملك، فعلمنا أنه من أولياء الله، فقلنا له: كيف حالك؟ فقال: كيف حال من يقول غدا يفتح لي بعد غد يفتح لي؟ فلا ولاية ولا فلاح، يا نفس، لم لا تعبدن الله؟ قال فتفطنا من أين دخل علينا فتينا إلى الله واستغفرنا ففتح لنا.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: كنت يوما بين يدي الأستاذ فقلت في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم الأعظم، إنما الشأن من يكون هو عين الاسم، فقال الشيخ من صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدي.

وقيل للشيخ أبي الحسن رضى الله عنه: لم لا تسمع السماع؟ فقال: السماع من الخلق جفاء. وأخبرني بعض أصحابنا قال: استشفع طالب بالشيخ أبي الحسن إلى القاضي تاج الدين بن بنت الأعر أن يزداد على مرتبه عشرة دراهم، فذهب الشيخ إليه، فأكبر القاضي تاج الدين بحجىء الشيخ وقال ياسيدي قيم جئت؟

قال: من أجل فلان الطالب لنزيده في مرتبة عشرة دراهم.
قال: فقال له القاضي تاج الدين: يا سيدي هذا له في المكان الفلاني كذا، وله في المكان الفلاني كذا، وفي موضع كذا وكذا.

قال: فقال له الشيخ أبو الحسن: يا تاج الدين، لا تستكثر على مؤمن عشرة دراهم تزيده إياها فإن الله لم يقنع بالجنة للمؤمن جزاء حتى زاده النظر إلى وجهه الكريم فيها.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه سمعت الحديث الوارد عن رسول الله ﷺ: «إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة» (١٤).

فأشكلك على معناه، فرأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لي: يا مبارك ذاك غين الأنوار لا غين الأغيار.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: سمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «من سكن خوف الفقر قلبه قل ما يرفع^(١٥) له عمل»، فمكثت سنة أظن أنه لا يرفع لي عمل أقول: ومن يسلم من هذا؟ فرأيت رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول لي: «يا مبارك أهلكك نفسك، فرق بين خطر وسكن».

وقال رضي الله عنه: رأيت الصديق في المنام فقال لي: أتدري ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قال: قلت: لا أدري. قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال رضي الله عنه: استنار قلبي يوما فكنت أشهد ملكوت السموات السبع والأرضين السبع، فوقعت مني هفوة فحجبت عن شهود ذلك، فتعجبت كيف حجبتني هذا الأمر الصغير عن هذا الأمر الكبير، فإذا قائل يقول لي: البصيرة كالبحر أدنى شيء يحل فيها يعطل النظر.

ولتقيض عنان المقال ثلثا نخرج عن غرض الكتاب، وإلا فكلام الشيخ رضي الله عنه أشهر من أن تنبه عليه، وأكثر ما ذكرته هنا لا يوجد في الكلام المنسوب إليه، وقد مضى من كلامه في المقدمة، وسأقي في أثناء الكتاب إن الله^(١٦)، وحسبك من كلامه ما ذكره من كرامات القطب، وما ذكره من طريق الخصوص والعموم، والعلوم والحقائق والأسرار، وحلاوة اللفظ ووجازته، مع الاشتغال على المعاني الكثيرة، والهيبة التي تجدها عند ذكر كلامه أو سماعك إياه، قل أن نجد ذلك في شيء من كلام أهل الطريق.

أما ما قال في كرامات القطب فقال رضي الله عنه: للقطب خمس عشرة كرامة فمن ادعاهها أو شيئا منها فليبرز بمدد الرحمة والعصمة والخلافة والنباية ومدد حملة العرش العظيم، ويكشف له عن حقيقة الذات وإحاطة الصفات، ويكرم بكرامة الحكم والفصل بين الوجودين، وانفصال الأول عن الأول، وما انفصل عنه إلى منتهاه، ومن ثبت فيه، وحكم ما قبل وما بعد، وحكم من لا قبل له ولا بعد، وعلم البدء وهو العلم المحيط بكل علم ولكل معلوم بدءا من السر الأول إلى منتهاه ثم يعود إليه. فهذا معيار أعطاه الله الشيخ يختبر به من ادعى هذه الرتبة العظيمة القائمة بكفالة الأسرار والمحيط بمدد الأنوار.

وهذا نحو ما ذكره العارف بالله أبو عبد الله الترمذي الحكيم في كتاب ختم الأولياء له: إن من ادعى الولاية فيقال له: صف لنا منازل الأولياء فذكر مسائل معيارا على من ادعى الولاية^(١٧).

(١٥) ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد ضمن الرزق وأقسم على ذلك فقال تعالى: ﴿ووفى السوء رزقكم وما نرعدون، فورب السوء والأرض إنه لنم مثل ما أنكم تنطقون﴾.

(١٦) انظر سيرة الإمام الشاذلي - رضي الله عنه - بالتفصيل في كتابنا الذي كتبناه عنه - نشر دار الكتب الحديثة.

(١٧) كتاب «ختم الأولياء» للحكيم الترمذي، وهو من الكتب التي أثارت إعتماد الكثيرين في عالم الفكر الإسلامي، واهتم به اهتماما كبيرا الإمام محيي الدين بن عربي وتحدث عنه أكثر من مرة - وقد طبع هذا الكتاب حديثا في بيروت.

ولقد أخبرني الشيخ مكي بن الدين الأسمر قال: مكثت أربعين سنة يشكل على الأمر في طريق القوم، فلا أجد من يشكلم عليه ويزيل عني إشكاله، حتى ورد الشيخ أبو الحسن فأزال كل شيء أشكل علي.

ولما قدم الشيخ صدر الدين القونوي إلى ديار مصر رسولا اجتمع بالشيخ أبي الحسن، وتكلم بحضرته بعلوم كثيرة، والشيخ مطرق إلى أن استوفى الشيخ صدر الدين كلامه، فرفع الشيخ أبو الحسن رأسه وقال: أخبروني أين قطب الزمان اليوم، ومن هو صديقه وما علومه؟ قال: فسكت الشيخ صدر الدين ولم يرد جوابا.

وطريقه رضى الله عنه طريق الغنى الأكبر، والتوصيل العظيم، حتى أنه كان يقول: ليس الشيخ من ذلك على تعبك، إنما الشيخ من ذلك على راحتك.

ونشأ على يده رضى الله عنه رجال.

منهم من أقام بالمغرب كأبي الحسن الصقلي وكان من أكابر الصديقيين، وعبد الله الجببي وكان من أكابر أولياء الله.

ومنهم من أتى معه وهاجر إلى ديار مصر منهم سيدنا ومولانا حجة الصوفية علم أهل الخصوصية شهاب الدين أحمد بن عمر الأنصاري المرسى رضى الله عنه.

ومنهم الحاج محمد القرطبي وأبو الحسن البجاوي وأبو عبد الله البجائي والوجهاني والحرازي. ومنهم من صحبه بديار مصر منهم الشيخ مكي بن الدين الأسمر والشيخ عبد الحكيم، والشيخ الشريف البيهقي، والشيخ عبد الله اللقاني، والشيخ عثمان البورنجي، والشيخ أمين الدين جبريل. ولكل من هؤلاء علوم وأسرار وإشارات وأصحاب أخذوا عنهم، تركنا تتبع كراماتهم وخصوصياتهم، لئلا نخرج عن غرض الكتاب.

وطريقته رضى الله عنه تنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ عبد السلام ينتسب إلى الشيخ عبد الرحمن المدني، ثم واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه. وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: طريقتنا هذه لا تنسب للمشاركة ولا للمغاربة، بل واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنه وهو أول الأقطاب. وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين تستند إليهم طريق الإنسان من كانت طريقته يلبس الخرقه فإنها رواية، والرواية تعين تعيين رجال سندها، وهذه هداية، وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منة لأستاذ^(١٨)، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ فيكون آخذا عنه، وكفى بهذا منة.

ولقد قال لى الشيخ مكي بن الدين الأسمر رضى الله عنه: أنا ما رباني إلا رسول الله ﷺ وذكر عن الشيخ عبد الرحمن القناوي رضى الله عنه أنه كان يقول: أنا لامة لأحد على إلا لرسول الله ﷺ، وإذا أراد الله أن يفضل على عبد يغنيه عن الأستاذ حتى لا يكون له فيه سلف.

(١٨) يقول تعالى: ﴿الله يجيبى إليه من يشاء﴾.

وقال ملك لبعض جلسائه: إني أريد أن أجعلك وزيراً قال: ليس لي في هذا سلف. قال: إني أريد أن أجعلك سلفاً لمن بعدك.

ولنقتصر على هذا القدر فإنه كاف في التعريف بقدر الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه. وما الأمر إلا كما قال القائل:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل
وبدأنا بذكر الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه وإن كان غرضنا في وضع هذا الكتاب ذكر مناقب
شيخنا أبي العباس رضي الله عنه، لكن فعلنا ذلك لأمرين:
أحدهما أن ذلك تعريف بقدر الشيخ أبي العباس رضي الله عنه، لأن شرف التابع بشرف
المتبوع.

ولأن الشيخ رضي الله عنه هكذا كان شأنه: ذكر الشيخ رضي الله عنه والدلالة عليه
والإعراض عن ذكر خصائصه هو في نفسه، حتى قال له إنسان: يا سيدي، نراك تقول: قال
الشيخ: وقل أن تسند لنفسك شيئاً، فقال له الشيخ: لو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال الله
قلت: قال الله، ولو أردت على عدد الأنفاس أن أقول قال رسول الله قلت: قال رسول الله ﷺ،
ولو شئت على عدد الأنفاس أن أقول: قلت أنا، قلت أنا، ولكن أقول: قال الشيخ وأترك ذكر
نفسى أدباً معه.

وقد تم الكلام في الباب الأول والحمد لله رب العالمين.

البَابُ الثَّانِي

في شهادة الشيخ له أنه الوارث للمقام
والحائز قصب السبق بالتمام وإخباره هو عن
نفسه بما مَنَّ به عليه من النعم الجسام
وشهادة الأولياء له بأنه بلغ من الوصول إلى
الله لأفضل مرام

ولتقدم أمام ذلك مقدمة:

اعلم أن الوارث للرجل هو الظاهر بعلمه وحاله، وهو الذي تظهر طريق الموروث على يديه
يفسر مجملها وييسط مختصرها، يرفع منارها ويثبت أنوارها، يُعرف الناس بما كان ذلك الرجل الكبير
عليه من العلم بالله والمعرفة والنفوذ إليه والاحتذاء من نوره، حتى إذا فرط الناس في محبة ذلك
الرجل الكبير وتعظيمه في حال حياته استدركوا ذلك بعد وفاته؛ لأن كل ما هو مقدور عليه مزهود
فيه وكل معجوز عنه متطلع إليه بالشغف، حتى لقد سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول:
يكون الرجل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالا، حتى إذا مات قالوا كان فلان، وربما دخل في طريق
الرجل بعد وفاته أكثر مما دخل فيها في حياته، والذي ظهر بهذه الأوصاف هو: الشيخ أبو العباس
رضي الله عنه.

هو الذي بث علوم الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه، ونشر أنوارها، وأبدى أسرارها، وسار
الناس إليه من أقاصى البلاد، وأقبلوا مسرعين إليه من كل ناد، فنشأت على يديه الرجال، ونصرها
وأظهرها بالمقال والفعال، حتى انتشرت في الآفاق الأصحاب، وأصحاب الأصحاب، وظهرت علوم
الشيخ في مظهرى لسان وكتاب.

وأخبرني الشيخ الصالح الأمين العدل زكي الدين الأسواني قال: قال لي الشيخ أبو الحسن
رضي الله عنه: يا زكي عليك بأبي العباس فوالله إنه ليأتيه الهدى يبول على ساقيه فلا يمسى عليه
المساء إلا وقد وصله إلى الله، يا زكي عليك بأبي العباس فوالله ما من ولي لله كان أو هو كائن
إلا وقد أطلعه الله عليه، يا زكي أبو العباس هو الرجل الكامل.

وسمعت الشيخ أبا العباس يقول عن نفسه: والله ما سار الأولياء والأبدال من قاف إلى قاف
حتى يلقوا واحداً مثلنا فإذا لقوه كان بغيتهم، ثم قال: وبالله الذي لا إله إلا هو ما من ولي لله كان
أو هو كائن إلا وقد أطلعني الله عليه وعلى اسمه ونسبه وكم حفظه من الله.

وبلغني عن الشيخ أبي الحسن أنه كان يقول: أبو العباس شمس وعيد الحكيم قمر،

وعبد الحكيم هذا وليّ كبير من أصحاب الشيخ أبي الحسن وقد تقدّم ذكره.
وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: سمعت يقال لى: لن تهلك أمة فيها أربعة إمام وولى وصديق وسخى.

قال الشيخ أبو الحسن: الإمام هو أبو العباس.
وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: ليس الشأن من ملك، الشأن من ملك ومالك أن يملك، وأنا والله ملكك وملكت أن أملك من ست وثلاثين سنة.
وسمعت رضى الله عنه يقول: الولي إذا أراد أغنى.

وسمعت يقول: والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته.
وسمعت يقول: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا، وأنا أنت.

وسمعت يقول: قال لى الشيخ يا أبا العباس فيك ما فى الأولياء، وليس فى الأولياء ما فيك.
وقد أخبرنى بعض أهل البهنسا قال: قدم علينا الشيخ أبو العباس فقال: لى الآن خمس وعشرون سنة ما حُجبت فيها عن طاعة الله طرفة عين قال: ثم غاب عنا خمس عشرة سنة ثم قدم علينا فقال: لى الآن أربعون سنة ما حُجبت فيها عن الله طرفة عين.

وقال يوماً: والله لو حُجبت عنى رسول الله ﷺ طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين.
وأخبرنى بعض أصحابه قال: دخل عليه بدمهور إنسان، فلما أراد أن يخرج قال: يا سيدى صافحنى، فإنك قد لقيت بلاداً وعباداً فلما خرج. قال الشيخ: ما الذى يعنى ببلاد وعباد فقال إنسان: يريد أنك صافحت عباداً وسلكت بلاداً اكتسبت بركاتها، فإذا صافحك حصل له منك بركة، فضحك الشيخ ثم قال: والله ما صافحت بهذه اليد رسول الله ﷺ.

وكان بنشيل القناطر رجل يقال له خليل وهو الآن مدفون بها وكان من أولياء الله قال: دخل على الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه فتوضأ عندى، ثم أخذ قوساً لى فجرّها ثلاث مرات، فقلت له: يا سيدى من هو الخليفة بعدك؟ فقال: من يأتىك إلى ههنا وتوضأ نحو وضوئى هذا ويحجّر هذا القوس ثلاث مرات، فهو الخليفة بعدى، قال: فدخل على أصحاب الشيخ أجمعهم وأنا أترصد هل يفعل ذلك أحد فلم يتفق، حتى دخل الشيخ أبو العباس. رضى الله عنه على فى ذلك المكان وتوضأ نحو وضوء الشيخ ورفع بصره فرأى القوس معلقة فقال: ناولنى تلك القوس، فناولته إياها فجرّها ثلاث مرات ثم قال: يا خليل جاءك وعد الشيخ.

وبلغنى عن الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه أنه قال: هذا أبو العباس منذ نفذ إلى الله لم يحجب ولو طلب الحجاب لم يجده.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: كنت ليلة من الليالى جالساً بالإسكندرية أكتب كتاباً لبعض أصحابنا وإذا بالشيخ خليل هذا فى الهواء، فقلت له: إلى أين انتهت سياحتك فى هذه الليلة؟ فقال: خرجت من نشيل وانتهيت إلى جبال الزيتون بالمغرب الأقصى وأنا أريد أن أذهب إلى

البيت المقدس وأعود إلى بلدى ولو بسط لى أكثر من ذلك لانبسطت.
قال الشيخ: فقلت له: ليس الشأن أن تذهب إلى جبال الزيتون وتعود في ليلتك ولكن أنا الساعة لو أردت أن آخذ بيدك وأضعك على قاف وأنا ههنا لفعلت.

وأخبرنى أبو عبد الله بن سلطان وكان من أولياء الله قال: أردت أن أرسل إلى الشيخ أبي العباس عسلًا فقلت لبعض أصحابي فقال لى: عندى نصفين عسل فإرخ أى جرتان صغيرتان، وأتى إليّ بها فسددتهما وكتبت عليهما: وديعة الشيخ أبي العباس المرسى وأتيت بها إلى بحر تونس فأدليتها فيه فجاءنى الخبر من عنده أنها وصلت إلىه، وأخبرنى بعض أصحابه قال: كان الشيخ يومًا جالسًا فقال لبعض أصحابه: قم بنا، فأتى إلى بحر السلسلة وأدلى يده وأخرج الجريرين منه.

وأخبرنى عبد الدائم ابن الشيخ ماضى، وماضى هذا أحد أصحاب الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه وهو أخو أبي عبد الله بن سلطان قال: صليت ليلة عند الشيخ أبي العباس قيام رمضان، فلما فرغ من الصلاة قال لولده: خذ ابن عمك وأصعد به إلى فوق، قال: فطلعنا عند الشيخ فوضع لنا قطايف وعسلًا وقال: هذا العسل من عند عمك، فلما ذهبت إلى والدى قال لى: أبطأت الليلة لقد شغلت قلبى، قلت له: كنت عند الشيخ أبي العباس وأطعمنى قطايف وعسلًا، وقال: هذا العسل من عند عمك، فقال أبى: عجيب هذا لى فى ديار مصر عشرون سنة ما أرسل إلى أخى شيئًا قط، حتى بلغه أن وصول العسل كان على الوجه الذى تقدم.

وكان يقول: والله لو حجبت عن جنة الفردوس طرفة عين ما عدت نفسى من المسلمين.
وكان يقول: والله لو فاتنى الوقوف بعرفة سنة ما عدت نفسى من المسلمين.
وسمعتة يقول: كان الشيخ إذا أوديت من بعض أصحابه يقول: اصبر فوالله ما هى إلا لك أى ما الوراثة إلا لك.

ووجدت بخط ابن ناشئ: أخبرنا الشيخ جلال الدين عن الشيخ أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنه أنه قال: أليس اليوم أبو العباس ثياب البدلية حين يجيئهم من الحجاز بالمراسى بالجديد، قال ابن ناشئ: فكتبت إلى شيخى أبي العباس رضى الله عنه فى ذلك:

فيارب بلغنى إلى باب قدوق
بها جلوة للشيخ أعظم جلوة
وصحح لى عقدى وعهدى ونيتى
بتلقينه الأذكار فى كسل زورة
فلا تسألوا يا قوم عن تكلم التى
ولكننى إن بحث بحث بعسرى
تصرف فى سر القلوب بهمتى
فأكرم بها من حضرة بعد حضرة
غدت حلة الأبدال أول سفرة
بلا وقفة للركب فى عام وقفة

على ذلك الوجه الجميل تحق
أقبل أقدامًا سعت نحو خلوة
فأخرج من ضيق الضلال إلى الهدى
وأشرق الأنوار من كل وجهة
وأبصرت ما أبصرت من ذلك الذى
أنوح عليها لا أبسوح ببعضها
فسبحان من أعمى القلوب عن الذى
ومن ذا الذى ربي بحضرة شيخه
وكان جديرًا فى الجديد بحلة
كذلك قال الشيخ وهو مسافر

أفى الوقت ربانى كأحمد الذى أتانى فربانى على حين فترة
ومدحى له مدح لأحمد الذى علا فى العلا مقام المحبة
فصلّى عليه الله ما سار سائر إلى قبره بعد القيسام بحجة

وأخبرنى الشيخ الإمام العارف نجم الدين عبد الله الأصبهاني نزىل مكة قال: قال لى شيخ
صحبته - وأنا ببلاد العجم - : إنك ستلقى القطب بديار مصر فخرجت من بلادى قاصداً لذلك،
فأنا فى بعض الطريق وإذا بجماعة من الثثار قد لاقونى فأمسكونى، وقالوا: هذا جاسوس،
فكثفونى ثم تشاوروا فى قتلى، فقال بعضهم: نقتله. وقال آخرون: لا نقتله، فبث مكتوماً ففكرت فى
أمرى وقلت: خرجت من بلادى أريد لقاء من يعرفنى بالله، والله ما جزى من الموت، ولكن كيف
أموت قبل أن أنال ما قصدت، فعملت آياتاً ضمنت فيها شعراً لامرئ القيس:

وقد أوطأت نعلى كل أرض وقد أتعبت نفسى باغتساب
وقد طوّفت فى الآفاق حتى رضيت من الغنيمية بالإياب

فما استتممت الإنشاد إلا وأنا أرى رجلاً كَثَّ اللحية ظاهر الهية أفى إلى كالبازى إذا انقض
على الفريسة فحلّ كئافى، وقال: قم يا عبد الله فأنا مطلوبك، ثم إنى قدمت ديار مصر فقيل لى: هنا
رجل يقال له أبو العباس المرسى، فذهبت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذى حلّ وثاقى وقال: لقد
أعجبني نظمك ليلة أسرت وقولك وذكر الأبيات إلى آخرها.

وأخبرنى الشيخ نجم الدين أيضاً قال: قال لى شيخى: إذا لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك،
فجئت يوماً إلى الشيخ أبى العباس رضى الله عنه وهو بالإسكندرية عند صلاة العصر فلما دخلت
عليه قال: أصليت العصر؟ قال: قلت: لا. قال: قم فصل، وفى المكان الذى هو فيه إيوانان قبلى
وبحرى، وكان الشيخ جالساً فى البحرى منها، فلما قمت لأصلى ذكرت ما قاله لى شيخى: «إذا
لقيت القطب فلا تصلين وهو وراءك» وعلمت أنى إذا صليت كان الشيخ خلف ظهري، فأقام الله فى
قلبي حاله وقلت: حيث ما كان الشيخ هنالك القيلة، فتوجهت لناحية الشيخ وأردت أن أكبر فقال
الشيخ: لا، لا، هو لا يرضيه خلاف السنة.

وقال رضى الله عنه: ما أصنع بالكيمياء والله لقد صحبت أقواماً يعبر أحدهم على الشجرة
اليابسة فيشير إليها فتشعر رمّاناً للوقت، فمن صحب هؤلاء الرجال ماذا يصنع بالكيمياء^(١).

وأخبرنى بعض أصحابنا قال: كنت أصحب بمدينة «قوص» الشيخ أبا عبد الله البجائي، أحد
أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه، فكان يقع لى الأمر، فأسأل عنه الشيخ
أبا عبد الله، فيقول لى: ليس هذا الأمر لى، ولكن إن جمع الله بينك وبين الشيخ أبى العباس المرسى
نجد عنده ما تريد.

قال: ورأيت فى المنام كأن معى طبقاً فيه بسر وحوارى تأكل منه، فعبرت، فقيل لى: هذا رجل
كبير لك على يديه علوم كثيرة بعدما أتى وقتها، فلما ورد الشيخ أبو العباس إلى مدينة «قوص»

(١) إن الكيمياء بالمعنى القديم - وهو المراد هنا - هى: تحويل العناصر إلى بعضها، كتحويل النحاس مثلاً إلى ذهب، وهذا
هو المعنى المقصود من كلمة «الكيمياء»، هنا وكان كثير من القدماء يعتقدون أن ذلك ممكن، ويسعون وراء تحقيقه.

دخلت عليه فسألته عما كان يقع لي، فأجابني عن ذلك وقال: تذكر رؤياك اليسر والحواري تأكل منه، أنا ذلك الحواري^(٢).

وتجارت الكلام يوماً مع الشيخ مكين الدين الأسمر رضى الله عنه فقلت له عن الشيخ أبي العباس قال الشيخ كذا وقال كذا إلى أن قادی بنا الكلام والفقيه مكين الدين يستغرب تلك الحقائق التي أقولها عن الشيخ، إلى أن قال: تقول لك الحق: ما عرفنا الشيخ أبا العباس، فهذا اعتراف من الشيخ مكين الدين^(٣) الأسمر بعظيم شأن الشيخ أبي العباس وأنه لم يعرفه، مع أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي رضى الله عنه شهد للشيخ مكين الدين الأسمر أنه من السبعة الأبدال.

وكنيت يوماً عند الشيخ أبي العباس الدمنهوري، وعنده إنسان من أصحاب الشيخ أبي العباس فقال له إنسان: يا سيدي هذا من أصحاب الشيخ أبي العباس المرسى. فقال له الشيخ أبو العباس الدمنهوري: سيدي أبو العباس المرسى ملك من ملوك الآخرة. وأخبرني سليمان بن الباخس قال: دخلت على الشيخ أبي العباس الدمنهوري فسمعتة يقول: يارب هذاك أبو العباس وأنا أبو العباس ويكرر ذلك فقلت: يا سيدي من أبو العباس؟ قال المرسى، يابني ما بين أسوان إلى الإسكندرية رجل مثله.

ثم قال: ما بين أسوان إلى دمياط إلى الإسكندرية رجل مثله. وأخبرني سليمان هذا قال: لقيت يوماً الشيخ أبا العباس المرسى، وقد خرج من الحمام فعزمت عليه، فطلع عندي فقدمت له من البطيخ الصالحى، فهو في أثناء أكله سأله عن رجل كان كثير الشهرة يرحل بالخلق الكثير والرايات ولا يحضر صلاة الجمعة، فلما ذكرته للشيخ تغير وقال: والله لو أعلم أنك تذكره لي ما طلعت عندك، تذكرون بين يدى الأبدال والأولياء أهل البدع. وسمعتة يقول: والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم في زمن واحد قط إلا واحداً عن واحد إلى الحسن.

وأخبرني جماعة من أهل أشموم قالوا: قدم علينا الشيخ أبو العباس الهجاني من أصحاب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه، وكان يتكلم علينا فيعجبنا كلامه فإذا رأى إعجابنا بذلك

(٢) اليسر: جمع يسرة - أسمر النخل صار ما عليه يسر - أى بعد أن يكون: طلقاً ثم خلالاً ثم بلعاً ثم يسراً، والحواري بالضم وتشديد الواو - وفتح الراء - الدقيق الأبيض وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه.

(٣) والشيخ مكين الأسمر كما في جامع الكرامات العلية هو القطب الرباني صاحب المكاشفات والمجاهدات، الحائز لأسرار أهل الحقائق والتمكين، شيخ المشايخ الراسخين الفقيه المحدث سيدي ومولاي أبو عبد الله بن منصور الإسكندراني الشاذلي المقرئ الشهير بمكين الدين الأسمر، كان من أرباب المجاهدات، وله مكاشفات عجيبة وأحوال غريبة، ولد بالإسكندرية وها نشأ، وحفظ القرآن، وبرع فيه وفي علومه حتى صار أرواح أهل زمانه، وشهدت إليه الرجال، ووفدت عليه أكابر الرجال، كان في بدايته يخطب الملابس ويتقوت من ذلك وهو مع ذلك يطلب العلم، قال فيه أبو الحسن الشاذلي: الشيخ مكين الأسمر أحد السبعة الأبدال، وله كرامات ومكاشفات، كان رضى الله عنه في زمنه شيخ القراء، قرأ عليه ناس كثيرون وجماعة آخرون، توفي نفعا لله به بالإسكندرية سنة ٦٩٢ ومولده بها سنة ٦١٠.

قال: كيف لو رأيتم الشيخ أبا العباس المرسى، لو أطلق الشيخ أبو العباس لسأني لتكلمت بالعلم الغريب.

وسمعتة يقول: كان يتكلم في هذا العلم ثلاثة شيوخ: أبو الحسن وصاحبه الشيخ أبو الحسن الصقلى وأنا، توفي الشيخ رضى الله عنه، وتوفي أبو الحسن الصقلى ولا أعلم اليوم على وجه الأرض أحدًا يتكلم في هذا العلم غيرى.

وكنيت أنا حين توفي الشيخ أبو العباس بالقاهرة فدخلت يومًا زاوية الشيخ صفى الدين بن أبى المنصور فجلست فيها، فقال واحد من الفقهاء^(٤) يخاطب آخر: يا أخى قد مات رجل كبير اليوم، فقال له الآخر: من هو؟ قال: الشيخ أبو العباس المرسى، وهما لا يعلمان أننى من أصحاب الشيخ، تدرى ما اتفق له من شيخنا صفى الدين؟ قال: لا. قال: سمع الشيخ ليلة ههنا ذكرًا لا يعمده فقال لى: اذهب فانظر من هذا؟ فذهب فإذا هو الشيخ أبو العباس وأصحابه، فرجعت إلى الشيخ صفى الدين فأخبرته فقال: يأتى هذا الرجل إلى هنا ولا يزورنا؟ ما هذا إلا أمر عجيب. قال: ثم أصبح الشيخ صفى الدين فقال لأصحابه: رأيت البارحة كأننى فى فلاة من الأرض وأبو العباس فى موضع مرتفع وهو يقول لى: يا أخى يأتى الله أن نجتمع إلا هكذا. وقال الشيخ أبو عبد الله بن النعمان، الشيخ أبو العباس المرسى وارث علم الشيخ الشاذلى حقيقة.

وأخبرنى بعض الفقهاء من أهل البهسا قال: قال لى الشيخ أمين الدين جبريل: تريد أن أريك وليًا من أولياء الله؟ قلت: نعم، قال: امض بنا، فأتى لى إلى الشيخ أبى العباس وقال: هو هذا. وأخبرنى بعض أصحابه قال: عزم على الشيخ إنسان، فقدم له طعامًا يختبره به، فأعرض الشيخ عنه ولم يأكله، ثم التفت إلى صاحب الطعام فقال: إن كان الحارث بن أسد المحاسبى كان فى أصبعه عرق إذا مَدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه، فأنا فى يدي ستون عرقًا تتحرك على إذا كان مثل ذلك، فاستغفر صاحب الطعام واعتذر إلى الشيخ.

ومن المشهور بين أصحاب الشيخ أبى الحسن وغيرهم أن الشيخ كان يومًا بالقاهرة فى دار الزكى السراج وكتاب المواقف^(٥) للنفزى يقرأ عليه، فقال: أين أبو العباس؟ فلما جاء قال: يا بنى تكلم، يا بنى تكلم بارك الله فيك تكلم ولن تسكت بعدها أبدًا، فقال الشيخ أبو العباس: فأعطيت فى ذلك الوقت لسان الشيخ.

ولقد كان علماء الزمان يسلمون له هذا الشأن، حتى كان شيخنا الإمام العلامة سيف المناظرين، حجة المتكلمين شمس الدين الأصبهائى، والشيخ العلامة شمس الدين الأيكي يجلسان بين يديه جلوس المستفيد، آخذين عنه ومثلقين ما يديده حتى سأله أحدهما عن بعض المشايخ الظاهرين فى الوقت: ياسيدى أتعرفه؟ فقال الشيخ: أعرفه هنا - وأشار إلى الأرض - ولا أعرفه هناك - وأشار إلى السماء.

(٤) المقصود: الفقهاء إلى الله، وهم الصوفية.

(٥) كتاب «المواقف» من أعمق كتب التصوف بحيث لا يتناولها إلا خاصة الخاصة وهو مطبوع إلا أنه من الندرة بكان.

وسأله أحدهما عن إنسان كان بدمشق الغالب عليه السكر والغيبة، فقال الشيخ رضى الله عنه: كل من لا يكون له في هذه الطريق شيخ لا يُفرح به. وكان من مذهبه رضى الله عنه: أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفاً حسنياً، بل قد يكون من غير هذا القبيل.

وتكلم يوماً في القطب وأوصافه ثم قال: وما القطبانية بعيدة من بعض الأولياء وأشار إلى نفسه. وأخبرني بعض أصحابه قال: استلقى الشيخ يوماً على ظهره وأمسك بلحيته وقال: لو علم علماء العراق والشام ما تحت هذه الشعرات لأثروها ولو سعيًا على وجوههم. وكان يقول: والله ما نطالع كلام أهل الطريق إلا لترى فضل الله علينا، وقال في الإمام أبي حامد الغزالي رضى الله عنه: إنا لنشهد له بالصدقية العظمى.

وكان الشيخ أبو الحسن يقول: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد. وكان يقول عن شيخه أبي الحسن رضى الله عنه: كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت^(٦) يورثك النور.

وكان يقول عن الشيخ أبي الحسن: عليكم بالقوت فإنه قوت. وكان هو والشيخ أبو الحسن كل منهما يعظم الإمام الرباني محمد بن علي الترمذى^(٧)، وكان لكلامه عندهما الحظوة القائمة، وكان يقول عنه: إنه أحد الأربعة الأوتاد. ودخلت عليه يوماً فوجدته مغموساً في وادٍ ورد عليه فقال: سمعت البارحة يقال لى: السلام

(٦) كتاب «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وهو من الكتب التي تعتبر من عهد التصوف، وقد قرأه الإمام الغزالي واستفاد منه، وكان الإمام الشاذلي يدرسه لمريديه، ويحثهم على قراءته - وهو مطبوع متداول.

(٧) هو صاحب كتاب «ختم الأولياء» الذي أثار ثورة فكرية في الجو الصوفي وقد طبع له هذا الكتاب أخيراً في لبنان، وطبع له من قبل كتاب «نوارد الأصول» وكتاب «الصلاة» وله كتب كثيرة تحت الطبع وقد كتب عنه أصحاب الطبقات، فيقول عنه صاحب الرسالة القشيرية:

«من كبار الشيوخ وله تصانيف في علوم القوم، صاحب أبا تراب النخشبى وأحمد بن خضروية، وابن الجلاء وغيرهم. سئل محمد بن علي عن صفة الخلق فقال:

«ضعف ظاهري، ودعوى عريضة».

وقال محمد بن علي:

ما صنعت حرقاً عن تدبير، ولا لينسب إلى شئ منه، ولكن كان إذا اشتد على وقتي انشلي به؟ والترمذى: نسبته إلى (ترمذ): مدينة على طرف نهر بلخ المسمى (ببيجون). قال الحافظ بن النجار في تاريخه: كان إماماً من أئمة المسلمين، وله التصانيف الكثيرة في التصوف، وأصول الدين، ومعاني الحديث.

وقال الكلاباذي - في التعرف - هو من أئمة الصوفية، وقال ابن عطاء الله:

كان الشاذلي والمرسي يعظمانه ويقولان: هو أحد الأوتاد الأربعة؟

ومن حكمه: إذا سكنت الأرواح بالنس، تطلعت الجوارح بالبر.

وقال: الولي أبداً في ستر حاله، والكون ناطق بولايته، ومدعى الولاية ناطق بولايته، والكون كله يكذبه.

وقال: ما استصغرت أحدًا من المسلمين إلا وجدت نقصاً في معرفتي وإيماني، وما منع الناس من الوصول إلا تركضهم في الطريق بغير دليل؟

عليكم يا عبادي ثم قال: وهذا قد أسمعُهُ في السنة مرةً أو مرتين.

وهذا من الحديث الذي قال فيه أبو العباس بن العريف:

بدا لك سرُّ طال عنك اكتتامة	ولاح صباح كنت أنت ظلامه
فأنت حجاب القلب عن سرِّ وحيه	ولولاك لم يطبع عليه ختامه
فإن غبت عنه حل فيه وطنيت ^(٨)	على موكب الكشف المصون خيام
وجاء حديث لا يمل سماعه	شهيء إلينا نشره ونظامه

(٨) طنبت: أي شدت بأطنابها، وهي الخبال الطويلة.

البَابُ الثَّالِثُ

فِي مَجْرَبَاتِهِ وَمَنَازِلَاتِهِ وَمَا اتَّفَقَ لِأَصْحَابِهِ مَعَهُ
وَمَكَاشِفَاتِهِ

سمعت الشيخ أبا العباس رضي الله عنه يقول: كنت أنا وصبي عند المؤدّب إذ جاء رجل فوجدني أكتب في لوح فقال لي: الصوفي لا يسود بياضاً، قال: فقلت له: ليس الأمر كما زعمت، ولكن لا يسود بياض الصعائف بسواد الذنوب.

وسمعتة يقول: عمل إلى جانب دارنا خيال الستارة وأنا إذ ذاك صبي فحضرتة، فلما أصبحت وأتيت إلى المؤدّب، وكان من أوليائه الله أنشدني حين رآني:

يا ناظراً صور الخيال تعجباً وهو الخيال بعينه لو أبصرا

وقال رضي الله عنه: رأيت ليلة كآني في سماء الدنيا وإذا برجل أسمر اللون قصير الطول كبير اللحية، فقال قل:

اللهم اغفر لأمة محمد، اللهم ارحم أمة محمد، اللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد.

هذا دعاء الخضر، من قاله كل يوم كتب من الأبدال، ف قيل لي: هذا الشيخ ابن أبي شامة، فلما انتهيت أتيت إلى الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه فجلست ولم أخبره بشيء، فقال: اللهم اغفر لأمة محمد، واللهم ارحم أمة محمد، واللهم استر أمة محمد، اللهم اجبر أمة محمد، هذا دعاء الخضر من قاله كل يوم كتب من الأبدال.

وقال رضي الله عنه: كنت أخرج كل يوم من باب البحر إلى نحو المنار، فخرجت يوماً إلى المنار، فتمت عند الجانب الشرقي، وكان قد خطر في نفسي: ما سبب قلة رواية أبي بكر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ مع كثرة ملازمته له؟

فإذا قائل يقول لي: أعلم الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وإنما قلت روايته عنه لتحققته به.

وقال رضي الله عنه: طالعت مقام الرحمة فإذا قائل يقول لي: والله ليكونن من رحمة الله يوم القيامة ما ينال منها ابن أبي الطواجين، وكان ابن أبي الطواجين هذا قد قتل الشيخ القطب عبد السلام بن مشيش شيخ الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما.

وقال رضي الله عنه: كنت مع الشيخ في مدينة الرسول ﷺ فأردت أن أزور حمزة رضي الله عنه، فخرجت من المدينة، فتبعني رجل فأتينا إلى التربة، فإذا الباب مغلق، فانفتح ببركة رسول الله ﷺ فدخلنا فوجدنا هناك رجلاً من الأبدال فقلت للرجل الذي تبعني: ادع في هذا الوقت بما تريد، فإنه

يستجاب لك، فدعا ذلك الرجل أن يعطيه الله ديناراً، فلما رجعنا إلى المدينة لقيه رجل فأعطاه ديناراً، فلما دخلنا على الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه قال له: يا بطل صادقت وقت إجابة فسألت الله ديناراً هلا سألت الله كما سأله أبو العباس، سأله أن يكفيه هم الدنيا وعذاب الآخرة وقد استجاب الله له في ذلك.

وقال رضى الله عنه: كنت يوماً جالسا بين يدي الأستاذ فدخل عليه جماعة من الصالحين فلما خرجوا من عنده قال: هؤلاء أبدال، فنظرت بصيرتي فلم أجدهم أبدالاً، فتحيرت بين ما أخبر به الشيخ، وبين ما شهدته بصيرتي، فبعد ذلك بأيام قال الشيخ: من بدلت سيئاته حسنات فهو بدل، فعلمت أن الشيخ أراد أول مراتب اليديلية.

وأخبرني الشيخ العارف نجم الدين الأصمهاى، قال: قال لى الشيخ أبو العباس يوماً: ما اسم كذا وكذا بالعجمية؟ فخطر لى أن الشيخ يحب أن يقف على لغة العجم، فأتيت إليه بكتاب «الترجمان» قال: فقال الشيخ: ما هذا الكتاب؟ فقلت: كتاب «الترجمان» قال: فضحك الشيخ وقال: سل بالعجمية ما شئت أجيبك بالعربية، وسل ما شئت بالعربية أجيبك بالعجمية، فسألته بالعجمية فأجابنى بالعربية، وسألته بالعربية فأجابنى بالعجمية، وقال: يا عبد الله ما أردت بقولى ما اسم كذا إلا مباسطتك، وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن، ويغفى عليه شيء من الألسنة.

وأخبرنى أيضاً قال: قال الشيخ أبو العباس يوماً: كم بين بلدة كذا وبلدة كذا من نهر لبلدين من بلاد العجم؟ فقلت: أربعة أشهر. فقال: والنهر الذى غرقت فيه؟ فذكرت أنى نسيت نهراً أتيت لأخوضه فكذبت أن أغرق فيه.

وأخبرنى الشيخ العارف ياقوت: قال: عزم على إنسان فقدم لى طعاماً، فرأيت عليه ظلمة كالكب فقلت فى نفسى: هذا حرام فامتنعت من أكله، ثم دخلت على الشيخ أبي العباس رضى الله عنه فقال: أول ما جلست: ومن جهلة المريدين من يقدم له طعام فيرى عليه ظلمة فيقول هذا حرام، يا مسكين ما يساوى ورعك سوء ظنك فى أخيك المسلم، هلا قلت هذا طعام لم يردن الله به. ودخلت أنا عليه يوماً، وفى نفسى ترك الأسباب والتجريد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر قائلاً: إن الوصول إلى الله لا يكون إلا على هذه الحالة.

فقال من غير أن أبدى له شيئاً: صحبى بقوص إنسان يقال له: ابن ناشئ وكان مدرساً بها ونائب الحكم، فذاق من هذا الطريق شيئاً على أيدينا. فقال: يا سيدى أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟

فقلت له: ليس الشأن ذا، ولكن امكث فيما أقامك الله فيه، وما قسم لك على أيدينا هو لك واصل.

ثم قال: وهذا شأن الصديقين، لا يخرجون من شيء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم.

فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى وكأنما كانت ثوباً نزعته، ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه.

وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأيت وأنا بالمغرب دائرة من الرجال، ورجلا في وسطها، وكل من في تلك الدائرة متوجه إليه، فقلت في نفسي: هذا هو القطب، وعرفت ذلك الرجل بصفته وبقيت كليا ذكر لي عن رجل أتى إليه وأقول: عسى أن يكون ذلك الرجل الذي رأيته في وسط الدائرة، حتى قيل لي عن الشيخ أبي العباس، فأتيت إليه فإذا هو ذلك الرجل الذي رأيته في وسط الدائرة فأخبرته، فقال: نعم أنا القطب، أما الذين يقابلون بطي لهم المدد من باطن حقيقتي، والذين يقابلون ظهري لهم المدد من ظاهر علمي، والذين يقابلون جنبي لهم المدد من العلوم التي بين جنبي. وأخبرني بعض أصحابنا قال: رأى إنسان من أهل العلم والخير كأنه بالقراءة الصغرى، والناس مجتمعون يتطلعون إلى السماء وقائل يقول: الشيخ أبو الحسن الشاذلي ينزل من السماء، والشيخ أبو العباس مرتقب لنزوله، متأهب له، فرأيت الشيخ أبا الحسن قد نزل من السماء وعليه ثياب بيض، فلما رآه الشيخ أبو العباس ثبت رجله في الأرض، وتبها لنزوله عليه، فنزل الشيخ أبو الحسن عليه، ودخل من رأسه، حتى غاب فيه واستيقظت.

وأخبرني الشيخ محمد السراج رحمه الله قال: كنت ليلة من الليالي نائما وأنا أرى في المنام قائلا يقول لي: اذهب إلى خارج الإسكندرية من باب السدرة، فأول بستان تلقاه من الجانب الأيسر فادخل فيه فإنك تجد فيه جماعة من الناس، الجالس منهم تحت أطول نخلة هناك رجل من الرجال، ثم قيل: إن في الجامع حلقة من دخل فيها فهو آمن، فلما أصبحت خرجت إلى ظاهر الإسكندرية ودخلت أول بستان من الجانب الأيسر، فوجدت حلقة هناك، فرفعت بصرى لأنظر إلى أطولها نخلة، فإذا قائل يقول لي: كلها طوال؛ فإذا الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه، فسلمت عليه وجلست وقلت: يا سيدى رأيت البارحة كذا وكذا وقصصت عليه الرؤيا فقال: الجامع أنا، والحلقة هم أصحابي، ومن دخل فيها فهو آمن، أى من دخل في شروطنا فهو آمن، ثم قال: أنا الليلة آتيك فقلت: يا سيدى أنتظر على الباب، أو أترك الباب لك مفتوحا؟ فقال: لا ولكن اغلق بابك، وأنا آتيك.

قال: فلما كان الليل أخذنى شبه الوهم، وصرت أقول: من أين يأتى؟ من هنا يأتى، لا بل من هنا يأتى، فلم أطق المكث، فخرجت إلى رباط الواسطى، وصعدت المأذنة، ووقفت أصلى، فأنا في الصلاة، وإذا الشيخ أبو العباس قد أتى في الهواء وقال: يا محمد، أنظن أنك إذا جئت هنا يخفى على مكانك؟ فقلت: يا سيدى إنما جئت هنا لأنى لم أطق المكث، وهاتى الأمر، وكان المخاطب له منى لسانا آخر غير الذى كنت أقرأ به.

وأخبرني بعض أصحابه قال: كنا مع الشيخ بمدينة «قوص» وكان من أصحاب الشيخ أبي العباس أبو الحسن المرسى، وكان في خلقه حدة فنزل ولد الشيخ يوما يلعب كما يلعب الصبيان، فقال له الشيخ أبو الحسن المرسى: أطلع لا أطلعك الله، فسمعه الشيخ أبو العباس فنزل وقال: يا أبا الحسن حسن خلقك مع الناس، بقى لك عام وتموت، فمات إلى تمام العام.

وأخبرني أبو عبد الله الحكيم المرسى رحمه الله قال: قدم علينا الشيخ بأشموغ، فلما جن الليل دعاني الشيخ وقال: ادن منى يا حكيم فدنوت منه فوضع يده خلف ظهري، وفعلت أنا كذلك،

وضمني إليه ويكى : فبكيت لبكائه ولم أدر مم بكى ؟ فقال : يا حكيم ما جئتمكم إلا مودعا، يا حكيم نذهب إلى المقسم نودع أخى ثم نعود إلى الاسكندرية نبيت بها ليلة، وندخل في اليوم الثانى قبرى، فسافر فأقام عند أخيه مدة يسيرة، ثم انحدر إلى الاسكندرية فأقام بها ليلة، ودخل في اليوم الثانى قبره كما قال، رحمه الله.

وأخبرنى سيدى جمال الدين ولد الشيخ رضى الله عنها : قال : ورد رسول الإفرنج إلى الإسكندرية فذهبت لأنظره، ولم أعلم الشيخ، فلما جئت قال : أين كنت ؟ قلت : ههنا.

قال : بل ذهبت تنظر رسول الإفرنج، أتظن أن شيئا من أحوالك يخفى على ؟ كان الرسول لا يسا كذا وكذا، راكبا على كذا عن يمينه فلان، وعن يساره فلان فوصف الحال على ما كانت عليه ؟

وأخبرنى عبد العزيز المديولى قال : قال لى الشيخ : يا عبد العزيز سقيت الفرس ؟ فقلت : نعم، فكرر ذلك مرارا وأنا أقول نعم، ففى المرة الأخيرة قال يا الله، وطار فى الهواء حتى غاب عن بصرى، فلما كان فى اليوم الثانى قال : يا عبد العزيز ما الذى يحوج الإنسان منكم أن يقول غير الحق، كنت تقول ما سقيتها، وماذا كنت أصنع بك إذا لم تسقها ؟

وكننت أنا سمعت الطلبة يقولون : من يصحب المشايخ لا يجىء منه فى العلم الظاهر شىء، فشق على أن يفوتنى العلم، وشق على أن تفوتنى صحبة الشيخ رضى الله عنه.

فأتيت إلى الشيخ فوجدته يأكل لحما يخل فقلت فى نفسى : ليت الشيخ يطعمنى لقمة من يده فما استتممت الخاطر إلا وقد دفع فى فمى لقمة فى يده ثم قال :

نحن إذا صحبنا تاجرا ما نقول له اترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له اترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له اترك طلبك وتعال، ولكن نقر كل أحد فيها أقامه الله فيه، وما قسم له على أيدينا فهو واصل إليه.

وقد صحب الصحابة رسول الله ﷺ فما قال لتاجر اترك تجارتك ولا لذى صنعه اترك صنعتك بل أقرهم على أسبابهم وأمرهم بتقوى الله فيها.

وسمعتة يقول : سافرت إلى «قوص» ومعى خمس أنفس : الحاج سليمان، وأحمد بن الزين، وأبو الربيع، وأبو الحسن المرسى، وفلان، فقال لى إنسان : ما الذى تقصد يسفرك يا سيدى ؟ فقلت له : أدفن هؤلاء بقوص وأجىء، فدفنت الخمسة بها، أما الحاج سليمان فما مات حتى شرب من حوض الكوثر، وأخبرنى بعض أصحابه قال : نزل عنده بعض الأعيان فقال فى نفسه : أشتهى من ينهى قبل الفجر بمنزلة ويأتى بإبريق ماء سخن ويأتينى بسراج ويرينى محل الطهارة قال : فما كان قبل الفجر إلا وطارق يطرق الباب؛ فخرجت فإذا هو الشيخ فقال : الوقت قبل الفجر بمنزلة وهذا إبريق فيه ماء سخن وهذه شمعة تعال حتى أريك محل الطهارة.

وكننت قلت لبعض أصحاب الشيخ : أريد لو نظر إلى الشيخ بعناية وجعلنى فى خاطره؛ فقال ذلك للشيخ؛ فلما دخلت على الشيخ رضى الله عنه فقال : لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم، فعلى مقدار ما يكون الشيخ عندكم تكونون عنده.

ثم قال: أى شيء تريد أن تكون، والله ليكونن لك شأن، والله ليكونن لك شأن عظيم، والله ليكونن لك كذا، والله ليكونن لك كذا، لم أثبت منه إلا قوله «ليكونن لك شأن عظيم»، فكان من فضل الله سبحانه ما لا ننكره.

وأخبرني سيدي جمال الدين ولد الشيخ، قال: قلت للشيخ، هم يريدون يصدرون ابن عطاء الله في الفقه. فقال الشيخ:

هم يصدرونه في الفقه، وأنا أصدره في التصوف.

ودخلت أنا عليه فقال لي: إذا عوفي الفقيه ناصر الدين يجلسك في موضع جدك! ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية؛ وتتكلم إن شاء الله في العلمين فكان ما أخبر به رضى الله عنه.

سمعتة يقول: أريد أن أستنسخ كتاب التهذيب لولدي جمال الدين، فذهبت أنا فاستنسخته من غير أن أعلم الشيخ، وأتيته بالجزء الأول فقال: ما هذا؟ قلت: كتاب التهذيب استنسخته لكم، فأخذه فلما نهض ليقوم قال: اجعل بالك؛ الولي لا يتفضل عليه أحد تجدد هذا إن شاء الله في ميزانك، فلما أتيته بالجزء الثاني لقيني بعض أصحابه بعد نزولي من عنده؛ وقال: قال الشيخ عنك: والله لأجعلنه عينا من عيون الله يقتدى به في العلم الظاهر والباطن، فلما أتيته بالجزء الثالث ونزلت من عنده لقيني بعض أصحابي وقال: طلعت عند الشيخ فوجدت عنده مجلدة حمراء، فقال: هذا كتاب استنسخه لي ابن عطاء الله، فواؤه ما أَرْضَى له بجلسته جده، ولكن بزيادة التصوف.

وأخبرني بعض أصحابه قال: قال الشيخ يوماً: إذا جاء ابن عطاء الله فقيه الإسكندرية، فأعلموني به. فلما أتيت أعلمنا الشيخ بك. فقال: تقم فتقدمت بين يديه، ثم قال: جاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله ﷺ ومعه ملك الجبال حين كذبت قريش، فقال له جبريل عليه السلام: هذا ملك الجبال أمره الله أن يطيع أمرك في قريش. فسلم عليه ملك الجبال وقال: يا محمد إن شئت أطبق عليهم الأخشبين ففعلت. فقال رسول الله ﷺ: لا، ولكن أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحّد الله ولا يشرك به شيئاً، فضرب عليهم رسول الله ﷺ رجاء من يخرج من أصلابهم^(١)، كذلك صبرنا على جدّ هذا الفقيه لأجل هذا الفقيه.

وخرجت يوماً من عند الفقيه مكيين الدين الأسمر رضى الله عنه وخرج معي أبو الحسن الجزيري - وكان من أصحاب الشيخ أبي الحسن - فسلمت عليه فسلم عليّ ببشاشة وإقبال، فقلت له: من أين تعرفني؟ فقال: وكيف لا أعرفك! كنت يوماً جالساً عند الشيخ أبي العباس

(١) عندما لقى رسول الله ﷺ من أهل الطائف الكثير من الأذى ودعا دعاءه المشهور: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس». عند ذلك نزل عليه جبريل ومعه ملك الجبال وكما روى البخاري بسنده عن عائشة قالت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشدّ عليك من أحد؟ فقال:

لقد أتيت من قومك، وكان أشدّ ما أتيت منهم بعد يوم العقبة إذ عرضت نفسي على عدي بن كلال، فلم يجبي إلى ما أردت فانطلقت على وجهي وأنا مهموم فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وماذكروا عليك وقد بعثت إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ فقال: يا محمد ذلك لك؛ إن شئت أطبق عليهم الأخشبين. فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً» وانظر الروض الأنف ٥٧/٤ - ٥٧.

وكنّنت أنت عنده فلما نزلت قلت له: يا سيدى إنه ليحببني هذا الشاب انقطع فلان وفلان عن الملازمة، وهذا الشاب ملازم قال: فقال الشيخ: يا أبا الحسن لن يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله. فكان كما قال الشيخ والله الحمد.

وأخبرني أبو الحسن هذا قال: كنت ليلة عند الشيخ أبي الحسن، وكان يقرأ عليه كتاب «ختم الأولياء» للترمذي الحكيم، قرأت واحداً جالساً لم يطلع معنا. ولم يكن عند الشيخ وقت طلوعنا، فقلت لإنسان إلى جانبي: من هذا الرجل الجالس إلى جانب فلان؟

فقال: ما ههنا أحد غير الجماعة الذين تعرفهم، فسكت وعلمت أنه لم يره فلما انصرف الجمع سألت الشيخ أبا الحسن رضى الله عنه فقلت: يا سيدى رأيت هنا رجلاً لم يطلع معنا ولم يكن عندك قبل طلوعنا، فقال الشيخ: ذاك أبو العباس المرسى يأتي كل ليلة من المقسم حتى يسمع الميعاد ثم يعود من ليلته إلى مكانه والشيخ أبو الحسن إذ ذاك بالإسكندرية.

وكنّنت كثيراً ما يطرأ على الوسواس في الطهارة فبلغ ذلك الشيخ أبا الحسن فقال: بلغني أن بك وسواساً في الوضوء.

قلت: نعم.

فقال رضى الله عنه: هذه الطائفة تلعب بالشیطان، لا الشيطان يلعب بها، ثم مكثت أياماً ودخلت عليه فقال: ما حال هذا الوسواس؟ فقلت: على حاله.

فقال: إن كنت لا تترك هذه الوسوسة لا تعد تأتينا، فشئ ذلك على وقطع الله الوسواس عني. وكان رضى الله عنه يلقي للوسواس: «سبحان الملك الخلاق، إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز».

وعملت فيه قصيدة أمدحه بها سياتى ذكرها إن شاء الله آخر الكتاب فقال - حين أنشدت - : أيدك الله بروح القدس. ثم عملت قصيدة أخرى بإشارته - جواباً لقصيدة مدحه بها إنسان من بلاد أخميم وسياتى ذكرها أيضاً آخر الكتاب إن شاء الله تعالى - فلما قرئت عليه قال: هذا الفقيه صحنى وبه مرضان، وقد عافاه الله منها، ولا بد أن يجلس، ويتحدث في العلمين.

يشير الشيخ إلى مرض الوسوسة فقد انقطع عني ببركة الشيخ حتى صرت أخاف أن أكون لشدة التوسعة التي أجدها قد تساهلت في بعض الأمور.

والمرض الآخر: كان بي ألم برأسى فشكوت ذلك إليه فدعا لى، فعافانى الله وشفانى. وبت ليلة من الليالى مهموماً، فرأيت الشيخ في المنام فشكوت إليه ما أنا فيه، فقال: اسكت والله لأعلمنك علماً عظيماً، فلما استيقظت أتيت إلى الشيخ رضى الله عنه، فقصص عليه الرؤيا فقال: هكذا تكون إن شاء الله.

وقدم يوماً من السفر فخرجنا للقائه فلما سلمت عليه قال: يا أحمد كان الله لك، ولطف بك، وسلك بك سبيل أوليائه، وهماك بين خلقه. فلقد وجدت بركة هذا الدعاء، وعلمت أنه لا يكتفى الانقطاع عن الخلق، وأنى مراد بهم، لقوله: «وهماك بين خلقه».

وكنيت أنا لأمره من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشيء سمعته منه، ولا لشيء صح نقله عنه، حتى جرت بيني وبين بعض أصحابه مقابلة، وذلك قبل صحبتي إياه، وقلت لذلك الرجل: ليس إلا أهل العلم الظاهر وهؤلاء القوم يدعون أموراً عظيماً وظاهر الشرع يابها. فقال ذلك الرجل: بعد أن صحبت الشيخ، تدري ما قال لي الشيخ يوم تقاضينا؟ قلت: لا. قال: دخلت عليه فأول ما قال لي: هؤلاء كالحجر ما أخطأك منه خير مما أصابك، فعلمت أن الشيخ كوشف بأمرنا، ولعمري لقد صحبت الشيخ اثني عشر عاماً فما سمعت منه شيئاً ينكره ظاهر العلم، من الذي كان ينقله عنه من يقصده بالأذى.

وكان سبب اجتماعي به أن قلت في نفسي بعد أن جرت المخاصمة بيني وبين ذلك الرجل: دعني أذهب أرى هذا الرجل فصاحب الحق له أمارات لا يخفى شأنه. فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم في الأنفاس التي أمر الشارع بها فقال:

الأول: إسلام.

والثاني: إيمان.

والثالث: إحسان.

وإن شئت قلت: الأول عبادة.

والثاني: عبودية.

والثالث: عبودة.

وإن شئت قلت: الأول شريعة.

والثاني: حقيقة.

والثالث: تحقق، أو نحو هذا.

فما زال يقول: «وإن شئت قلت» «وإن شئت قلت» إلى أن بهر عقل وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهي، ومدد رباني، فأذهب الله ما كان عندي، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد في شيئاً يقبل الاجتماع بالأهل على عادي، ووجدت معنى غريباً لا أدري ما هو، فأنفردت في مكان أنظر إلى السماء، وإلى كواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فحملني ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن عليّ فلما دخلت عليه، قام قائماً وتلقاني ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً واستصغرت نفسي أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: ياسيدي أنا والله أحبك.

فقال: أحبك الله كما أحبيتني، ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان فقال رضى الله عنه: أحوال العبد أربعة لا خامس لها: النعمة والبلية، والطاعة، والمعصية. فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منك الشكر.

وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر.
 وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك.
 وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار.
 فقامت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته ثم سألتني بعد ذلك بمدة كيف حالك ؟
 فقلت: أفتش على الهم فلا أجده، فقال رضى الله عنه:
 ليسلى بسوجهك مقمر وظلامه فى الناس سار
 والناس فى سدف، الظلام ونحن فى ضوء النهار
 الزم. فوالله لئن لزمنا لتكونن مفتياً فى المذهبين، يريد
 مذهب أهل الشريعة أهل العلم الظاهر
 ومذهب أهل الحقيقة أهل العلم الباطن.

الباب الرابع

في علمه وزهده وورعه ورفع همته وحلمه
وصبره وسداد طريقته

كان رضى الله عنه لا يتحدث معه في علم من العلوم إلا يتحدث معك فيه، حتى يقول السامع: إنه لا يحسن غير هذا العلم - لاسيما علم الحديث والتفسير.

وكان يقول: شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه.
وكان كتابه في أصول الدين «الإرشاد»، وفي الحديث كتاب «المصابيح»، وفي الفقه «التهذيب والرسالة» وفي التفسير كتاب ابن عطية^(١).

ولقد كان يقرأ عليه بعض المفرقين في العربية فيرد عليه اللحن.
وأما علوم المعارف والأسرار فمقطب رحاها وشمس ضحاها، تقول إذا سمعت كلامه: هذا كلام من ليس وطنه إلا غيب الله، هو بأخبار أهل السماء أعلم منه بأخبار أهل الأرض.
وسمعت أن الشيخ أبا الحسن قال عنه: أبو العباس بطرق السماء أعرف منه بطرق الأرض.
كنت لا تسمعه يتحدث إلا في العقل الأكبر، والاسم الأعظم، وشعبه الأربع، والأنبياء، والحروف، ودوائر الأولياء، ومقامات الموقنين، والأملاك المقربين عند العرش، وعلوم الأسرار، وأمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم اليد، وعلم المشيئة، وشأن القبضة، ورجال القبضة، وعلوم الأفراد وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع عباده من حلمه وإنعامه، ووجود انتقامه، حتى لقد سمعته يقول:

والله لولا ضعف العقول لأخبرت بما يكون غدا من رحمة الله.
وإن تنزل إلى علوم المعاملة ففي الزمن اليسير لبحاجة الخلق إلى ذلك؛ ولذلك قل أتباع من هذه علومه، وقد يكثر المشتري للمرجان، وقل أن يجتمع على شراء الياقوت اثنان؛ ولذلك كان يقول رضى الله عنه:

أتباع أهل الحق قليلون وقد قال الحق سبحانه:
﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾.

(١) كتاب ابن عطية: هو كتاب المحرر الوجيز وله من اسمه نصيب، فهو محرر، وهو في عرف ابن عطية وجيز، وإن كان متوسط الحجم، وما زال الكتاب مخطوطا، ولكن عدة جهات تعمل على نشره، ونرجو الله له التوفيق.

وقال سبحانه: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقال في أهل الكهف: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾.

فأولياء الله أهل كهف الإيواء فقليل من يعرفهم.

وسمعت رضى الله عنه يقول: معرفة الولي أصعب من معرفة الله، فإن الله معروف بكماله وجهاله. ومتى حتى تعرف مخلوقاً مثلك، يأكل كما تأكل ويشرب كما تشرب.

وأما زهده في الدنيا فيستدل على الزهد في الدنيا بالزهد في الرئاسة، ويستدل على الزهد في الرئاسة بالزهد في الاجتماع بأهلها، ولقد مكث رضى الله عنه بالإسكندرية ستاً وثلاثين سنة ما رأى وجه متوليها ولا أرسل إليه، وطلب ذلك المتولي بالإسكندرية فأبى الشيخ من ذلك. وقال له الزكي الأسواني: يا سيدى متولى الإسكندرية قال: إنه يريد الاجتماع بك، ويأخذ بيدك فتكون شيخه.

فقال له الشيخ: يا زكى، لست ممن يُلعب به، والله إنى ألقى الله، ولا يراى (المتولى) ولا أراه فكان كذلك.

وكان إذا نزل بلدة وقيل له: متولى البلد يريد أن يأتيك غداً، سافر هو ليلاً. ولقد كان يأتى إليه متولى الثغر وناظره ومشدّ الدواوين به، قليلة إتيانهم، يغلب القبض عليه، ولا ينسبط للكلام كحالته في عدم حضورهم، حتى كُتِبَ نقول: ليت ذلك الكلام الذى كان في غيبتهم كان ليلة حضورهم.

ولقد أتى إليه الشجاعى في بحبوحة عزّه، وتمكّنه من السلطنة، فما ألقى إليه عنان همته، ولا فوق إليه سهام عزيمته، حتى لقد بلغنى أن الزكى الأسواني لما استعرض للشجاعى حوائجه قال للشيخ: يا سيدى اطلب منه أرضاً يزرعها أصحابك. فقال: يا زكى هذا ما لا يكون أبداً.

ومن زهده رضى الله عنه أنه خرج من الدنيا وما وضع حجراً على حجر، ولا اتخذ بستاناً؛ ولا افتتح نسيباً من أسباب الدنيا؛ ولا خلف وراءه ورقة مع أن الزهد وصف من أوصاف القلوب يصف الله به قلب من أحبه، ولكن له علامات تدل عليه.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: رأيت الصديق في المنام؛ فقال لى: أتدرى ما علامة خروج حب الدنيا من القلب؟ قلت: لا أدري؛ قال: علامة خروج حب الدنيا من القلب بذلها عند الوجد، ووجود الراحة منها عند الفقد.

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه في المنام؛ فقلت: يا أمير المؤمنين ما علامة حب الدنيا؟ قال: خوف المذمة وحب الثناء.

فإذا كان علامة حبها خوف المذمة وحب الثناء، فعلمة الزهد فيها وبغضها أن لا يخاف المذمة ولا يحب الثناء.

وأما ورعه فقلقد أخيرني بعض أصحابه أنه دخل يوماً بيت واحد من الجماعة في البرج الذي هو فيه فوجده يضرب فيه وتدًا؛ قال: فاتفق للشيخ من المخرج الأمر الكبير، وقال كيف يحل لك أن تنصرف في الحبس^(٢) بأمر لم يؤذن لك فيه.

وكان يقول: والله ما دخل بطنى حرام قط.

وكان يقول: الورع من ورعه الله.

وقال رضى الله عنه: عزم علينا بعض صلحاء الإسكندرية في بستان له بالرميل، فخرجت أنا وجماعة من صلحاء الثغر، ولم يخرج معنا صاحب البستان ذلك الوقت، بل وصف لنا المكان فتجارينا ونحن خارجون الكلام في الورع، فكلُّ قال شيئاً، فقلت لهم: إنما الورع من ورعه الله، قلنا أتينا البستان، وكان زمن ثمره التوت كلهم أسرع إلى الأكل وأكل، وكنت كلما جئت لأكل أجد وجعاً في بطنى، فأرجع فينقطع الوجع عني، فعلت ذلك مراراً فجلست ولم أكل شيئاً، فهم يأكلون، وإذا بإنسان يصيح: كيف يحل لكم أن تأكلوا من ثمرة بستانى بغير إذن، فإذا هم قد غلطوا بالبستان، فقلت لهم: ألم أقل لكم إن الورع من ورعه الله سبحانه؟

واعلم رحمك الله أن ورع الخصوص لا يفهمه إلا قليل فإن من جملة ورعهم تورعهم عن أن يسكنوا لغيره أو أن يملوا بالحب لغيره أو تمتد أطماعهم بالطمع في غير فضله وخيره.

ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع الوسائط والأسباب، وخلع الأنداد والأرباب. ومن ورعهم ورعهم عن الوقوف مع العادات، والاعتماد على الطاعات، والسكون إلى أنوار التنجليات.

ومن ورعهم ورعهم عن أن تفتنهم الدنيا أو توقفهم الآخرة، تورعوا عن الدنيا وفاء وعن الوقوف مع الآخرة صفاءً.

قال الشيخ عثمان بن عاشوراه: خرجت من بغداد أريد الموصل فأنا أسير وإذا بالدنيا قد عرضت عليّ: بعزها وجاهها ورفعتها ومراكبها وملابسها ومزيناتها ومشتهياتها، فأعرضت عنها، فعرضت على الجنة: بحورها وقصورها وأتعارها وثمارها فلم أشغل بها.

فقبل لي: يا عثمان لو وقفت مع الأولى لمحبتناك عن الثانية، ولو وقفت مع الثانية لمحبتناك عنا، فها نحن لك وقسطك من الدارين يأتيك.

وقال الشيخ عبد الرحمن المغربي - وكان مقيماً بشرقي الإسكندرية - حججت سنة من السنين، فلما قضيت الحج عزمتم على الرجوع إلى الإسكندرية، فإذا قائل يقول لي: إنك العام القابل عندنا، فقلت في نفسي: إذا كنت العام القابل ههنا فلا أعود إلى الإسكندرية، فخطر لي الذهاب إلى اليمن، فأتيت إلى «عدن» فأنا يوماً على ساحلها أمشي، وإذا أنا بالتجار قد أخرجوا بضائعهم ومتاجرهم، ثم نظرت فإذا رجل قد فرش سجادة على البحر، ومشى على الماء فقلت في نفسي: لم أصلح للدنيا ولا للآخرة، فإذا قائل يقول لي: من لا يصلح للدنيا ولا للآخرة يصلح لنا.

(٢) الحبس، هو الوقف - والمراد أنه يدق وتدًا في بناء الوقف.

وقال الشيخ أبو الحسن:

الورع نعم الطريق لمن عجل ميراثه وأجل ثوابه.

فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله، وعن الله، والقول بالله، والعمل لله وبالله، على البيّنة الواضحة والبصيرة الفائقة.

فهم في عموم أوقاتهم، وسائر أحوالهم لا يدبرون ولا يختارون ولا يريدون ولا يتفكرون ولا ينظرون ولا ينطقون ولا يبطشون ولا يمشون ولا يتحركون إلا بالله والله من حيث يعلمون، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فهم مجموعون في عين الجمع لا يتفرقون فيما هو أعلا، ولا فيما هو أدنى، وأما أدنى الأدنى: فالله يؤرّعهم عنه ثواباً لورعهم، مع الحفاظ لمنازلات الشرع عليهم، ومن لم يكن لعلمه وعمله ميراث فهو محجوب بدنياً أو مصروف بدعوى، وميراثه التعرّض لخلق، والاستكبار على مثله، والدلالة على الله بعلمه، فهذا هو الخسران المبين، والعياذ بالله العظيم من ذلك.

والأكياس يتورّعون عن هذا الورع، ويستعيزون بالله منه، ومن لم يزد بعلمه وعمله افتقاراً لربه، وتواضعاً لخلق، فهو هالك، فسبحان من قطع كثيراً من الصالحين بصلاحهم عن مصلحتهم كما قطع كثيراً من المفسدين بفسادهم عن موجدتهم، فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم.

فانظر فهمك الله سبيل أوليائه، ومن عليك بمتابعة أحبائه هذا الورع الذي ذكر الشيخ رضي الله عنه: هل كان فهمك يصل إلى مثل هذا النوع من الورع؟ ألا ترى قوله: «فقد انتهى بهم الورع إلى الأخذ من الله وعن الله والقول بالله والعمل لله وبالله على البيّنة الواضحة والبصيرة الفائقة».

فهذا هو ورع الأبدال والصديقين لا ورع المتنطعين الذي ينشأ عنه سوء الظنّ وغلبة الوهم. وأما رفع همته فكان آتياً من ذلك بالعجب العجائب، وقد تقدم من رفع همته عن ولاية الأمر مع استعراضهم لحوائجهم وتطارحهم عليه.

وقال رضي الله عنه يوماً لأصحابه: جاءني اليوم الطواشي بهاء الدين وهو مشدّد الدواوين إذ ذاك والفقير شمس الدين الخطيب - وهو يومئذ ناظر الأحباس (٣) - فقالا لي: إن هذه القلعة تحتاج إلى حصر وزيت، وقناديل، ويحتاج الفقراء فيها ما يأكلون ونحن حكام الوقت نطلق لها شيئاً في كل شهر.

قال: فقلت لهم: حتى أشاور أصحابي، وأنتم أصحابي فماذا تشيرون؟

فلم يرجع إليه أحد جواباً، فأعاد الأمر مراراً فلم يجبه أحد.

فقال: اللهم اغننا عنهم، ولا تغننا بهم إنك على كل شيء قدير، ولم يجبههم إلى ما ذكروا، ومات الشيخ رضي الله عنه، وليس للمكان مرتب ولا معلوم.

وسمعه رضي الله عنه يقول: والله ما رأيت العزّ إلا في رفع الهمة عن الخلق.

وسمعه يقول: رأيت كلباً في المحجة، ومعنى شيء من الخبز فوضعت بين يديه، فلم يلتفت إليه.

فقرّبته من فيه فلم يلتفت إليه، فإذا قائل يقول لى: أف لمن يكون الكلب أزهد منه. وسمعتة يقول: خرجت يوماً أشتري حاجة من بعض من يعرفنى بنصف درهم، فقلت فى نفسى: ولعلّه لا يأخذ منى، فإذا قائل يقول لى: السلامة فى الدين بترك الطمع فى المخلوقين. قال: فأتيت إلى الموضع الذى كنت مقبلاً به، ودخلت وأغلقت الباب، فأنا جالس، وإنسان قد فتح الباب بمرة^(٤)، وقال: بماذا تكون السلامة فى الدين؟

قال: فقلت: بترك الطمع فى المخلوقين، فأخذها كأنما كانت ضالّة وجدها، فخبين من حاله أن الشيخ أبا الحسن كان قد قال له: اذهب إلى موضع الغلة، فاكتل لك ثلاث وبيات، فذهب فاكتل لنفسه إردباً، فبلغ ذلك الشيخ فقال: دعوا ما اكتاله فى موضعه، وأعطوه ثلاث وبيات التى كنّا أعطيناه إياها.

وقال رضى الله عنه: الطمع ثلاثة أحرف، كلها بخوفة فهو بطن كله؛ فذلك صاحبه لا يشيع أبداً.

وكان يقول رحمه الله: للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى قال الله سبحانه: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾^(٥)، تنبيه وإعلام:

اعلم أن رفع الهمة عن الخلق شأن أهل الطريق، وصفة أهل التحقيق، ولقد سئل الجنيد: أيرى العارف؟ فقال: وكان أمر الله قدراً مقدوراً، ولعمري لو سئل: أيطمع العارف فى غير الله؟ لقال: لا، وإنما مراد الحق سبحانه أن يعبد العباد فى كل شىء حباً وثقةً، وتوكلأً وخوفاً ورجاءً، وذلك الذى تستحقه فرديته.

وكان بعض العارفين يتشد:

حرام على من وحّد الله ربّه	وأفردّه أن يجتدى ^(٦) أحداً رفداً
ويا صاحبي قف لى مع الحق وقفة	أموت بها وجداً وأحيى بها وجداً
وقل للملوك الأرض تجهد جهدها	فذا الملك ملك لا يباع ولا يئدى

ورفع الهمة إنما ينشأ عن صدق الثقة بالله.

وصدق الثقة بالله إنما ينشأ عن الإيمان بالله على سبيل المعاينة والمواجهة، فيوجب لهم إيمانهم الإعرار بالله، قال الله سبحانه:

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾^(٧).

والنصر من عند الله، قال سبحانه:

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾^(٨).

(٧) المنافقون: ٨.

(٨) الروم: ٤٧.

(٤) مرة بكسر الميم أى قوة.

(٥) الأعراف: ٩٦.

(٦) يجتدى: يطلب العطاء.

والنِجاة من العوارض الصّادة عن الله قال سبحانه:

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٩).

فَعَزَّ الْمُؤْمِنَ بِاللَّهِ ثِقَتَهُ بِمَوْلَاهُ، وَنَصَرَتْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَهَوَاهُ، وَنَجَاتَهُ مِنَ الْعَوَارِضِ أَنْ تَقْطَعَهُ عَنْ سَبِيلِ هِدَاةٍ.

وشعار أهل الإرادة وديارهم الاكتفاء بالله، ورفع الهمة عما سواه، وصيانة ملابس الإيمان من أن تَدَسَّسَ بِالْمِيلِ إِلَى الْأَكْوَانِ، وَالطَّمَعِ فِي غَيْرِ الْمَلِكِ الْمُنَّانِ.

ولنا في هذا المعنى:

بكرت تلوم على زمان أجحفا	فصدفت (١٠) عنها علها أن تصدفا
لا تكثري عتبا لدهرك إنه	ما أن يطالب بالوفاء ولا الصفا
ما ضرتني أن كنت فيه خاملاً	فالبدر بدر إن تبتدي أو خفي
الله يعلم أنسى ذو همسة	تأبى الدنيا عفة وتطرفا
لم لا أصون على الورى ديباجتي	وأرهم عسر الملوك وأشرفا
أأرهم أنى الفقير إليهم	وجميعهم لا يستطيع تصرفا
أم كيف أسأل رزقه من خلقه	هذا - لعمرى إن فعلت - هو الجفا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله	عجز أقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذى إحسانه	عم السريرة منة وتعطفنا
والجأ إليه تحبده فيما ترنجي	لا تعد عن أبوابه متصرفنا

والذى يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله: علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلا وقد كفاك، ومنحك وأعطاك، ولم يبق لك حاجة عند غيره، وإذا كان قد اقتضى لهم الفهم عن الله أن يكتبوا بعلمه عن مسألته، فكيف لا يوجب لهم الفهم عن الله الاكتفاء بعلمه عن سؤال خلقه؟ ومن فاتحه الحق سبحانه بشيء مما فاتح به أحبائه فقد اقتضى منه رفع همه إليه كما اقتضاه من غيره وأولى.

ألم تسمع قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ. لَا تَحْذَرُنَّ عَيْنَيْكَ﴾ (١١) الآية. وكيف لا تكون منته فيك ومواهبه وقوانح عنايته وخصائص ولايته، ناهية لك عن التعلق بغيره؟

وكان بعض العارفين ينشد:

أبعد نفوذى فى علوم الحقائق	وبعد انبساطى فى مواهب خالقى
وفى حين إشرافى على ملكوته	أرى باسطاً كفا إلى غير رازقى؟

(١٠) صدفت: أى ألغضت.

(٩) يونس: ١٠٢.

(١١) الحجر: ٨٧، ٨٨ - وقام الآتين: ﴿لَا تَحْذَرُنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ، وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ، وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإن كل ذى رتبة من المخلوقين لا يرضى منك أن تنسب له رتبة تضيف المنع والعطاء والولاية والعزل فيها لغيره؟

فاحذر أن تكون من الذين قال الله سبحانه فيهم:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ (١٢).

وقبيح أن تكون في دار ضيافته وتوجّه وجه طمعك لغيره.

ولنا في هذا المعنى:

أحسن بي أفي نزيل ذراكم (١٣) أرحه يوماً للعباد رجسائيا
بلى إنسى السوى إليك أخلف فيها ما سواك ورائيا

ولا تطلب من هو بعيد عنك، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد.

ألم تسمع قول الله تعالى:

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ (١٤) الآية.

وقال سبحانه: ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ (١٥) الآية.

وقال سبحانه: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ (١٦).

وقال سبحانه: ﴿واسألوا الله من فضله﴾ (١٧).

وقال سبحانه: ﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه﴾ (١٨).

كل ذلك ليجمع هم عباده عليه، وكَيْلاً يرفعوا حوائجهم إلا إليه.

وأما حلمه رضى الله عنه فكان من شأنه أنه لا ينتقم لنفسه ولا ينتصر لها.

ولقد دخلت عليه يوماً فقال لي: ما تقول في فلان - رجل كان قد آذى الشيخ الأذى البالغ، أتى إلى أصحاب فلان بعض من كان له الأمر في ذلك الزمن، وكان يتردد إلى الشيخ وقالوا: يا سيدي هذا الرجل الذي آذاك نسعى في ضربه وإشهاره في البلدتين مصر والقاهرة فماذا تقول أنت؟ قلت: مصلحة.

فقال كالمنكر: لأى شيء؟ قلت ذاك حتى يُتشفى منه. قال: أنا ما أتشفى من أحد. قلت: إنما أردت الأتباع، قال: ولا نحمل أتباعي على التشفى. فأطرقت خجلاً فما توجّه أحد لنا بالأذى بعد ذلك، فتزلت به نازلة، فهتت النفس بالتشفى منه إلا وذكرت كلام الشيخ: «أنا ما أتشفى من أحد» حتى كأتى قد سمعته ذلك الوقت، فتخمدت النفس عن التشفى بذلك، واتفق بعد مدة نحو

(١٢) يوسف: ١٠٦.

(١٣) الذرى: الكنف والضيافة والستر والدفء.

(١٤) البقرة: ١٨٦ وقامها: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾.

(١٥) النساء: ٣٢.

(١٦) ق: ١٦.

(١٧) الحجر: ٢١.

(١٨) غافر: ٦٠.

خسة عشر عامًا أن الذي كان قد سعى في أذية الشيخ سعى في إذايتنا فاتفقت له نازلة فصانى الله من التشقى منه وسلم.

وكان الشيخ يقول: هذا الذى استشرتك فيه سيتفق لك معه مثل ما اتفق لى، فافعل معه كما فعلت معه، وهذا هو كلام الأكابر يطوى في صحائف قلوب المريدين، حتى إذا جاء وقته أظهره الحق سبحانه، كأنك قد سمعته في ذلك الوقت.

وربما أحضر الله بفكرك شبيخك الذى خاطبك به بهيته وزيه، وربما تمثل ذلك في الخيال المنفصل، وربما حضر بوجوده الحسى عند وجود التوازل مثبًا للمريد ومعلمًا.

وسمعه رضى الله عنه يقول: ما سمعتموه منى ففهمتموه فاستودعوه الله يرده عليكم وقت الحاجة، وما لم تفهموه فكلوه إلى الله يتولى الله بيانه.

فكلام الأكابر مردود على المريدين وقت حاجاتهم فيظن المريد أنه ما أخذ ولقد أخذ، ولكن للحكمة بذرونيات، ووقت البذر غير وقت النبات، وقد يبذر فيك بذر الحكمة ويبقى النبات موقوفًا على مجيء سحابة مطرة، فإذا جاءت أظهرت من الأرض ما كان فيها كامنًا، فتبقى الودائع مطوية في العباد حتى تجيء أوقاتها.

وبلغنى عن الشيخ أبى الحسن أنه كان يقول: لا حجاب إلا الوقت. وسمعه يومًا يقول: كان إذا آذى إنسان يهلك للوقت وأنا الآن لست كذلك. فرأى رضى الله عنه مستشرقًا لسبب ذلك، فقال: اتسعت المعرفة. وسمعه يقول: لحوم الأولياء مسمومة! واعلم علمك الله من العلم الذى يدل عليه، وجعلك من الدائمين بين يديه. أن انتصار الحق لأوليائه ليس ذلك لهم لأنهم طلبوه من الله، ولكن لما صدقوا التوكل عليه، وأرجعوا الأمر إليه انتصر الحق لهم، ألم تسمع قوله تعالى:

﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾.

وقوله عز وجل:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

ولا تقولن هم من ينتصر لنفسه منك، بل عدهم ممن ينتصر الله له، فإنه الغالب الذى لا يغلب، والقادر الذى لا يعجز، والقاهر الذى لا قبل لأهل السموات والأرض بلرة من بلاته، ولو وضع ذرات قهره على الجبال لأذايتها.

ومعنى قول الشيخ: «اتسعت المعرفة» أن المريد فى مبدأ إرادته بهيته، وفى نهايته بوجود معرفته، فإذا كان فى مبدأ إرادته توجهه بصدق الهمة إلى الله لاجئًا إليه فى الانتقام من آذاه فينتصر الحق له لتوجهه بصدق الهمة فى طلب النصرة، ولضيق عقله عن الصبر على تأخر الانتقام له، والعارف اتسع عليه بحر المعرفة، فانطوت همته وإشأته وتدبيره فى إشاعة الحق له، وتدبيره إياه. ومن غلب عليه شهود المشيئة فأبى همة تبقى له!

وأيضاً: إنه إذا أخرج عقوبة من آذاه شهد حسن اختيار مولاه، فلم يعجل له الانتصار؛ لأنه لا يخشى عليه ما يخشى على المريد من عدم الصبر إذا أخر الانتقام له. وأيضاً: إن العارف لما توجه لطلب الانتقام من ظلمه قامت الرأفة والرحمة القائمتان به لتخليقه بخلق معروف^(١٩)، فمنعاه من الانتصار وإن كان على ذلك قادراً، وكيف ينتصر من الخلق من يرى الله فعلاً فيهم؟

ثم أولياء الله إذا ظلموا على طيقات: داع يدعو على من ظلمه، استثار الأذى منه القرح، واستخرج منه الاضطراب، فهذا الذي لا يرد دعاؤه ومنه قوله ﷺ:

«واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(٢٠).

القسم الثاني: وهم الذين إذا ظلموا لجئوا إلى الله سبحانه في طلب النصرة وتعجيل الإجابة، غير أنهم علموا أن الله يعلم السر وأخفى فرفعوا أمرهم إلى الله سرّاً وسراً وهؤلاء أولى بانتصار الحق لهم لتوكلهم عليه، وإرجاعهم الأمر إليه، وقد قال الله سبحانه وتعالى:

﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾^(٢١).

ولقد ذكر أن امرأة كان لها دجاجة، ليس عندها غيرها، وكانت تنقوت من بيضها فجاء سارق فسرقتها، فلم تدع عليه، وأرجعت الأمر إلى الله سبحانه، فأخذ السارق الدجاجة فذبحها وتنف ريشها فنبت جميعه بوجهه، فسعى في إزالة ذلك فلم يستطع، وسأل الناس فلم يقدر أحد على إزالة ما نزل به، إلى أن أتى حبراً من أحبار بني إسرائيل، فقال: لا أجدر لك دواء إلا أن تدعو عليك المرأة التي سرقت دجاجتها، فإن فعلت ذلك شفيت.

فأرسل إليها من قال لها: أين دجاجتك التي كانت عندك؟

قالت: سرقت.

قالوا: لقد آذاك من سرقها.

قالت: قد فعل.

قالوا: وقد فجعك في بيضها.

قالت: هو كذلك.

فما زالوا بها حتى أثاروا الغضب منها، فدعت عليه، فتساقط الريش من وجهه.

ف قيل لذلك الحبر: من أين علمت هذا؟

قال: إنها لما سرقت دجاجتها لم تدع عليه، ورجعت إلى الله في أمره، فانتصر الله لها، فلما دعت

(١٩) أي لتخليقه بخلق الله سبحانه من الرحمة والرأفة.

(٢٠) روى أحمد والبخاري في الزكاة والجهاد والمظالم والمغازي، ومسلم في الإيمان، وأبو داود في الزكاة، والترمذي في الزكاة، والنسائي في الزكاة، وابن ماجه في الزكاة، والداودي في الزكاة.

(٢١) الطلاق: ٣.

انتصرت لنفسها، فسقط الريش من وجه السارق.

القسم الثالث: عباد لما ظلموا لم يدعوا ولم يلجئوا إلى الله في طلب الانتقام من ظلمهم، ولكن فوضوا الأمر إلى الله، فكان هو المختار لهم.

القسم الرابع: وهم الطبقة العليا وهم الذين إذا ظلموا رحموا من ظلمهم.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه.

وإذا آذاك ظالم فعليك بالصبر والاحتمال، واحذر أن تظلم نفسك فيجتمع عليك ظلمان، ظلم غيرك لك، وظلمك لنفسك؟

فإذا فعلت ما ألزمت به من الصبر والاحتمال أنايك سمة الصدر حتى تغفو وتصفح، وربما أنايك من نور الرضا ما ترحم به من ظلمك فتدعو له، فتجيب فيه دعوتك.

وما أحسن حالك إذا رُحم بك من ظلمك، فتلک درجة الصديقين الرحماء: ﴿فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ (٢٢).

ومن هذا القليل الذى ذكره الشيخ أبو الحسن: ما اتفق لإبراهيم بن أدهم - رضى الله عنه - أنه قال له جندى: أين العمران؟ فأشار إلى المقابر، فظن أنه يهزأ به، فضربه فشجه، فطأ رأسه، وقال: اضرب رأساً طال ما عصت الله تعالى.

ف قيل للجندى: هذا إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان، فأنكب على رجليه يقبلها، ويعتذر إليه، فقال له إبراهيم بن أدهم: والله مارفعت يدك من ضربي إلا وأنا أسأل الله لك المغفرة لأنى علمت أن الله يثيبني على ما فعلت بى، ويؤاخذك على ما فعلت: فاستحييت أن يكون حظى منك الخير وحظك منى الشر.

فقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه: ليس هذا عين الكمال، ما فعله الصحابي سعد أحد العشرة وهو عين الكمال، ادعت عليه امرأة أنه احتاز شيئاً من بستانها، فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعمرها وأمتهأ في مكانها، فعميت وجاءت يوماً تمشى في بستانها، ف وقعت في بئر فماتت، فلو كان ما فعله إبراهيم عين الكمال لكان الصحابي أولى به ولكنه كان سعد أميناً من أمناء الله، نفسه ونفس غيره عنده سواء، فما دعا عليها لأنها آذته، ولكن دعا عليها لأنها آذت صاحب رسول الله ﷺ، وإبراهيم لم يصل إلى هذه المرتبة، فترك الدعاء على الجندى لئلا يكون ذلك انتصاراً لنفسه، وسعد رضى الله عنه قد خلع الله من نفسه وأبرزه إلى الخلق، يخلص به من يشاء من عباده، والصوفي لا يستغنى الحق لنفسه ولكن يستغنى الحق لربه.

فائدة:

اعلم أن أولياء الله تعالى حكمهم في بداياتهم أن تسلط الخلق عليهم ليظهروا من البقايا، وتتكمّل فيها المزايأ، وكيلا يساكنوا الخلق باعتماد، أو يميلوا إليهم باستناد ومن آذاك فقد أعتقك من رقى إحسانه، ومن أحسن إليك فقد استرقك بوجود امتنانه، ولذلك قال رسول الله ﷺ: جُبلت

القلوب على حب من أحسن إليها.
وقال ﷺ: من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تقدروا فادعوا (٢٣) له. كل ذلك ليتخلص القلب من إحسان الخلق، ويتعلق بالملك الحق.
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

أهرب من خير الناس أكثر مما تهرب من شرهم، فإن خيرهم يصيبك في قلبك، وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير لك من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى الله، خير لك من حبيب يقطعك عن الله، وعد إقبالهم عليك ليلاً وإعراضهم عنك نهاراً ألا تراهم إذا أقبلوا فتنوا؟ وتسليط الخلق على أولياء الله في مبدأ طريقهم سنة الله في أجياله وأصفيائه، ولذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: اللهم إن القوم قد حكمت عليهم بالذل حتى عزوا، وحكمت عليهم بالفقد حتى وجدوا، فكل عز يمنع دونك فنسألك بدله ذلاً تصحبه لطائف رحمتك، وكل وجد يجلب عنك فنسألك عوضه فقد تصحبه أنوار محبتك.

وبما بذلك على أن هذه سنة الله في أحيائه وأصفيائه قول الله سبحانه: ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (٢٤)، وقال عز وجل: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْشَسَ الرِّسْلَ وَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ (٢٥).
وقوله عز وجل:

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَتُكِنُّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ (٢٦)، وقوله عز وجل:

﴿أُذِّنُ لِلَّذِينَ يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ ديارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ (٢٧).

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى.
فمن حالهم في بداياتهم طأطأ إبراهيم بن أدهم حين ضربه الجندي وقال: اضرب رأساً طال ما عصت الله تعالى.

وقوله: فرحت من عمرى مرتين.
مرة كنت في مسجد فأصابني البطن فكنت أقوم وأقعد، فجاء صاحب المسجد وأمرني أن أخرج فلم أستطيع لقوة الضعف، فأخذ برجلي يجرني حتى أخرجني؟؟
والمرة الثانية: ركبنا في سفينة وكان هناك مضحك، فكان يقول: كنا نأخذ العليج في بلاد الروم

(٢٣) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح بنحوه.

(٢٤) البقرة: ٢١٤.

(٢٥) يوسف: ١١٠.

(٢٦) القصص: ٥.

(٢٧) الحج، ٣٩، ٤٠.

هكذا ويمد يده إلى الحقي فيهبزها فأعجبني ذلك إذ لم ير في السفينة من هو أحقر مني. وهذا شأنهم في بداياتهم علما منهم بوجود البقايا فيهم فخافوا أن ينتصروا فينتصروا لأنفسهم، فيسقطون من عين الله تعالى، فرجعوا إلى وجود الخلق كافين أيديهم عن الانتصار؛ لعلمهم بأفات الانتصار للنفس، وشرعة الحق سبحانه وعادته في أصفياه كثرة الأعداء والنصرة منه لهم عليهم. قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه:

أذاني إنسان مرة فضقت ذرعا بذلك فتمت فرأيت قائلا يقول لي: «من علامة الصديقية كثرة أعدائها ثم لا يبالي بهم».

ويجب أن تعلم أن النفوس شأنها استحلاء الإقامة في مواطن العز والرفعة، فلو تركها الحق سبحانه وما تريد لهلك، فأزعجها عن ذلك بما يسلط عليهم من أذى المؤذين ومعارضة الحاسدين. وقال بعض العارفين: الصيحة من العدو سوط الله يضرب به القلوب، إذا ساكت غيره، لولا ذلك لرقد القلب في ظل العز والجاء، وهو حجاب عن الله عظيم. وصدق رضي الله عنه.

وهذا الصنع من حسن نظر الله تعالى لأوليائه وأحبابه، وإظهار لأثار ولايته فيهم لقوله عز وجل: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

فلما تمت أنوارهم وتطهرت من البقايا أسرارهم حكمهم في العباد، فحينئذ يكون العبد المجتبي سيفا من سيوف الله تعالى ينتصر الله به لنفسه.

من هذا الباب دعا سعد على المرأة التي ادعت عليه كذبا وقال: اللهم أعم بصرها وأمتها في مكانها، فاستجيب له، ولما دخل على عثمان بن عفان رضي الله عنه الدار لطم إنسان وجه زوجته، فقال له عثمان رضي الله عنه: قطع الله يديك ورجليك وأدخلك في النار.

فرئى ذلك الرجل بالشام وقد قطعت يده ورجلاه، وهو يقول: دعوة عثمان استجيبت في اثنتين. وبقيت الثالثة، ولذلك قد تلبس أحوال الرجال على عموم العباد فلا تفضل وليا ظلم فصفح على ولي ظلم فانتصر أو دعاء فقد يكون صفح من صفح لعلمه بالبقايا في نفسه، ودعاء الداعي لعلمه بتطهيره من البقايا فدعا انتصارا لربه.

وأما صبره، فكان رضي الله عنه من الثابتين في مركز الصبر، وكان به أمراض عديدة لو وضع بعضها على الجبال لذهبت؛ كان به برد الكلى، وكان به الحصى، وكان به اثنا عشر ياسورا وهو يجلس للناس، ولا يقطع الجلوس لهم ولا يتأوه في حين جلوسه، ولا يعلم الجالس عنده أن به شيئا من الأمراض، ولم تكن الأمراض أورثته صفرة في الوجه، ولا تغيرا في البدن حتى كان يقول: لا تنظروا إلى حمرة وجهي فحمرة وجهي من قلبي.

ودخل عليه إنسان فوجد ألما به، فقال ذلك الرجل: عافاك الله يا سيدي، فسكت الشيخ رضي الله عنه ولم يجاوبه، ثم مكث ذلك الرجل ساعة، وقال: الله يعافيك يا سيدي. فقال الشيخ: وأنا سألت الله العافية، أنا قد سألت العافية والذي أنا فيه هو عين العافية.

رسول الله ﷺ قد سأل العافية، وقد قال رسول الله ﷺ: ما زالت أكلة خيبر تعنادني فالآن قد قطعت أبهرى (٢٨).

عمر رضى الله عنه قد سأل الله تعالى العافية وبعد ذلك مات مطعونا.
عثمان رضى الله عنه قد سأل الله العافية وبعد ذلك مات مذبحا.
على رضى الله عنه سأل الله العافية وبعد ذلك مات مقتولا.
فلذا سألت الله العافية فاسأله العافية من حيث يعلمها لك إنها عافية.
وكان رضى الله عنه يقول: الصبر مشتق من الأصبار، وهو الغرض الذى يرمى عليه بالسهام،
فالأصابر من نصب نفسه مغرضا لسهام القضاء.
وكان هجيراه يسأل الله اللطف قل أن يفتر عن ذكر ذلك.
ودخلت عليه يوما فوجدت ألما به فقلت: يا سيدى أظنك ضعيفا فقال رضى الله عنه: الضعيف
من لا إيمان له ولا تقوى.
واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام:

صبر على الواجبات، وصبر على المحرمات، وصبر فى البليات.
وصبر الأكابر على كتم الأسرار، وفقد الركون إلى الآثار، وعدم الوقوف مع الأنوار.
صبرهم على حمل الأذى، والثبوت تحت مجارى القضاء.
صبرهم على حمل أثقال العباد، والصبر مع الله فيما أراد.
صبرهم على القيام بأحكام العبودية، والثبوت لمجارى أحكام الربوبية.
صبرهم على مكارم الأخلاق؛ والقيام مع الله بشرط الوفاق.
صبرهم على جمع اللهم عليه، والرجوع فى كل أمرهم إليه.
صبرهم على الجلوس للخلق، والدلالة على الملك الحق.
وكان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: والله ما جلست للخلق حتى هُددت بالسلب.
وقيل لى: لئن لم تجلس للناس لنسليتك ما وهبتك.

وأما سداد طريقته، فكان رضى الله عنه شديد التحرز من حقوق العباد، مسرعا للوفاء بها حتى
أنه يوفى الشيء قبل استحقاقه، ويحمل أصحابه على التخلص من حقوق العباد.
إذا كان عليه دين أحسن القضاء، وإذا كان له حق أحسن الاقتضاء، منقطعاً عن أبناء الدنيا
والتردد إليهم، لا يرفع قدمه لأحد منهم، ولا يبعث إليهم، ولا يكاتبهم إذا طلب منه أن يكتب
إليهم، قال الطالب ذلك: أنا أطلب لك ذلك من الله، فإن رضى الطالب بذلك نجح مسعاه، ولطف به

(٢٨) الأبر: عرق فى الظهر، يقال هو الوريد فى العنق، وقال أبو عبيد: «الأبر: عرق مستبطن فى الصلب، والقلب متصل به فإذا انقطع لم تكن معه حياة» اهـ.

مولاه متبتلاً إلى الجلوس للخلق، لا تأتيه ليلاً ولا نهاراً إلا وجدته.
ولقد أتيت يوماً واستأذنت عليه، فقيل لي: اصبر قليلاً، فنشوت من ذلك، وقلت: قد يكون بلغ الشيخ عني ما أوجب تغييره.

فبعد ساعة أذن لي فدخلت، فقال الشيخ رضي الله عنه: اعذرني، كانت ابنة الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه عندي فكرهت أن أقطع كلامها، والله ما أعد نفسي إلا خادماً من خدامهم! وكان ينهى أن يُعوق المرید إذا جاءه ويقول: المرید يأتي بشعلة هتة، فإذا قيل له: قف ساعة؛ طُفئت ما جاء به.

وكان لا يدل المرید على المتاعب والمشقات ولا يلزمه ذلك.
وكان يقول عن شيخه أبي الحسن: ليس الرجل من ذلك على تعبك، إنما الرجل من ذلك على راحتك.

ومنى طريقته رضي الله عنه على الجمع على الله، وعدم التفرقة؛ وملازمة الخلوة والذكر.
ولكل مرید معه سبيل يحمل كل واحد على السبيل التي تصلح له.
وكان لا يحب المرید الذي لا سبب له.

وكان يدل المریدین على الانجماع في حبه، ولا يلزم المرید أن لا يرى غيره.
وكان يقول عن شيخه رضي الله عنه: أصحابي ولا أمتعكم أن تصحبوا غيري، فإن وجدتم منيلاً أعذب من هذا المنهل فردوا.

وكان إذا دخل المرید في أوراد بنفسه وهواه أخرجه عنها.
وكان إذا مدح بقصيدة أو أبيات يميز المادح بإقباله، وربما واجهه بنواله. وكان مكرماً للفقهاء، ولأهل العلم وطلبته، إذا جاءوه!

وكان يقول لأصحابه إذا جاء رئيس أو ذو وجهة: عرّفوني به.
وكان أزهد الناس في ولاية الأمور، فإذا جاءوه أكرمهم وربما مشى لهم خطوات.
وكان شديد التعظيم لشيخه أبي الحسن رضي الله عنه، حتى إنك كنت تشهد منه أنه لا ثبات منه لنفسه معه.

وكان ينشد إذا ذكر الشيخ رضي الله عنه هذه الأبيات:
لي سادة من عزهم أقدامهم فسوق الجباب
إن لم أكس منهم فلي في حبهم عز وجساه
وكان من شأنه أن ما عني به لا يأكله.
وكان يكره أن يعلم بطعام أو هدية قبل إتيانها.
وكان لا يدعو للمحسن بحضرته، بل إذا غاب دعا له بظهور الغيب.

وكان إذا أهدى له شيء يسير تلقاه ببشاشة وقبول، وإذا أهدى إليه شيء كثير تلقاه بالعز.
وكان لا يمين على مريد ولا يرفع له علماً بين إخوانه خشيةً عليه أن يُجسد.

وكانت صلاته موجزة في تمام، وكان يقول: صلاة الأبدال خفيفة.

وكان إذا تلا تقول الكون كله مستمع له، وصلى قيام رمضان سنة، فقال: قرأت القرآن في هذه السنة، كأنما أقرؤه على رسول الله ﷺ، ثم جاء رمضان الثاني، فقال: قرأته في هذه السنة، كأنما أقرؤه على جبريل عليه السلام، ثم جاءت السنة الثالثة فقال: قرأته في هذه السنة كأنما أقرؤه على الله عز وجل.

وكان إذا كانت ليلة القدر أخبر بها أصحابه، ودعا فيها بمقدار ما يدعو كل ليلة ثلاث مرات.
وكان يقول: أوقاتنا كلها والحمد لله ليلة قدر (٢٩).

وأنشدنا بعض إخواننا لبعض أهل الطريق في المعنى:

لولا شهود جمالكم في ذاتي ما كنت أرضى ساعة بحياتي
ما ليلة القدر المعظم شأنها إلا إذا عَمَسَتْ بكم أوقاسي
إن المحب إذا تمكَّن في الهوى والحب لم يخرج إلى ميعات

وجاء الفقيه مكي الدين الأسمر رضى الله عنه سنة، فقال له: يا سيدى رأيت ليلة القدر، ولكن ليس كما أراها كل سنة، رأيتها هذه السنة لا نور لها. فقال له الشيخ رضى الله عنه: نورك طمس نورها يا مكي الدين.

(٢٩) كانت هناك محاولات طريفة من بعض العلماء والصالحين لتحديد ليلة القدر، فمثلاً قال بعضهم: إن عدد كلمات سورة القدر ثلاثون كلمة كعدد أيام رمضان، وكلمة «هى» التى تشير إلى ليلة القدر فى قوله تعالى فى السورة نفسها «سلام هى» هذه الكلمة تمام سبعة وعشرين. هذه محاولة.
ومحاولة أخرى هى:

إن حروف ليلة القدر تسعة حروف، وقد ذكرت ليلة القدر فى السورة ثلاث مرات، وثلاث فى تسع وسبع وعشرين.
أما الشيخ أحمد زروق رضى الله تعالى عنه فإنه يقول فيها:
إنها لا تفارق جمعة من أوتار آخر الشهر، وقد روى هذا أيضاً عن ابن العربي. هذه محاولات أما الثابت الميقن فهو: أن القرآن لم يعينها تعيناً واضحاً، وأن الرسول ﷺ لم يحددنا تحديداً تاماً.
ولقد قال أسلافنا رضى الله عنهم:
أخفى الرب أموراً فى أمور ملحكم:

ليلة القدر فى الليلى لتحى جميعها - وساعة الإجابة فى الجمعة ليدع فى جميعها، والصلاة الوسطى فى الصلوات ليحافظ على الكل - والاسم الأعظم فى أسمائه ليدعى بالجميع، ورضاه فى طاعته ليعرض العيد على جميع الطاعات، وغضبه فى معاصيه. ليتزجر عن الكل، والولى فى المؤمنين ليحسن الظن بكل منهم، ويهيئ الساعة فى الأوقات للخوف منها دائماً. وأجل الإنسان عنه ليكون دائماً على أهبة.

ويعقب الشيخ أحمد الصاوى على ذلك فى حاشيته على الجلالين فيقول:

«فعلى هذا يحصل ثوابها لمن قامها، ولو لم يعلمها، نعم، العالم بها أكمل. هذا الأظهر».

ولقد رأينا فى عصرنا الحاضر عن تجربة أكثر من واحد يعلمون ليلة القدر، بعضهم يعلمها قبل إتيانها، وبعضهم يعلمها فى ليلتها، وفضل الله أوسع من ذلك وأعظم.

ولقد كنت مع الشيخ مكيين الدين هذا بالجامع الغربي من الإسكندرية في العشر الأواخر من رمضان ليلة ست وعشرين، فقال الشيخ مكيين الدين: أنا الساعة أرى ملائكة صاعدة وهابطة في تهينة وتعيية، رأيت تأهب أهل العرس بليلة قبله؟ كذلك رأيتهم فلما كانت الليلة الثانية، وهي ليلة سبع وعشرين، وكانت ليلة جمعة، قال: أنا الساعة أرى ملائكة معها أطباق من نور، الطبق يوازي مثانة الجامع، وفوق ذلك ودون ذلك، وهذه هي ليلة القدر، فلما كانت الليلة الثالثة، وهي ليلة ثامن وعشرين، قال: رأيت هذه الليلة كالمثيظة وهي تقول: هب أن ليلة القدر حقاً يُرعى، أما لي حق يرعى؟

وكان الشيخ مكيين الدين - رضى الله عنه - من أرباب البصائر ومن النافذين إلى الله عز وجل، كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه يقول عنه: بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور أسمر اللون، أبيض القلب، والله إنه ليكاشفى، وأنا مع أهلي، وعلى فراشي، ومرة أخرى قال الشيخ أبو الحسن أيضاً فيه: ما سلكت غيباً من غيوب الله إلا وعمايته تحت قدمي.

ولقد أخبرني الشيخ مكيين الدين هذا، قال: دخلت مسجد النبي ﷺ بالإسكندرية (٣٠) «بالديماس» فوجدت النبي المدفون هناك قائماً يصلي، عليه عباءة معططة، فقال لي: تقدم فصل. فقلت له: تقدم أنت وصل. قال: تقدم أنت وصل، فإنكم من أمة نبي لا ينبغي لنا التقدم عليه. قال: فقلت له: بحق هذا النبي إلا ما تقدمت فصليت.

قال: فأنا أقول: بحق هذا النب إلا وهو قد وضع قدمه على فمي إجلالا للفظه النبي كيلا يبرز في الهواء. قال: فتقدمت فصليت.

وأخبرني الشيخ مكيين الأسمر أيضاً، قال: بت بالقرافة ليلة الجمعة، فلما قام الزوار قيمت معهم وهم يتلون إلى أن انتهوا في التلاوة إلى سورة يوسف عليه السلام، ومنها إلى قوله عز وجل: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ﴾ وانتهوا في الزيارة إلى قبور إخوة يوسف، فرأيت القبر قد انشق وطلع منه إنسان طويل، خفيف شعر اللحية صغير الرأس آدم اللون، وهو يقول: من أخبركم بقصتنا؟ هكذا كانت قصتنا.

ولقد كنت يوماً مضطجعاً وأنا ساكن مطمئن وأجد في قلبي انزعاجاً على بغته وباعثاً يبعثني على الاجتماع بالشيخ مكيين الدين الأسمر رضى الله عنه، فقممت مسرعاً فدققت الباب فخرج، فلما وقع بصره علي قال: أنت ما تهجيء حتى تسير الناس خلفك، وتبسم قلت: يا سيدي قد جئت، فدخل وأخرج لي وعاء، وقال: هذا الوعاء اذهب به إلى الشيخ أبي العباس وقل له: قد كتبت فيه آيات من القرآن ومحوتها بماء زمزم وشيء من العسل، فذهبت بذلك للشيخ أبي العباس رضى الله عنه فقال: ما هذا؟ قلت أرسله إليكم الفقيه مكيين الدين الأسمر، فأدلى فيه إصبعاً واحداً وقال: هذا

(٣٠) هو نبي الله «دانيال» من أنبياء بني إسرائيل.

بحسب البركة وفرغ الوعاء وملاه غسلًا، وقال اذهب به إلى الفقيه. فذهبت بذلك إليه ثم عدت إليه بعد ذلك فقال لي: رأيت البارحة ملائكة أتوني بأوعية من زجاج مملوءة شرابًا وهم يقولون خذ هذا عوض ما أهديت للشيخ أبي العباس رضي الله عنهم أجمعين.

وكان الشيخ أبو العباس رضي الله عنه كثير الرجاء لعباد الله، الغالب عليه شهود وسع الرحمة. وكان رضي الله عنه يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله حتى إنه ربما دخل عليه مطيعٌ فلا يهتبل (٣١) به وربما دخل عليه عاصٍ فأكرمه، لأن ذلك الطائع أتى وهو متكبرٌ بعمله ناظرٌ لفعله، وذلك العاصي دخل عليه يكسر معصيته وذلة مخالفته (٣٢).

وكان شديد الكراهة للوسواس في الطهارة والصلاة، ويثقل عليه شهود من كان ذلك وصفه، سئل يومًا وأنا حاضر فقيل له: يا سيدي فلان صاحب علم وصلاح كثير الوسوسة فقال: وأين العلم والصلاح يا فلان؟ العلم هو الذي ينطبع في القلب كالبياض في الأبيض والسواد في الأسود.

(٣١) أي: لا يهتّم به.

(٣٢) ولابن عطاء الله في ذلك حكمة جلية يقولها فيها:
«معصية أورت ذلاً وافتقاراً، خير من طاعة أورت عزاً واستكباراً».

البَابُ الْخَامِسُ

فِي آيَاتِ مَنْ كَتَابَ اللَّهِ تَعَالَى
تَكَلَّمَ عَلَى تَبْيِينِ مَعْنَاهَا وَإِظْهَارِ فُحْوَاهَا

قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

قَالَ الشَّيْخُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عَلِمَ اللَّهُ عَجْزَ خَلْقِهِ مِنْ حَمْدِهِ، فَحَمْدُ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ فِي أَرْزَلِهِ، فَلَمَّا خَلَقَ الْخَلْقَ اقْتَضَى مِنْهُمْ أَنْ يَحْمَدُوهُ بِحَمْدِهِ، فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَيْ قُولُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، أَيْ الْحَمْدُ الَّذِي حَمْدُ بِهِ نَفْسُهُ بِنَفْسِهِ هُوَ لَهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ لغيرِهِ، فَعَلِيَ هَذَا تَكُونُ الْأَلْفُ وَاللَّامُ عَهْدَيْنِ.

وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢).

إِيَّاكَ نَعْبُدُ شَرِيعَةً، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ حَقِيقَةً.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ إِسْلَامًا، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ إِحْسَانًا.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ عِبَادَةً، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ عِبُودِيَّةً.

إِيَّاكَ نَعْبُدُ قَرَقًا، وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ جَمْعًا.

وَاعْلَمْ رَحِمَكَ اللَّهُ بِإِقْبَالِهِ عَلَيْكَ بَوَدِّهِ، وَجَعَلَكَ مِنَ الرَّاعِينَ لِعَهْدِهِ، أَنْ اللَّهُ سُبْحَانَهُ طَلَبَ مِنَ الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَاقْتَضَى مِنْهُمْ أَنْ يَسْجُلُوا بِذَلِكَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ نَطْقًا كَمَا قَامُوا بِهِ عِلْمًا. وَاقْتَضَى مِنْهُمْ أَنْ يَفْرُدُوهُ.

وَاقْتَضَى مِنْهُمْ أَنْ تَنْتَظِمَ الْعِبَادَةُ جَمِيعَ جَوَارِحِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَحَقَائِقِ وَجُودَاتِهِمُ الْبَاطِنَةِ. وَاقْتَضَى مِنْهُمْ الرَّجْعِيَّ إِلَيْهِ مِنْ دَعْوَى الْقِيُومِيَّةِ فِي الْعِبَادَةِ التَّيَرَى مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ. فَلَمَّا قَامَ الْعَبْدُ لِلَّهِ بِالْعِبَادَةِ عَمَلًا، اقْتَضَى الْحَقُّ أَنْ يَعْتَرِفَ بِهَا نَطْقًا: لِيَكُونَ ذَلِكَ مَعَاهِدَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى إِذَا انْفَلَتَتْ نَفْسُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِالْعِبَادَةِ وَثَقُلَتْ عَلَيْهَا مَلَامَةُ التَّكْلِيفِ، قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَى الْعَبْدِ بِمَا أَعْطَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِالْعِبَادَةِ لَهُ وَأَنَّهُ لَا يَعْبُدُ غَيْرَهُ لِقَوْلِهِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَاقْتَضَى مِنَ الْعِبَادِ أَنْ تَسْتَوْعِبَ الْعِبَادَةُ جَمِيعَ جَوَارِحِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَعَوَالِمِهِمُ الْبَاطِنَةِ بِإِتْيَانِهِ بِالصُّيُغَةِ هَكَذَا: ﴿نَعْبُدُ﴾ وَإِعْرَاضِهِ عَنِ التَّعْبِيرِ بِالْهَمْزَةِ الْمَفْرُودَةِ بِالتَّكْلِمِ لِأَنَّ التَّوْنُ إِنَّمَا تَكُونُ لِلوَاحِدِ الْمُعْظَمِ نَفْسُهُ، أَوِ الْعَظِيمِ فِي نَفْسِهِ، وَلَيْسَ هَذَا مَوْضِعَ هَذَيْنِ الْحَيْنَيْنِ؛ إِذَا الْعَبْدُ لَا يَبْتَدِئُ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ يَوْصِفُ

(١) الفاتحة: ٢.

(٢) الفاتحة: ٥.

عظيمة، فلم يبق إلا أن يكون للواحد ومعه غيره، وذلك ما أشرنا إليه من الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة.

وإما أنه اقتضى منهم الرجعى إليه من دعوى القيومية في العبادة لأنه لما قال: ﴿إياك نعبد﴾ فأضاف العبادة إليهم، واقتضى منهم أن يعترفوا بذلك قياماً بدائرة الفرق التي عليها يترتب التكليف، أردف ذلك بقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ كيلا يدعى العباد معه أنهم قاموا بالعبادة بأنفسهم فأراد منه أن يوفقوا الحقيقة حقها والشرعية حقها؛ فلذلك جمع بين الأمرين: القيام بالعبادة لرؤيته، والتبرى من الحول والقوة مع إلهيته.

ثم قال سبحانه وتعالى:

﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ (١٣).

فقال الشيخ رضى الله عنه: بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل. وهذا الجواب ذكره ابن عطية في تفسيره وبسطه الشيخ رضى الله عنه فقال: عموم المؤمنين يقولون: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ أى: بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم التوحيد وفاتهم درجات الصالحين.

والصالحون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم، معناه نسألك الثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم الصلاح وفاتهم درجات الشهداء.

والشهداء يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل فإنهم حصل لهم درجات الشهداء وفاتهم درجات الصديقية.

والصديقون يقولون: اهدنا الصراط المستقيم أى بالثبوت فيما هو حاصل والإرشاد لما ليس بحاصل، فإنهم حصل لهم درجات الصديقية وفاتهم درجات القطبية.

والقطب يقول: اهدنا الصراط المستقيم، أى بالثبوت فيما هو حاصل، والإرشاد بما ليس بحاصل، فإنه قد حصل رتبة القطبانية وفاتهم علم إذا شاء الله أن يطلع عليه أطلعه. وقال في قوله عز وجل:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ (١٤).

كل موضع ذكر فيه المصلون في معرض المدح فإنما جاء لمن أقام الصلاة إنما بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال الله سبحانه:

﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾.

(١٣) الفاتحة: ٦.

(١٤) البقرة: ١٧٧.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ (٥).

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ (٦).

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ (٧).

﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ﴾ (٨).

﴿وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةَ﴾ (٩).

ولما ذكر المصلين بالغفلة قال:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ (١٠).

ولم يقل فويل للمقيميين الصلاة.

والإقامة هو أنه إذا صلى المؤمن صلاةً فتقبلت منه خلق الله من صلاته صورةً في ملكوته راقعةً ساجدةً إلى يوم القيامة وثواب ذلك لصاحب الصلاة (١١).

وقال في قوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ (١٢).

«بقرة كل إنسان نفسه، والله أمرك بذبحها» (١٣).

وقال في قوله عز وجل:

﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ (١٤).

قيل: إنما وقع التفصيل في العبارة تأديباً من الله لنا فأضاف المحاسن إليه وأضاف المساوئ إلينا وإن كان فعل العيد كله خلق الله تعالى: حسنه وسيئه. كما قال:

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ (١٥).

فأضاف ذلك إلى الله، وقال في السفينة:

﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ (١٦).

ولم يقل: فأراد ربك أن يعيبها أدباً في التعبير، كما قال إبراهيم عليه السلام:

(٥) إبراهيم: ٤٠.

(٦) الإسراء: ٧٨.

(٧) التوبة: ١٨.

(٨) الماعون: ٤، ٥.

(٩) طاهر: ٢٩.

(١٠) الحج: ٣٥.

(١١) إقامة الصلاة: أدائها، كما يحب الله ورسوله، وهو أن يتجرد فيها الله سبحانه وتعالى تجرداً كاملاً وانقطاعاً بين يديه مستشعراً عظمته وجلاله وجماله. وهذا النوع من الصلاة هو المأمور به، وهو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، وهو الذي يفرع إليه الإنسان إذا حزبه أمر أو حزبه شأن، كان يفعل الرسول ﷺ، فيبشّر الله الأمر ويقضى الحاجة.

(١٢) البقرة: ٦٧.

(١٣) إن أبا العباس رضى الله عنه يقول بالمعنى الأصلي للآية الكريمة: وباب الإشارات فيه متسع، ولا خير ما دام المعنى الأصلي يقرّه المفسر، ويشير المؤلف إلى ذلك بعد.

(١٤) النساء: ٧٩.

(١٥) الكهف: ٨٢.

(١٦) الكهف: ٧٩.

﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ (١٧).

فأضاف المرض لنفسه، والشقاء لله تعالى.

ومنهم من قال: إن ذلك داخل في مضمون القول، وإن هذا التفصيل حكاه الله عنهم، والتقدير: فما هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً في قوهم:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

ورد عليهم بقوله:

﴿قل كل من عند الله﴾.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ (١٨).

يولج المعصية في الطاعة ويولج الطاعة في المعصية (١٩)، يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ويعتمد عليها ويستصغر من لم يفعلها ويطلب من الله العوض عليها، فهذه حسنة أحاطت بها سيئات، ويذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ويعتذر منه ويستصغر نفسه ويعظم من لم يفعله، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات، فأبها الطاعة وأبها المعصية!؟

وقال رضى الله عنه: الفقى من كسر الأصنام، قال الله تعالى:

﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ (٢٠).

وقال رضى الله عنه في قوله عز وجل:

﴿أمن ينجب المضطر إذا دعاه﴾ (٢١).

الولى لا يزال مضطراً.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن العامة اضطرارهم بمثيرات الأسباب، فإذا زالت زال اضطرارهم، وذلك لغلبة دائرة الحس على مشهدهم، فلو شهدوا قبضة الله الشاملة المحيطة لعلموا أن اضطرارهم إلى الله دائم؛ لأن الاضطرار تعطيه حقيقة العبد إذ هو ممكن، وكل ممكن مضطر إلى مد يده، ومد يده به، وكما أن الحق سبحانه هو الغنى أبداً، فالعبد مضطر إليه أبداً، ولا يزال العبد هذا الاضطرار لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولو دخل الجنة، فهو محتاج إلى الله فيها، غير أنه غمس اضطزاره في

(١٧) الشعراء: ٨٠.

(١٨) الحج: ٦١ - لقمان: ٢٩ - فاطر: ١٣ - الحديد: ٦.

(١٩) نعود فنقول: إن المعنى اللغوي العادى للآية الكريمة، يقر به أبو العباس رضى الله عنه، ويعتمده، وهناك إشارات تفيض بها الآية الكريمة لا تتعارض مع المعنى العادى، ولا تنقضه، وقطل الله في هذه الإشارات واسع، وهذا الذى يقوله يصدق على كل ما يأتى من باب الإشارة في الآية الكريمة أو الأحاديث النبوية الشريفة وهو الذى سينته عليه ابن عطاء الله بعد قليل.

(٢٠) الأنبياء: ٦٠.

(٢١) النمل: ٦٢.

المنة التي أفرغت عليه ملاسها، وهذا هو حكم الحقائق: أن لا يختلف حكمها لافي الغيب ولا في الشهادة ولا في الدنيا ولا في الآخرة.

فالعلم صفته الكشف أى علم كان وفي أى وقت كان، والإرادة صفتها التخصيص أى إرادة كانت، وفي أى وقت كانت، ومن اتسعت أنواره لم يتوقف اضطراره.

وقد عاتب الله قومًا اضطروا إليه عند وجود أسباب ألبأتهم إلى الاضطراب فلما زالت زال اضطرابهم، قال الله سبحانه وتعالى:

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ﴾ (٢٢) الآية. وقال سبحانه:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢٣).

وقال تعالى:

﴿قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٢٤).

إلى غير ذلك من الآيات الواردة في هذا المعنى.

ولما لم تصل عقول العوام إلى ما تعطيه حقائق وجوداتهم، سلط الحق عليهم الأسباب المثيرة للاضطراب ليعرفوا قهر ربوبيته وعظمة إلهيته وكبريائه.

ومن الدليل على فخامة رتبة الاضطراب أن الحق سبحانه أوقف الإجابة عليه فقال:

﴿وَأَمِنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ (٢٥).

وإذا أراد الله سبحانه أن يعطي عبدًا شيئًا وهبه الاضطراب إليه فيه، فيطلب باضطراب، فيعطى، وإذا أراد الله أن يمنع عبدًا أمرًا منعه الاضطراب إليه فيه، ثم منعه إياه وقامت حجة الله على العبد: لو اضطرت إلينا لأعطيناك، فلا يخاف عليك أن تضطر وتطلب فلا تعطى، بل يخاف عليك أن تحرم الاضطراب، فتحرم الطلب، أو تطلب بغير اضطراب فتحرم العطاء.

وقال في قوله عز وجل: ﴿كَلِمَاتٍ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (٢٦).

ثم قال بعد ذلك:

﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ (٢٧).

(٢٢) الإسراء: ٦٧، وقامها: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَقُرْآنٍ﴾. (٢٥) النمل: ٦٢.

(٢٣) آل عمران: ٣٧.

(٢٧) مريم: ٢٥.

(٢٢) يونس: ٦٢.

(٢٤) الأنعام: ٦٣، ٦٤.

فذكر بعض الناس في هذا تأويلاً لا يرضى، ولا ينبغي أن يلتفت إليه، وهو أنه كان حبها لله وحده، فلما ولدت انقسم حبها، وليس الأمر كما قال هذا القائل، لأنها صديقة كما أخبر الله عنها: ﴿وَأُمُّهُ صَدِيقَةٌ﴾ (٢٨).

والصديق والصديقة لا يتنقلان من حالة إلا إلى أكمل منها، ولكنها كانت في بدايتها متعرفاً إليها بخرق العادات وسقوط الأسباب فلما تكمل يقينها أرجعت إلى الأسباب فالحالة الثانية أتم من الحالة الأولى.

وقال رضى الله عنه: الفتوة: الإيمان والهداية قال الله تعالى:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٢٩).

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه حاكياً عن الشيطان:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (٣٠).

ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم، لأن فوق: التوحيد، وتحت: الإسلام، والشيطان لا يمكنه أن يأتي المؤمن من توحيد ولا من إسلام.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (٣١).

قال سمي خليلاً لأنه خالل سره محبة الله تعالى قال الشاعر:

قَدْ تَخَلَّلَتْ مَسْلَكَ الرُّوحِ مَنَى وَلِذَا سَمِيَ الْخَلِيلُ خَلِيلًا
فَإِذَا مَا نَطَقْتُ كُنْتُ كَلَامِي وَإِذَا مَا صُمْتُ كُنْتُ الْعَلِيلًا

وقال رضى الله عنه في قوله تعالى:

﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٣٢).

قال: «وفى» بمقتضى قوله:

﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾.

وقال رضى الله عنه في قوله عز وجل:

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (٣٣).

قال: من طاعتهم ومن أعمالهم التي قاموا لله تعالى بها في ليالهم أن يشهدوها من أنفسهم.

ودليل ما قال الشيخ رضى الله عنه: أن الله عز وجل وصفهم قبل ذلك بقوله:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (٣٤).

(٣٤) الذاريات: ١٧.

(٣١) النساء: ١٢٥.

(٢٨) المائدة: ٧٥.

(٣٢) النجم: ٣٧.

(٢٩) الكهف: ١٣.

(٣٣) الذاريات: ١٨.

(٣٠) الأعراف: ١٧.

ثم قال:

﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾.

فلم يتقدم منهم في ليلهم ذنوب يكون استغفارهم منها.

وقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ كان إذا سلّم من صلاته استغفر الله ثلاثاً. وقال الواسطي:

العبادات إلى طلب العفو عنها أقرب منها إلى طلب الأعواض عليها. وقال رضى الله عنه في قوله تعالى:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ (٣٥).

أى من طاعتهم وأعمالهم، ومثل ذلك:

﴿ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ (٣٦).

وقال رضى الله عنه في قوله عز وجل:

﴿سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً﴾:

ولم يقل بنبيّه ولا برسوله وهو نبيّه ورسوله.

وإنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع فأعلمنا بأن الإسرائ من بساط العبودية، فالنبي ﷺ كان له كمال العبودية فكان له كمال الإسرائ، أسرى بروحه وجسمه وظاهره وباطنه.

والأولياء لهم قسط من العبودية فلهم قسط من الإسرائ، يسرى بأرواحهم لا بأشباحهم.

وسمعه رضى الله عنه يقول في قوله سبحانه وتعالى:

﴿إن المتقين في جنات ونهر، في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر﴾ (٣٧).

﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ في هذه الدار وفى تلك الدار، في الدنيا، في جنات العلوم وأنهار المعارف، وفى الآخرة، في الجنة التى وعدوا بها، في مقعد صدق، في هذه الدار وفى تلك الدار، عند مليك مقتدر في هذه الدار وفى تلك الدار.

وبسط كلام الشيخ رضى الله عنه هو:

أن نعيم الجنة الكائن فيها يكون رقايقه معجّلة للمتقين في هذه الدار، فما كان لهم في الجنة حساً يكون لهم في هذه الدار معنى.

ومثل هذه الآية قوله سبحانه:

﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾ (٣٨).

(٣٧) القمر: ٥٤، ٥٥.

(٣٨) الانفطار: ١٣، والمطففين: ٢.

(٣٥) يونس: ٥٨.

(٣٦) الزخرف: ٣٢.

أى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى الدنيا، فى نعيم الشهود وفى الآخرة فى نعيم الرؤية.
وكذلك قوله:

﴿وإن الفجار لفى جحيم﴾.

أى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى هذه الدار فى جحيم القطيعة وفى تلك الدار فى جحيم العقوبة، وقوله:

﴿فى مقعد صدق﴾.

أى فى هذه الدار وفى تلك الدار فى هذه الدار فى مقعد صدق العبودية وفى تلك الدار فى مقعد صدق الخصوصية.

﴿عند ملك مقتدر﴾.

فى هذه الدار وفى تلك الدار فى هذه الدار لهم عندية الإمداد وفى تلك الدار لهم عندية الإشهاد.
وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:
﴿ما خلق الله ذلك إلا بالحق﴾ (٣٩).
الحق الذى خلق الله به كل شىء كلمة:
كن.

قال الله سبحانه:

﴿ويوم يقول كن فيكون قوله الحق﴾ (٤٠).

وقال رضى الله عنه فى قوله سبحانه:

﴿أن اشكر لى ولوالديك﴾ (٤١).

إنما قرن شكرها بشكره لأنها أصل فى وجودك.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب
أخرى، قال ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسمى، قال: خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها
الأولى﴾ (٤٢).

يقال للولى: وما تلك بيمينك أيها الولى؟

قال: هى دنيائى، أتوكأ عليها، وأهش بها على غنمى. وغمه أعضاؤه، ولى فيها مآرب أخرى.

فيقال له: ألقها فناء عنها.

فألقاها.

فيكشف له عن حقيقتها فإذا هى حية تسمى.

(٤١) لقمان: ١٤.

(٤٢) طه: ١٧ - ٢١.

(٣٩) يونس: ٥.

(٤٠) الأنعام: ٧٣.

ثم يقال له:

﴿أخذها ولا تخف﴾.

فلا يضره أخذها؛ لأنه أخذها بإذن الله كما ألقاها بإذن الله، فأخذها من الوجه الذي به ألقاها، فأطاع الله في أخذها كما أطاعه في إلقائها.

وقال رضى الله عنه في قوله سبحانه:

﴿ويوم تَشَقُّقُ السَّيِّءِ بِالْغَمَامِ، وَتُزَلُّ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا، الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ (٤٣).

إنما قال للرحمن ولم يقل للقهار ولا للعزیز؛ لأن تشقق الساء بالغمام وتنزل الملائكة مظهران من مظاهر القهر والسطوة، فلو قال للقهار أو للعزیز لم يطق ذلك العباد وتفطرت قلوبهم، ففرق بهم أن قال:

﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾.

وهكذا قوله:

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا﴾ (٤٤).

ولم يقل إلى القهار ولا إلى العزیز؛ لأن الحشر وهو المطلع شديد فلاطفهم برحمانيته في ظهور سلطان قهره.

وقال رضى الله عنه وقد سئل عن قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٤٥).

فقال له القائل: من أين للعبد أن يتقى الله حق تقاته، ومن أين له أن لا يموت إلا وهو مسلم؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

فكانوا قد خوطبوا أولا أن يتقوا الله حق تقاته، وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، ثم خفف عنهم بقوله:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

قال الشيخ رضى الله عنه: ويمكن الجمع بين الآيتين:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾.

أى فى جانب الأعمال وقوله:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾.

أى فى جانب التوحيد، وقوله:

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

أى لا تتعاطوا من الأعمال إلا أعمالاً إذا مَتَمَّ عليها مَتَمَّ مسلمين.
وقال رضى الله عنه: صَلَّيْتُ خَلْفَ الشَّيْخِ صَلَاةَ الصُّبْحِ فَقَرَأَ بِحَمِّ عَسَقٍ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَوْلِهِ
تعالى:

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاءً﴾.

فخطر لى أنها الحسنات.

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذِّكْرَ﴾.

فخطر لى أنها العلوم.

﴿أَوْ يَزْجِرُهُمْ ذِكْرَانَا وَإِنَاءً﴾.

علومًا وحسنات.

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيًّا﴾.

لا علم ولا حسنة.

فلما سَلَّمَ الشَّيْخُ مِنَ الصَّلَاةِ اسْتَدْعَانِي وَقَالَ: لَقَدْ وَجَدْتُ فَهْمَكَ فِي الصَّلَاةِ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاءً
الحسنات، ويهب لمن يشاء الذِّكْرَ العلوم، أو يَزْجِرُهُمْ ذِكْرَانَا وَإِنَاءً علومًا وحسنات ويجعل من يشاء
عَقِيًّا لا علم ولا حسنة.

فعجبت من اطلاع الشَّيْخِ عَلَى ذَلِكَ.

فَقَالَ: أَعْجَبَ مَنِ اطَّلَعَ عَلَى فَهْمِكَ فِي الصَّلَاةِ، قَدْ فَهِمَ فَلَانٌ كَذَا، وَفَهُمَ فَلَانٌ كَذَا، حَتَّى عَدَّ
أَفْهَامَ الْجَمَاعَةِ الَّذِينَ خَلْفَهُ.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ (٤٦).

فقوم فهموا من هذا الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان، فشتغلهم ذلك عن محبة الحبيب، وقوم
فهموا من ذلك أن الشيطان لكم عدو أى وأنا لكم حبيب فاشتغلوا بمحبته فكفاهم مَن دونه.

قيل لبعضهم: كيف صنعتك مع الشيطان؟ فقال: وما الشيطان، نحن قوم صرفنا همنا إلى الله،
فكفانا مَن دونه.

وقال رضى الله عنه: قرأت مرة ﴿وَالْتِينَ وَالزَّيْتُونَ﴾ إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾.

ففكرت فى معنى هذه الآية، فكشفت لى عن اللوح المحفوظ، فإذا مكتوب فيه: لقد خلقنا
الإنسان فى أحسن تقويم روحًا وعقلًا، ثم رددناه أسفل سافلين نفسًا وهوى.

وقال فى قوله سبحانه:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا اَنْ رَّاى بَرهَانَ رَبِّهٖ﴾ (٤٧)؛

هَمَّتْ بِهٖ هُمْ اِرَادَةُ وَهَمَّ بِهَا هُمْ مِيلٌ لَاهُمْ اِرَادَةُ.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿لَقَدْ تَابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِىِّ وَالْمُهَاجِرِىْنَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِىْنَ اتَّبَعُوْهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيْغُ قُلُوْبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ (٤٨)؛

فقال عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: ذكر توبة من لا يذنب لثلاث يستوحش من أذنب لأنه ذكر النبى ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا، ثم قال:

وعن الثلاثة الذين خَلَفُوا.

فذكر من لم يذنب ليونس من قد أذنب، فلو قال أَوَّلًا لَقَدْ تَابَ اللّٰهُ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِىْنَ خَلَفُوا لَنَفَطَرْتَ أَكْبَادَهُمْ.

وقال رضى الله عنه:

التقوى فى كتاب الله على أقسام: تقوى النار، قال الله سبحانه:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ﴾ (٤٩).

وتقوى اليوم:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيْهِ إِلَى اللّٰهِ﴾ (٥٠).

وتقوى الربوبية:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ (٥١).

وتقوى الألوهية:

﴿وَاتَّقُوا اللّٰهَ﴾ (٥٢).

وتقوى الأنية:

﴿وَاتَّقُوا يَٰٓأُولِى الْأَلْبَابِ﴾ (٥٣).

وقال رضى الله عنه فى قوله عز وجل:

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ (٥٤)؛

نزلت فى اليهود.

ومن كان من فقراء هذا الزمان مؤثرًا للسماع بهواه، آكلًا مما حرّمه مولاه، فهى نزغة يهودية؛

(٤٧) يوسف آية: ٢٤ - ويفسر بعضهم الآية الكريمة فيقول: لولا أن رأى برهان ربه لم بهم بها لأنه رأى برهان ربه. ونتيجته: أنه لم بهم بها لأنه رأى برهان ربه.

(٤٨) التوبة: ١١٧.

(٤٩) آل عمران: ١٣١.

(٥٠) البقرة: ٢٨١.

(٥١) النساء: ١.

(٥٢) النساء: ١.

(٥٣) البقرة: ١٩٧.

(٥٤) المائدة: ٤٢.

لأن القوَال يذكر العشق وما هو بعاشق، والمحبة وما هو محب، والوجد وما هو متواجد، فالقوَال يقول الكذب والمستمع سَماع له، ومن أكل من الفقراء طعام الظلمة حين يدعى إلى السماع فهو يصدق عليه قول الله تعالى:

﴿سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلْسَحْتِ﴾.

وقال رضى الله عنه:

عبر بعض الصحابة على بعض اليهود فسمعهم يقرءون التوراة، فتخشعوا، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: اقرأ.

قال: وما أقرأ؟ قال: اقرأ:

﴿أَو لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ (٥٥).

فعمتوا إذ تخشعوا من غيره، وهم إنما تخشعوا من التوراة وهى كلام الله، فما ظنك بمن أعرض عن كتاب الله وتخشع بالملاهي والقناء؟

وقال رضى الله عنه وقد سأله سائل: ياسيدى لم قال عيسى عليه السلام:

﴿إِن تَعَذِّبِهِمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥٦).

ولم يقل: الغفور الرحيم؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: إنما عدل عن قوله إنك أنت الغفور الرحيم إلى قوله:

﴿فإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

لأنه لو قال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم لكان شفاعة من عيسى عليه السلام لهم فى المغفرة ولا شفاعة فى كافر، ولأنه عُبِدَ من دون الله فاستحى من الشفاعة عنده وقد عُيِدَ معه.

وقال رضى الله عنه فى قوله تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (٥٧).

فى هذه الآية مدح لسيد المرسلين ﷺ، أى أن هذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليها وأنت يا محمد ثبت لتزوله بالقوة الربانية التى أودعناها فىك، وفيها ذم للكافرين أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدع وأنتم ما خشعتم ولا تصدعتم.

فائدة:

اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله تعالى ولكلام رسوله ﷺ بالمعاني الغريبة كما مضى من فهم الشيخ رضى الله عنه، يجب لمن يشاء إناثا الحسنات، ويجب لمن يشاء الذكور العلوم، أو يزوجهم

ذكرنا وإنا علوماً وحسنات، ويجعل من يشاء عقيماً لا علم ولا حسنة، وكما مضى أيضاً من قوله عز وجل:

﴿إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِمُكْرَمٍ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾.

فقال الشيخ: بقرة كل إنسان نفسه، والله أمركم بذبحها، وكما سيأتي إن شاء الله في تفسير الأحاديث، فذلك ليس إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جليت له الآية ودلت عليه في عرف اللسان، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث، لمن فتح الله على قلبه، وقد جاء أنه عليه الصلاة والسلام قال:

«لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع».

فلا يصدتك عن تلقى هذه المعاني منهم أن يقول لك ذو جدل أو معارضة: هذا إحالة لكلام الله عز وجل وكلام رسول الله ﷺ.

فليس ذلك بإحالة، وإنما يكون إحالة لو قالوا: لا معنى للآية إلا هذا، وهم لم يقولوا ذلك، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مراداً بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله ما أفهمهم، وربما فهموا من اللفظ ضد ما قصده واضعه، كما أخبرنا الشيخ الإمام مفتي الأناضول تقي الدين محمد بن علي القشيري رحمه الله قال: كان ببغداد فقيه يقال له الجوزي، يقرئ اثني عشر علماً فخرج يوماً قاصداً لمدرسته، فسمع، منشداً ينشد:

إذا العشرون من شعبان ولت فواصل شراب ليلك بالنهار
ولا تشرب بأفسداح صغار فقد ضاق الزمان على الصغار
فخرج هائماً على وجهه حتى أتى مكة، ولم يزل يجاورها بها حتى مات.

وقرئ على الشيخ مكين الدين الأسمر رضي الله عنه قول القائل:

لو كان لي مسعد بالراح يسعدني لما انتظرت لشرب الراح إبطاراً
الراح شيء عجيب أنت شاربه فاشرب ولو حملتك الراح أوزاراً
يامن يلوم على صهباء صافية خذ الجنان ودعني أسكن الناراً

فقال إنسان هناك: لا تجوز قراءة هذه الأبيات. فقال الشيخ مكين الدين الأسمر للقارئ:

اقرأ، هذا رجل محبوب!

ويكفيك في هذا أن ثلاثة سمعوا منادياً يقول: «يا ساعر برى» ففهم كل منهم عن الله مخاطبة خوطب بها في سره.

سمع الواحد: أسمع تر برى.

وسمع الآخر: الساعة ترى برى.

وسمع الآخر: ما أوسع برى.

فالمسموع واحد، واختلقت أفهام السامعين، كما قال سبحانه:

﴿تُسْقَى بِماءٍ واحدٍ ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾.

وقال سبحانه:

﴿قد علم كل أناسٍ مشربهم﴾ (٥٨).

فأما الذي سمع: اسع تربرى، فمريدٌ دُلَّ على النهوض إلى الله بالأعمال ليستقبل الطريق بالجد، فقليل له: اسع إلينا بصدق المعاملة تر برنا بوجود المواصله.

وأما الثانى فكان سالكاً إلى الله طاولته الأوقات فخاف أن تفوته الوصلة فقليل له، ترويحاً على قلبه لما أحرقت نار الشغف: الساعة ترى برى.

وأما الآخر، فعارف كشف له عن وسع الكرم فخطوب من حيث أشهد فسمع: ما أوسع برى.

وقال الشيخ محيى الدين بن عربى رضى الله عنه.

دعانا بعض الفقراء إلى دعوة يزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدم الطعام، وعجزت الأوعية (٥٩)، وهناك وعاء زجاج جديد قد اتخذ للبول ولم يستعمل بعد، فغرف فيه رب المنزل الطعام، فالجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول: منذ أكرمى الله يأكل هؤلاء السادة منى لا أرضى لنفسى أن أكون بعد ذلك محلاً للأذى، ثم انكسر نصفين.

قال الشيخ محيى الدين: فقلت للجمع، سمعتم ما قال الوعاء؟

قالوا: نعم.

قلت: ما سمعتم؟

فأعادوا القول الذى تقدم.

قال: فقلت: قال قولاً غير ذلك.

قالوا: وما هو؟

قلت: قال: كذلك قلوبكم، قد أكرمها الله بالإيمان فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلاً لنجاسة المعصية وحب الدنيا، جعلنا الله وإياكم من أولى الفهم عنه والتلقى منه بمنه وكرمه.

(٥٨) البقرة: ٦٠.

(٥٩) أى لم تكن الأوعية كافية.

البَابُ السَّادِسُ

فِيهَا فُسْرُهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَإِبْدَاءُ أَسْرَارِ
فِيهَا عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْخُصُوصِيَّةِ

قال رضى الله عنه فى قوله ﷺ: «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١).

فقال الشيخ رضى الله عنه:

الإمام العادل هو القلب.

ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه، أى ورجل قلبه معلق بالعرش، فإن العرش مسجد قلوب المؤمنين.

ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه أى خاليا من النفس والهوى.

ورجل تصدق بصدقة أى فأخفاها عن نفسه وهواه.

وكذلك قال فى قوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾^(٢) أى من النفس والهوى.

فاعلم أن هؤلاء السبعة جازاهم الحق سبحانه من حيث معاملتهم إياه.

أما الإمام العادل فإنه عدل فى عباد الله فأوى المظلوم إلى ظل عدله فأواه الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الشاب الذى نشأ فى عبادة الله فإنه آوى إلى الله معرضا عن هواه آويا إلى كنف مولاه فصنع الحق معه ذلك فى الآخرة جزاء كما صنع هو ذلك مع الله فى الدنيا معاملة.

وأما الرجل الذى قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليه فإنه أثر طاعة الله وغلب عليه حب الله فلذلك صار قلبه متعلقا بالمسجد لا يحب الراح عنه؛ لأنه يجد فيه روح القرية وحلاوة الخدمة، فأوى إلى الله مؤثرا لربهيبته، فأواه الله وأظله بظله يوم لا ظل إلا ظله جزاء لما سبق من معاملته.

وأما الرجلان اللذان تحابا فى الله اجتماعا على ذلك وتفرقا عليه، فإنها تواصلتا بروح الله وتآلفا بمنجبة الله وكان ذلك منها انحياسا^(٣) إلى الله فأواهما الله بظله يوم لا ظل إلا ظله.

(٢) مريم: ٣.

(١) روى مالك والترمذى وأحمد والشيخان والنسائى ومسلم.

(٣) أى: ميلا ولجوها إلى الله سبحانه وتعالى.

وأما الرجل الذى دعت امرأته ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله فإنه صلى نار مخالفة الهوى مخافة من المولى وخالف بواعث الطبع المعارضة للتقوى، فلما أخاف من الله هرب إليه، ولما هرب إليه ههنا معاملة، آواه الله إليه فى الآخرة مواصلة، فأظله الله بظله يوم لا ظل إلا ظله. وأما الرجل الذى ذكر الله خاليا ففاضت عيناه فإنه لم تفض عيناه إلا من القروح التى أحرقت قلبه إما حياء من الله أو شوقا إليه أو خوفا من ربه بيته أو لشهود التقصير معه، فلما فعل ذلك حيث لا يراه أحد إلا الله الواحد الأحد كان ذلك منه معاملة لله وانحياسا إليه بالاعتذار إليه أو بالشوق إليه فأوى إلى الله فأظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وأما الرجل الذى تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه فإنه قد آثر على نفسه ببذل الدنيا إيثارا لحب الله على ما تحبه نفسه؛ لأن شأن النفس حب الدنيا وعدم البذل لها فلا يبذلها إلا من آثر الله عليها؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ:

«والصدقة برهان»^(٤).

أى برهان يدل على أن العبد آثر مولا على نفسه وهواه، فلما مال هذا العبد إلى الله بالمعاملة من الله عليه بأن أظله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.

وتشارك الأقسام السبعة فى معنى واحد؛ فلذلك جوزوا جزاء واحدا.

اشتركت فى أن كلا من هؤلاء السبعة صلى حرم مخالفة الهوى فى الدنيا، فلم يذقه الله حر الآخرة، وقد قال ﷺ: «سأكل من الجنة»

«لا أجمع على عبيد خوفين ولا أمنين: إن أمنت فى الدنيا أخفت فى الآخرة وإن أخفت فى الدنيا أمنت فى الآخرة».

وقال رضى الله عنه فى قوله ﷺ:

«يسرّوا ولا تعسّروا».

أى دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره، فإن من دلك على الدنيا فقد غرّك، ومن دلك على الأعمال فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك.

وقال فى قوله ﷺ:

«رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا لو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»؛ فقال رضى الله عنه:

«الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء، والأولياء يطالعون مثلها؛ فلذلك قال الرسول ﷺ:

«رأيت الجنة».

ولم يقل كأنى رأيت الجنة.

وقال حارثة لما قال له رسول الله ﷺ: كيف أصبحت يا حارثة؟

قال أصبحت مؤمنا حقا.

فقال ﷺ: لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟

قال عَزَيْتُ^(٥) نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتمتعون، وكأني أنظر إلى أهل النار في النار يعدُّون، وكأني أرى عرش ربي بارزاً، من أجل ذلك أسهرت ليل وأظلمات نهاري.

فقال له الرسول ﷺ: يا حارثة عرفت فالزم.

ثم قال ﷺ: «عبد نور الله قلبه^(٦) بنور الإيمان».

فقال حارثة: كأني أنظر ولم يقل رأيت؛ لأن ذلك للأنبياء دونه، وكذلك قول حنظلة الأسدی لرسول الله ﷺ: تذكرونا بالجنة والنار حتى كأننا نراها رأى عين^(٧). ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه.

وفي حديث حارثة فوائد عشرة:

الأولى: أنه لما سأل النبي ﷺ حارثة فقال له:

كيف أصبحت يا حارثة؟

لم يقل حارثة: غنياً ولا صحيحاً ولا شيئاً من الأحوال البدنية أو الأمور الدنيوية؛ لأن حارثة علم أن رسول الله ﷺ أجمل من أن يسأل عن دنياه، بل فهم عنه أنه إنما سأله كيف حاله مع الله فذلك قال الصحابي: أصبحت مؤمناً حقاً.

أما أبناء الدنيا إذا سئلوا فلا يخبرونك إلا عن دنياهم، وربما أخبروك إذا سألتهم عن الضجر بأحكام مولاهم، فالسائل لمن هذا وصفه مشارك له فيها استشاره بسؤاله لجرىان سببه منه. وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه لرجل أتى من الحج: كيف كان حجكم؟ فقال ذلك الرجل: كثير الرخاء كثير الماء، فسعر كذا وكذا وسعر كذا كذا، فأعرض الشيخ عنه وقال: تسألونهم عن حجهم وما وجدوا فيه من الله من علم ونور وفتح فيجيبون برخاء الأسعار وكثرة المياه حتى كأنهم لم يسألوا إلا عن ذلك.

الفائدة الثانية: أنه ينبغي للمشايخ أن يتفقدوا أحوال المريدين، ويجوز للمريدين إخبار الأستاذين وإن لزم من ذلك كشف حال المريدين؛ لأن الأستاذ كالطبيب وحال المريد كالعورة والعورة قد تبدو للطبيب لضرورة التداوى.

الفائدة الثالثة: انظر إلى قوة نور حارثة في قوله: أصبحت مؤمناً حقاً، فلو لا أنه منور بنور البصيرة الموجبة لمحض اليقين والتحقق بالسنة ما أخبر بذلك وأبداه أثبت لنفسه حقيقة الإيمان بين

(٥) أى: عزفت وأعرضت كارهة.

(٦) رواه البرزالي بسند ضعيف عن أنس، والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك. وسنده ضعيف أيضاً وكل منها يقرى الآخر. والمعنى في الجوز الإسلامى صحيح.

(٧) رواه مسلم وسيأتى به ابن عطاء الله بعد ذلك.

يدى صاحب المحو والإثبات، وإنما أبدى ذلك حارثة لأنه علم أن طواعية رسول الله ﷺ واجبة، والرسول قد استخبره عن حاله فلم يسعه الكتم وأبدى ما علم أن الله تفضل به عليه ببركات متابعة رسول الله ﷺ ليفرح له رسول الله ﷺ بمنة الله فيشكر الله عنه ويسأله تثبيت ما أعطاه. مثل هذا ما ذكره بعض العلماء العارفين قال:

وقعت زلزلة بالمدينة زمن خلافة عمر رضى الله عنه، قال عمر؛ ما هذا، ما أسرع ما أحدثتم، والله لئن عادت لأخرجن من بين أظهركم؟

فانظر رحمك الله هذه البصيرة التامة كيف أشهدته أن الزلزلة إنما هي من حدث كان، وأن الحدث منهم، وأنه يرى منه، فهل هذا إلا من نور البصيرة الكاملة التي وهبها عمر رضى الله عنه. وكذلك ضربه لأبي هريرة رضى الله عنها في صدره حين وجد معه نعلي رسول الله ﷺ وقد أمره أن من لقيه من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله أن يبشره بالجنة ورجوعها إلى رسول الله ﷺ، وقول عمر رضى الله عنه: يا رسول الله، أنت أمرت أبا هريرة أن يأخذ نعليك ويبشر من لقي من وراء الحائط يشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: نعم.

قال: لا تفعل يا رسول الله خلّهم يعملوا.

فقال رسول الله ﷺ: خلّهم يعملوا.

وهاتان الواقعتان تعرفانك بعظيم قدر عمر رضى الله عنه، ووفور أخذه من رسول الله ﷺ، واختطافه من نوره. وهذا الحديث، مروي في صحيح مسلم وإنما ذكرناه ههنا مختصراً (٨).

الفائدة الرابعة: يفهم من هذا الحديث انقسام الإيمان إلى قسمين: إيمان حقيقي وإيمان رسمي؛ لذلك أخبر الصحابي بقوله: أصبحت مؤمناً حقاً، والحديث يشهد له أيضاً.

وروى البخاري يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال:

(٨) ونصّه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال:

كنا قعوداً حول رسول الله ﷺ معنا أبو بكر وعمر في نفر، فقام رسول الله من بين أظهرنا، فأبطل علينا وخشينا أن يقتلع دوننا، وفزعنا فقمنا، فكنت أول من فزع، فخرجت أبغى رسول الله ﷺ حتى أتيت حائطاً للأتصار ليني التجار، قدرت به هل أجد له باباً، فلم أجد فإذا ربيع يدخل في جوف حائط من بئر خارجه - والربيع الجدول - فاحتفزت كما يحتفز الثعلب، فدخلت على رسول الله ﷺ فقال: أبو هريرة؟ قلت: نعم يا رسول الله. قال: ما شأنك؟ قلت: كنت بين أظهرنا فقمنا فأبطلت علينا فخشينا أن يقتلع دوننا ففزعنا، فكنت أول من فزع، فأبغيت هذا الحائط فاستفزت كما يحتفز الثعلب، وهؤلاء الناس ورائي، فقال: يا أبا هريرة، وأعطاني نعليه، قال: اذهب بنعلي هاتين فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة، فكان أول من لقيت عمر، فقال: ما هاتان النعلان يا أبا هريرة فقلت: هاتان نعلتا رسول الله ﷺ بعثنى بهما من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشرته بالجنة. فضرب عمر بيده بين نديي، فخررت لإسقي، فقال: أرجع يا أبا هريرة، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأجهشت بكاءً، وركبني عمر فإذا هو على أترى، فقال لي رسول الله ﷺ: مالك يا أبا هريرة، قلت: لقيت عمر فأخبرته بالذي بعثنى به، فضرب بين نديي ضربة خربت لإسقي. قال: أرجع. فقال له رسول الله ﷺ: يا عمر، ما حلك على ما فعلت؟ قال: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أبغيت أبا هريرة بنعليك من لقي يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة؟ قال: نعم. قال: فلا تفعل فإني أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلّهم يعملون، قال رسول الله ﷺ: فخلّهم.

«ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً».

وروى أيضاً: قال ﷺ:

«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن توعد نار عظمة فكان أن يقع فيها خير له من أن يشرك بالله».

وقد جاء في الحديث أيضاً قال ﷺ:

«المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»^(٩).

وقد قال الله سبحانه:

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾^(١٠).

وهما صنفان: عباد آمنوا بالله على التصديق والإذعان، وعباد آمنوا بالله على الشهود والعيان. وهذا الإيمان الثانى تارة يستوى إيماناً، وتارة يستوى يقيناً؛ لأنه إيمان انبسطت أنواره، وظهرت آثاره، واستمكن في القلب عموده، وداوم السر شهوده، وعنه يكون خالص الولاية، كما أن على القسم الآخر يكون ظاهر الولاية.

وليس يستوى إيمان مؤمن يغلب الهوى، وإيمان مؤمن يغلب الهوى، ولا إيمان مؤمن تعرض له العوارض فيدفعها بإيمانه كإيمان مؤمن غسل قلبه من العوارض فلا ترد عليه لشهوده وعبادته، ولأجل هذا اختلف أهل الطريق في عبيدين: أحدهما يرد عليه خاطر الذنب فيجاهد نفسه حتى يذهب ذلك عنه، والآخر لا يخطر له هذا الخاطر أصلاً أيها أتم؟ والذي لا شك فيه تفضيل هذا القسم الثانى فإنه أقرب لأحوال أهل المعرفة. والاول هو حال أهل المجاهدة.

ولأنه لا يكون القلب على هذه الصفة إلا والنور قد ملأ زواياه فلا جل ذلك لم يجد خاطر الذنب مساعاً.

الفائدة الخامسة: مطالبة رسول الله ﷺ لخارطة بإقامة البرهان على ما أثبتته لنفسه، فيدل ذلك أنه ليس كل من ادعى دعوى سلمت له، وقد قال الله سبحانه:

﴿فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١١).

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١٢).

فعوازين الحقائق شاهدة للعباد أو عليهم، وقد قال سبحانه:

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾^(١٣).

فمن ادعى حالاً مع الله أقيم عليه ميزاتها فإن شهد له سلمناها له وإلا فلا، وإذا كانت الدنيا

(٩) رواء مسلم، وقامه: احرص على ما ينفعك، واستمع بالله، ولا تسمع من إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان.

(١٠) الأنفال: ٤.

(١١) البقرة: ٩٤.

(١٢) الزمل: ٦٤.

(١٣) الرحمن: ٩.

على خسارة قدرها عند الله لا تسلم لك إلا بيّنة تقيمها، فمن الأخرى أن لا تسلم لك مراتب الموقنين حتى يثبتها لك برهان أو تسلمها لك حقيقة.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه يقول: لو كان المسئول أبا بكر رضى الله عنه لم يطالبه الرسول ﷺ بإقامة برهان على ما ادّعى؛ لأن عظم رتبة أبي بكر رضى الله عنه شهادة له من غير إظهار برهان، فأراد الرسول ﷺ أن يعرفنا الفرق بين رتبة أصحابه، فمنهم من هو كحارثة لما ادّعى حقيقة الإيمان طولب برهانها، ومنهم من هو كأبي بكر وعمر رضى الله عنهما يثبت لها الرسول ﷺ الرتب وإن لم يثبتها لأنفسها ألا ترى الحديث الوارد عن الرسول الله ﷺ: أن بقرة في بني إسرائيل ركبها رجل وأجهدها فقالت: سبحان الله، لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث.

فقال الصحابة: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ فقال الرسول ﷺ: آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر (١٤)، وهما غائبان.

فانظر هذه المرتبة ما أفخمها، وهذه المنزلة ما أعظمها.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه يقول: معنى قوله ﷺ: «آمنت بذلك أنا وأبو بكر وعمر».

أى من غير عجب، وأنتم آمنتم متعجبين، لأجل ذلك قالوا: سبحان الله، أبقرة تتكلم؟ وكان أبو العباس يقول: إن الملائكة لما بشرت زوجة إبراهيم عليه السلام بالولد قالت: ﴿أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾ (١٥).

فقالت الملائكة لها:

﴿أتعجبين من أمر الله﴾.

أى أمر الله لا يتعجب منه، فلم يسمّها الحق صديقة، ومريم لما بشرت بالولد من غير أب فلم تتعجب من ذلك سمّاها الله صديقة فقال سبحانه: ﴿وأمه صديقة﴾ (١٦).

الفائدة السابعة: استدلال الصحابي على حقيقة إيمانه بزهده في الدنيا، وكذلك هو الإيمان إذا تحقق به من قام به أورثه الزهد في الدنيا؛ لأن الإيمان بالله يوجب لك التصديق بلفاته، وعلمك بأن كل آت قريب يوجب لك شهود قرب ذلك فيورثك ذلك الزهد في الدنيا؛ ولأن نور الإيمان يكشف لك عن إعزاز الحق لك فتأنف همتك من الإقبال على الدنيا والتطلع إليها مع أن الحقيقة تقتضى أن الزاهد في الدنيا مثبت لها، فإنه شهد لها بالوجود إذ أثبتها مزهوداً فيها، وإذا شهد لها بالوجود فقد عظمها وهو معنى قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه: والله لقد عظمها إذ زهدت فيها.

(١٤) رواه البخاري بنحوه في أحاديث الأئمة.

(١٥) هود: ٧٢.

(١٦) جزء من آية ٧٥ من سورة المائدة وقامها ﴿كانا يأكلان الطعام، انظر كيف بين لهم الآيات ثم انظر أى يؤفكون﴾.

ومثل هذا الزاهد قويا زهد فيه فناء الفاني عما فنى عنه، فإثبات أنك فانٍ عن الشيء إثبات لذلك الشيء فما لا وجود له لا يتعلق به فناء ولا زهد ولا ترك.

ولنا في هذا المعنى أبيات كتبها لبعض الأصحاب يسمى حسنا:

حسنٌ بأن تدع الوجود بأسره	حسنٌ فلا يشغلك عنه شاغل
ولئن فهمت لتعلمن بسانه	لا ترك إلا للذي هو حاصل
ومنى شهدت سواء فاعلم أنه	من وهبك الأدنى وقلبك ذاهل
حسب الإله شهوده لوجوده	والله يعلم ما يقول القائل
ولقد أشرت إلى الصرح من الهدى	دلت عليه إن فهمت دلائل
وحديث كان وليس شيء غيره	يقضى به الآن اللبيب العاقل ^(١٧)
لا غير إلا نسبة مئسوسة	ليئس ذو ترك ويحمد فاعل

الفائدة الثامنة: قول الصحابي رضي الله عنه: عزيت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها ومدرها.

العزوب هو ترك الشيء بالتعزز له والإعراض عنه؛ إذ لو قال: تركت الدنيا لم يلزم من الترك عدم التطلع قرب تارك للشيء وهو له متطلع، فالعزوب إعراض مع كراهة وتحقر، ومن كشف الله له عن حقيقة الدنيا فهذا شأنه فيها، وقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا جيفة قدرة».

وقال ﷺ للضحاك: ما طعامك؟ قال: اللحم واللين.

قال: ثم يعود إلى ماذا؟ قال: إلى ما قد علمت يا رسول الله.

قال: فإن الله قد جعل ما يخرج من بني آدم مثلاً للدنيا^(١٨).

فمن كشف له عن حقيقة الدنيا فشاهدها جيفة قدرة فحرى أن يصرف همه عنها.

فإن قلت: فقد قال الرسول ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة»^(١٩).

فاعلم أن الدنيا جيفة قدرة في مرائي البصائر، وحلوة في مرائي الأبصار.

فإن قلت: فما فائدة الإخبار بأنها حلوة خضرة؟ فاعلم أن قوله ﷺ أن الدنيا جيفة قدرة للتغفير، وقوله: الدنيا حلوة خضرة للتحذير؛ أي فلا تفرّكنم بحلاوتها وخضرتها فإن حلاوتها في التحقيق مرارة وخضرتها ييس، ولهذا لما سئل رسول الله ﷺ عن أولياء الله قال:

«هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها».

الفائدة التاسعة: وقوف الصحابي رضي الله عنه على مستحق رتبته بقوله: وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون ولم يقل نظرت، وقد تقدم ذلك من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء

(١٧) المراد: الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن عمران بن حصين ونصه:

«كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض».

(١٨) رواه أحمد والطبراني وفيه: علي بن زيد بن جعدان مختلف فيه رواه ابن حبان.

(١٩) رواه الترمذي في الفتن والزهد، وابن ماجه في الفتن، والدارمي في الرقائق، وأحمد في مسنده.

الأولى : قول حنظلة : نافق حنظلة.

النافق : مأخوذ من نافقاء الجربوع^(٢٣) وهو أن يجعل لبيته بايين متى طولب من أحدهما خرج من الآخر، كذلك المنافق يظهر بظاهر الإيمان وله مسرب من الكفر باطن إذا عاتبه أهل الكفر على ما أظهر ما الإيمان فتح مسرباً من باطن كفره ليسلم من عتابهم، وإذا ظهرت عليه ريبة أهل النفاق فعوتب عليها تصون من ذلك بظاهر الإيمان الذي أظهره؛ ولذلك أخبر الله عنهم بقوله: ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾^(٢٤).

فلما رأى حنظلة أنه يكون عند رسول الله ﷺ على حالة فإذا خرج وحاول أسباب الدنيا تغير حاله فلم يبق على نحو ما كان عليه عند رسول الله ﷺ خاف أن يكون ذلك نفاقاً لاختلاف حالته، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ وحمله الإيمان على أن أظهر ذلك ليتطلب الشفاء منه، ويشكو داءه لمن يبيد الشفاء عنده، فلما شكى ذلك لأبي بكر رضى الله عنه، قال له أبو بكر: إنا لنلقى مثل ذلك يا حنظلة. ولم يجبه أبو بكر رضى الله عنه؛ لأن رسول الله ﷺ كان بين أظهرهم، فلم ير أبو بكر أن يجيب حنظلة، ولو أن حنظلة أتى أبا بكر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأجابه.

الفائدة الثانية: يستفاد من حديث حنظلة أن من حمله الصدق على إظهار ما به حصل له الشفاء إما بأن يقال إن ما ظننته داء ليس بداء، وإما أن يدل من الدواء على ما يزيل الداء فحنظلة قيل له إن ما ظننته داء ليس بداء.

الفائدة الثالثة: قول حنظلة لرسول الله ﷺ تذكرنا بالجنة والنار حتى كأننا رأى عين، ولم يقل حتى نراها رأى عين لما قدمناه من أن الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثلها فلذلك قال حنظلة حتى كأننا رأى عين، ولم يقل حتى نراها رأى عين، كما قال حارثة، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة ولم يقل نظرت إلى أهل الجنة وقد تقدم هذا من قبل.

الفائدة الرابعة: ينبغي أن يقلل الدخول في أسباب الدنيا ما أمكن، فهذا الصحابي يقول: فإذا خرجنا من عندك عافسنا الضيعات والزوجات فنسينا كثيراً وقد قال رسول الله ﷺ: «إن قليلاً من الدنيا يلهى عن كثير من الآخرة».

وقال ﷺ: «ما طلعت شمس إلا وبجنيتها ملكان يناديان: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى».

الفائدة الخامسة: قوله ﷺ: «لو تدومون على ما تكونون عليه عندى وفى الذكر لصاغتكم الملائكة فى طرقكم وعلى فرشكم».

فيه إشارة إلى أن الدوام على تلك الحالة عزيز، وأن عدم دوام العبد على تلك الحالة لا يوجب معية، لما طبع عليه البشر من الغفلة، فكان الدوام على تلك الحالة كالمعسور.

(٢٣) الجربوع أو الجربوع أو الدرس أو ذو الرميح؛ حيوان صغير على هيئة الجرذ الصغير وفى حبيبه تقرها.

(٢٤) البقرة: ١٤.

الفائدة السادسة: كان الشيخ أبو العباس رضى الله عنه، يقول: لم يقل رسول الله ﷺ إن ذلك محال أن يكون أعنى ما رتب على تقدير الدوام وهو قوله: «لصافحتكم الملائكة في طرقكم وعلى فرشكم» فقد يكون من أولياء الله من يهبه الله ذلك.

الفائدة السابعة: إنما خص الرسول ﷺ الفرش والطريق لأن الفرش محل الشهوات والطرق محل الغفلات، فإذا صافحتهم الملائكة في طرقهم وفرشهم فمن الأحرى أن تصافحهم في محل طاعاتهم ومواطن أذكارتهم.

الفائدة الثامنة: اقتضت حكمة الله سبحانه أن لا يستوى وقت كينونتهم عنده ووقت ذكرهم بما سواها حتى يعرف عظيم قدر رتبة محاضرتهم ﷺ وعزازه الذكر وجلالة منصبها.

وقال رضى الله عنه: سمع رسول الله ﷺ أبا بكر يقرأ ويخفى صوته، وسمع عمر يقرأ ويرفع صوته، فقال لأبي بكر: لم أخفضت صوتك؟ فقال: قد أسمع من ناجيت.

وقال لعمر: لم رفعت صوتك؟ فقال لأوقظ الوستان وأطرد الشيطان، فقال لأبي بكر: ارفع قليلاً، وقال لعمر اخفض قليلاً.

قال الشيخ رضى الله عنه: أراد أن يخرج كلا منها عن إرادته لنفسه لمراد رسول الله ﷺ له.

وقال رضى الله عنه في قول رسول الله ﷺ:

«أنا سيد ولد آدم ولا فخر»:

أى ولا أفتخر بالسيادة، وإنما أفتخر بالعبودية لله سبحانه.

وكان كثيراً ما ينشد:

يا عمرو نادى عبد زهراء يعرفه السامع والسرائى
لا تدعى إلا بعبدها فإنه أشرف أسمائى

وقال: كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه يقول:

المؤمن فى الدنيا أسير ولا فكاك للأسير إلا بإحدى ثلاث: إما بالحيلة، وإما بالفدية، وإما بالعناية.

وما ذكره الشيخ مأخوذ من قول رسول الله ﷺ:

«الدنيا سجن المؤمن» (٢٥)

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه فى تفسير هذا الحديث: وشأن المسجون التحديق بعينه والإصغاء بأذنيه متى يدعى فيجيب.

وقال رضى الله عنه: الأنبياء إلى أمهم عطية وتبيننا ﷺ هدية، وفرق بين العطية والهدية؛ لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين، قال رسول الله ﷺ:

(٢٥) روى أحمد ومسلم والترمذى وابن ماجه.

«إنما أنا رحمة مهداة» (٢٦).

وقال في قوله ﷺ: «السلطان ظلّ الله في الأرض» (٢٧)؛ هذا إذا كان عادلاً، فأما إذا كان جائراً فهو ظلّ النفس والهوى.

وقال رضى الله عنه: مات رجل من أهل الصفة فوجد في شملته ديناران فقال ﷺ: «كَيْتَانِ من نار».

قال الشيخ: وقد مات على عهد رسول الله ﷺ كثير من الصحابة وتركوا أموالاً فما قال رسول الله ﷺ فيهم مثل ما قال في هذا؛ لأنهم لم يبتغوا خلاف ما أظهروا، وهذا الذى كان من أهل الصفة أظهر الفاقة، وكان عنده هذان الديناران، فلما أظهر خلاف ما أبطن قال الرسول ﷺ: «كَيْتَانِ من نار».

وقال: قال رسول الله ﷺ: «التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» (٢٨).

فقال رضى الله عنه: بأى طريق يحشر مع النبيين؟ وبأى طريق يحشر مع الصديقين، وبأى طريق يحشر مع الشهداء، وبأى طريق يحشر مع الصالحين؟

يحشر مع الأنبياء، فإن الأنبياء، شأنهم أداء الأمانة، بذل النصيحة، فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف، وهذا التاجر أدى الأمانة وبذل النصيحة.

ويحشر مع الصديقين؛ لأن الصديق شأنه الصفاء في الظاهر والباطن، قد استوى ظاهره وباطنه، والتاجر الصدوق كذلك، فيحشر مع الصديقين بهذا الوصف.

ويحشر مع الشهداء؛ فإن الشهيد شأنه الجهاد، والتاجر الصدوق يجاهد نفسه وشيطانه وهواه، فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف.

ويحشر مع الصالحين؛ فإن الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحرام فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف (٢٩).

(٢٦) ابن سعد والحكيم عن أبى صالح مرسلاً، والحاكم عن أبى هريرة وصححه.

(٢٧) رواه الطبراني والبيهقي في الشعب.

(٢٨) رواه ابن ماجة والحاكم والترمذى.

(٢٩) الدنيا المذمومة في العرف الدني هي الشهوات، يقول الله سبحانه:

﴿وَمَنْ لِّلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْأَمْوَالِ﴾ ثم قال سبحانه عن كل ذلك: ﴿وَذَلِكَ مَتَاعُ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَأْثَبِ﴾.

أما إذا استخدمت الدنيا من أجل الآخرة، فإنها لا تصبح شهوات، إنما تصبح معبراً يعبر به الإنسان - في رضا من الله - إلى الآخرة، ومن أجل ذلك يقول سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فإذا ما صير الإنسان حياته عبادة وعبادة وغير ذلك، وإذا ما صير حياته عبادة بالنية الصادقة في الاتجاه إلى الله فقد استجاب إلى الغاية التي أحياها الله سبحانه وتعالى من الخلق.

وما ذكرناه هو نوع من الشرح لكلام الإمام الكبير أبى العباس المرسى رضى الله عنه.

البَابُ السَّائِعُ

في تفسيره لما أشكل من كلام أهل الحقائق،
وجمله ذلك على أبجل الطرائق

قال رضى الله عنه: قال سهل بن عبد الله:
لا تكونوا من أبناء الدهور ولا من أبناء العَدِّ والإحصاء، وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم
سعيد؟

ثم قال رضى الله عنه: يقول أحدهم: صليت كذا وكذا ركعة، صُمت كذا وكذا شهرًا، ختمت
كذا وكذا ختمة، حججت كذا وكذا حجة، فهؤلاء من أبناء العَدِّ والإحصاء فهم إلى عَدِّ سيئاتهم
أحوج منهم إلى عَدِّ حسناتهم.

وأما أبناء الدهور فيقول أحدهم: لى فى طريق الله سبعون سنة، لى فى طريق الله ستون سنة،
وكونوا من أبناء الأزل أشقى أم سعيد يعنى: لاحظوا ما سبق فى علم الله ولا تتكلموا على ما لكم
من العلم والعمل، ولكن ارجعوا إلى وجود الأزل.

وقال رضى الله عنه: قال بشر الحافى رضى الله عنه:

منذ أربعين سنة أشتهى الشواء فما صفا لى ثمته.

فقال الشيخ رضى الله عنه من ظن أن هذا الشيخ مكث أربعين سنة ما وجد درهمًا حلالًا
يشترى به شواءً فقد أخطأ؛ من أين له فى الأربعين سنة ما يأكل وما يلبس، وإنما المعنى فى ذلك أن
هؤلاء قوم أصحاب مراتب لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخلون فى شيء ولا يخرجون من شيء
إلا بإذن من الله وإشارة، فلو أذن له فى أكل الشواء لصفاه له ثمته.

وقال رضى الله عنه: قوت القوم على أربعة أوجه: مباح، وحلال، وطيب، وصاف.

فالمباح ما كان مستوى الطرفين ما على أخذه عقاب ولا فى تركه ثواب.

والحلال هو ما لم يخطر لك بهال ولا سألت فيه أحدًا من النساء والرجال.

والطيب هو ما أخذه العبد بوصف الفناء إذ لا وصف له مع مولاه.

والصافى هو ما عاينه العبد من المتبع، يعنى من عين قلزة الله سبحانه وتعالى.

وقال رضى الله عنه: قال الجنيد: أدركت سبعين عارقًا كلهم يعبدون الله على ظنٍّ ووهم حتى
أخى أبى يزيد لو أدرك صبيًا من صبياننا لأسلم على يديه.

فقال الشيخ: معنى قوله: يعبدون الله على ظنٍّ ووهم لا يريد بذلك ظنًّا فى المعرفة ووهمًا فيها؛

وكيف تجتمع المعرفة والظن والوهم وإنما المراد أنهم وصلوا إلى مقامات توهموا أن ليس وراءها للموقنين مقام؛ فقال الجنيد: لو أدرك صبيًا من صبياننا لأسلم على يديه، أي ليبن له أن فوق ذلك المقام مقام وفوق ذلك مقام إلى مالا آخر له، ومعنى لأسلم على يديه أي لانتقاد له فالإسلام هو الانتقاد.

وقال رضى الله عنه في قول أبي يزيد: خضتُ بحرًا وقفت الأنبياء بساحله.

إنما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء عليهم السلام.

ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق يدعون الخلق إلى الخوض، أي فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا وهذا الذى فسر الشيخ به كلام أبي يزيد هو اللاتق بمقام أبي يزيد، وقد قدمنا عنه أنه قال: جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق مملوء عسلًا ثم رشحت منه رشاحة فما في باطن الزق للأنبياء وتلك الرشاحة هي للأولياء.

والمشهور عن أبي يزيد التعظيم التام لمراسم الشريعة، والقيام بكمال الأدب حتى أنه حكى عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فقمعد في المسجد ينتظره، فخرج ذلك الرجل وتنخم في حائط المسجد، فخرج أبو يزيد ولم يجتمع به وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة، فكيف يؤمن على أسرار الله وما جاء عن الأكابر أولى الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يشكل ظاهرها؛ أولناها لهم لما علمناه من استقامتهم وحسن طريقتهم، فقد قال ﷺ:

«ولا تظن بكلمة برزت من امرئ مسلم سوءًا وأنت تجد لها في الخير محملاً».

وقال رضى الله عنه: كان الحارث بن أسد المحاسبى إذا مدَّ يده إلى طعام فيه شبهة تحرك عليه إصبعه، فسأل الشيخ سائل فقال: يا سيدى قد جاء أن الصديق قدّم إليه لبن فأكل منه فوجد كدرته في قلبه.

فقال: من أين لكم هذا اللبن؟

فقال له غلام: كنت تكهنت لقوم في الجاهلية فأعطوني ثمن كهانتى.

فتقيأه أبو بكر رضى الله عنه ثم قال:

«والله لو لم يخرج إلا بمصارينى لأخرجته»^(١).

فلم يكن على يد الصديق عرق يتحرك عليه إذا قدّم له طعام فيه شبهة والصديق أولى بكل مزية من سائر الأمة وقد وُزن بالأمة فرجحها.

فقال الشيخ رضى الله عنه: الصديق رضى الله عنه كالوكيل المفوض إليه، مطهر من البقايا فلا يحتاج إلى إشارة، والحارث بن أسد بقيت عليه البقايا فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل في شيء بنفسه وهواه، وأبو بكر رضى الله عنه طهر من النفس والهوى فلا يحتاج إلى إشارة. وأعلم أن من حسن اختيار الله لأبي بكر أن تناول من ذلك اللبن حتى تكلف طرحه بعد شربه

فيثيبه الله على ذلك، وأيضاً ليجعله قدوةً للعباد فيقتدى به من أكل طعاماً فيه شبهة ولم يعلم أن الأولى له قيته.

وليس لقائل أن يقول: قد ضمنه بأكله وقد تناوله وهو غير آثم إذ هو غير عالم، فإن أبا بكر ما سأل عن اللين إلا حتى وجد له كدرة في قلبه، دل ذلك على أن الحرام أو الشبهة قد يؤثر في القلب كدرة أو قسوة وإن لم يعلم به متناوله وقت تناوله.

وهكذا هم أهل التخصص إن وقع منهم أمر مثل هذا ونحوه فهو من حسن اختيار الله لهم حتى يفتح بهم السبيل للعباد، كما كان من حسن اختيار الله لآدم أكله من الشجرة بعد أن نهى عنها حتى يتوب من الفعل فيكون قدوةً للتائبين، وحتى يتعرف إليه بعلمه فيعلم أنه أكرم الأكرمين، ويوقفه على وجود ستره ولطفه، فيعلمه أنه اللطيف بعباده المؤمنين، وليكون أكل الشجرة سبباً في النزول، والنزول سبباً في الخلافة؛ فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: أكرم بها معصية أورثت الخلافة.

وقال: والله لقد أنزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾. وقد بسطنا القول في هذا الموضع في كتاب التنوير^(٢) فلا نعيده.

وقال رضي الله عنه: إنما بدأ القشيري في رسالته بالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم لأنها كانا قد تقدم لهما زمن قطيعة ثم أقبلا فأقبل الله عليهما فبدأ بذكرهما بسطاً لرجاء المريدين الذين كانت تقدمت منهم الزلات وسبقت منهم المخالفات ثم رجعوا إلى استقراع أبواب العناية؛ إذ لو بدأ بالجنيد وسهل بن عبد الله التستري وعتبة الغلام وأمثالهم عن نشأ في طريق الله لقال القائل: ومن يدرك هؤلاء، هؤلاء لم تسبق منهم زلات ولم تتقدم منهم مخالفات.

وقال رضي الله عنه في الحكاية المشهورة عن سمون المحب أنه كان ينشد:

وليس لي في سواك حظ فكيفما ما شئت فاخترني

فابتلى بعلّة الأسر وهو احتباس البول، فتجلّد يوماً فزاد الألم، فتجلّد الثاني فزاد الألم، فتجلّد ثالثاً ورابعاً فزاد الألم فهو في صبيحة اليوم الرابع وإذا بإنسان من أصحابه قد أتاه وقال: يا سيدي

(٢) قال ابن عطاء الله في كتابه التنوير:

فائدة جلية: اعلم أن أكله عليه السلام للشجرة لم يكن عتداً ولا خلافاً، فلما أن يكون: نسي الأمر، فتعاطى الأكل وهو له غير ذاك، وهو قول بعضهم، ويحل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنَزِّلَ الْإِنْسَانَ فَوَضَّعْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَشْيَاءِ فَقَالَ أَكُلْ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلَّ مَتَرٍ إِلَّا مَا تَمَرَّ عَلَى الشَّجَرَةِ فَاصْبِرْ﴾. فليس له عتد إلا أن كان تناوله ذاكراً للأمر فهو إنما تناوله لأنه قيل له: ﴿فَمَا تَهَاجَرُ رَبِّكَ عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ مَلَكًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْخَالِدِينَ﴾. فالحب في الله، وشغفه به أحب ما يؤديه إلى الخلود في جواره، والبقاء عنده، أو ما يؤديه إلى الملكة؛ لأن آدم - عليه السلام - عاين قرب الملكة من الله فأحب أن يأكل من الشجرة لينال رتبة الملكة التي هي أفضل، أو التي هي في ظنه كذلك على اختلاف أهل العلم وأهل المعرفة أيضاً أيها أفضل؟ الملكة أم النبوة؟ لاسياً وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَاسِمُهَا إِيَّيْكَ لِمَنِ النَّاصِعِينَ﴾.

قال آدم عليه السلام: ما ظننت أن أحداً يحلف بالله كاذباً، فكان كما قال الله تعالى: ﴿فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ﴾.. إلخ. - التنوير ص ٧٤ - ٧٥.

سمعت البارحة صوتك عند دجلة وأنت تستغيث إلى الله وتسأله رفع ما نزل بك فجاءه ثلث وثلاث ورابع لم يكن هو سأل، فعلم أنها إشارة له من الله بالسؤال فصار يدور على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعكمم الكذاب.

فقال الشيخ رضى الله عنه: رحم الله سمنوناً عوض ما قال: «فكيفما ما شئت فاختبرنى». كان يقول: فكيفما شئت فأعف عني فطلب العفو أولى من طلب الاختبار.

وقال رضى الله عنه في الحكاية المشهورة التي ذكرها الأستاذ أبو القاسم القشيري في رسالته: قال المجتهد: دخلت على السرى فوجدته متغيراً فقلت: ما بالك يا أستاذ متغيراً؟ قال: دخل على شاب أنفاً فقال لى: ما التوبة؟

فقلت له: أن لا تنسى ذنبك. فقال: بل التوبة أن تنسى ذنبك. فماذا تقول أنت يا أبا القاسم؟ قال: فقلت: القول عندي ما قال الشاب؛ لأنى إذا كنت فى حال الجفاء ثم نقلت إلى حال الصفاء، فذكر الجفاء وقت الصفاء جفاء.

قال الشيخ رضى الله عنه: كلام السرى أتم من كلاميها؛ لأن كلام السرى يدل على مبادئ المقامات، وكذلك القدوة يلزم بالكلام على مقامات العباد بداياتها ونهاياتها، وإنما تأتى النهايات من البدايات.

والمجتهد لم يكن فى ذلك الوقت بمقام أن يكون قدوة، وكذلك الشاب، فتكلما على أحوال أهل الارتقاء فى نهاياتهم، فكلامهما يخص حالهما وكلام السرى مهيئ^(٣) مورد للسالكين هذا معنى كلام الشيخ رضى الله عنه.

وقال رضى الله عنه فى قول بعضهم: لا يكون الصوفى صوفياً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئاً عشرين سنة.

ليس معنى ذلك أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة، ولكن معناه أنه إذا أذنب الذنب استغفر الله منه، والملك الموكل يكتب السيئات لا يكتب السيئة حتى ينتظر العبد لعل أن يرجع أو يتوب، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين: امكث فعسى أن يتوب. إلى أن يبلغ عدداً إما السبع وإما العشر - الشك منى - فحينئذ يكتبها سيئة، فلذلك جاء صاحب اليمين أميراً على صاحب الشمال.

(٣) المهيئ: الطريق الواسع المنبسط.

الباب الثامن

في كلامه في الحقائق والمقامات وكشفه فيها عن الأمور المعضلات

قال رضى الله عنه: الشوق على قسمين: شوق على الغيبة لا يسكن إلا بقاء الحبيب وهو شوق النفوس.

وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة.

فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل فذاك مقام التعريف إيماناً حقيقياً وذلك ميدان تنزل أسرار الأزل.

وإذا أنزلك إلى محل المثابرة والجهاد فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل، وهو الإسلام الحقيقى، وذلك ميدان تجلى حقائق الأبدية.

والمحقق من لا يبالي بأى صفة يكون؛ لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين وهو ظهورك، والاسم للسان وهو نطقك، والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود، والأسرار منزلة عن الوجودية للصدقية، والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة عن الاسم بالدليل لأهل السعاية، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لأبى جحيفة:

يا أبا جحيفة، سائل العلماء وخالط الحكماء وجالس الكبراء فالعلم بذلك بالعلم من الأسماء ونهايته الجنة، والحكيم المقرب يملك باليقين وبالحقائق من الصفات ونهايته منازل القرية، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿اتقوا الله وابتهوا إليه الوسيلة﴾ والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على طريق الصفاء والنزاهة ونهايته إلى الله.

وتجتمع المراتب الثلاثة فى الكبير فجمال قوما بالعلم وقوما بالحقائق وقوما بالأسرار وهم خلفاء الأنبياء وأبدال الرسل وهم البصراء.

﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى﴾.

أى على معاينة، يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها وهى النياية، وأما هو فقد انفرد بحالة لا تعرف لعظيم قربه.

وكان ينشد رضى الله عنه:

وغنى لى منى قلبى فغنيت كى غنى
وكننا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

وقال رضى الله عنه:

أوقات العيد أربعة لا خامس لها: النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية.
 والله عليك في كل وقت منها سهم من العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية.
 فمن كان وقته الطاعة فسيبيله شهود المنة من الله تعالى إذ هداه لها ووفقه للقيام بها.
 ومن كان وقته المعصية فسيبيله الاستغفار والتوبة.
 ومن كان وقته النعمة فسيبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله.
 ومن كان وقته البلية فسيبيله الرضا بالقضاء والصبر، والرضا رضى النفس عن الشهوات،
 والصبر مشتق من الأصبار وهو الغرض للسهام، وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضاً لسهام القضاء،
 فإن ثبت لها فهو صابر.

والصبر ثبات القلب بين يدي الرب، قال رسول الله ﷺ:
 «من أعطى فشكر، وأبلى فصبر؛ وظلم فقفر؛ وظلم فاستغفر».
 ثم سكنت فقالوا: ماذا له يا رسول الله؟
 قال: «أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»^(٤).
 أى لهم الأمن في الآخرة وهم مهتدون في الدنيا.
 وقال رضى الله عنه: الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا
 بطاعة الله إلى كرامة الله؛ قال الله سبحانه:
 ﴿الله ينجي إليه من يشاء ويهدي إليه من يئيب﴾^(٥).
 ومعنى كلام الشيخ هذا أن من الناس من حرك الله همته لطلب الوصول إليه فصار يطوى
 مهامه^(٦) نفسه ويبدأه^(٧) طبعه إلى أن وصل إلى حضرة ربه يصدق على هذا قوله سبحانه:
 ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾^(٨).
 ومن الناس من فاجأته عناية الله من غير طلب ولا استعداد، ويشهد لذلك قوله تعالى:
 ﴿يختص برحمته من يشاء﴾^(٩).
 فالأول حال السالكين.
 والثاني حال المجذوبين.
 فمن كان مبنؤه المعاملة فنهايته المواصل.

(٤) رواه ابن مردويه.

(٥) الشورى: ١٣.

(٦) مهامه جمع مهمه وهو الفلاة لا ماء بها ولا أنيس.

(٧) يبدأه: الصحراء الواسعة سميت بذلك لأنها تبيد من يجلبها.

(٨) العنكبوت: ٦٩.

(٩) آل عمران: ٧٤.

ومن كان مبدؤه المواصله رد إلى وجود المعامله.

ولا تظن أن المجذوب لا طريق له، بل له طريق طوتها عناية الله له، فسلكها مسرعا إلى الله عجيلا.

وكثيرا ما تسمع عند مراجعات المتتبيين للطريق أن السالك أتم من المجذوب؛ لأن السالك عرف الطريق وما توصل إليه، والمجذوب ليس كذلك، وهذا بناء منهم على أن المجذوب لا طريق له.

وليس الأمر كما زعموا فإن المجذوب طويت الطريق له، ولم تطور عنه، ومن طويت له الطريق لم تفتته ولم تغب عنه، وإنما غاته متاعبها وطول أمدها، والمجذوب كمن طويت له الطريق إلى مكة، والسالك كالسائر إليها على أكوار المطايا.

وقال رضى الله عنه: العارف لا دنيا له لأن دنياه لآخرته وآخرته لربه.

وقال رضى الله عنه: الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا.

وقال رضى الله عنه: الزاهد غريب في الدنيا لأن الآخرة وطنه، والعارف غريب في الآخرة فإنه عند الله.

فإن قلت: ما معنى الغربة في كلام الشيخ هنا وما معناها في الحديث الوارد: «بدأ الدين غريبا وسعود غريبا كما بدأ فطوي للغرباء» (١٠)؟

فاعلم أن الغربة المذكورة في الحديث معناها قلة من يعين على القيام بالحق، فيكون القائم به غريبا لفقدان المساعد وعدم المعاضد، فلا ينهض القائم حيث يشاء إلا قوة إيمانه، ووفور إيقانه، فلذلك قال ﷺ:

«بدأ الدين غريبا وسعود غريبا كما بدأ، فطوي للغرباء».

يريد ﷺ أنهم قاموا بأمر الله في بلاده وعباده حيث تقاعدت همم الناس عن القيام به.

وأما الغربة في كلام الشيخ رضى الله عنه فمعناها أن الزاهد يكشف له عن ملك الآخرة، فتبقى الآخرة موطن قلبه ومعيشش روحه فيكون غريبا في الدنيا إذ ليست وطنه لقلبه عاين الدار الآخرة فأخذ قلبه فيها عاين من ثوابها ونواها، وفيها شاهد من عقوبتها ونكاتها، فاستغرب في هذه الدار.

وأما العارف فإنه غريب في الآخرة فإنه كشف له عن صفات معروفة فأخذ قلبه فيها هنالك فصار غريبا في الآخرة لأن سره مع الله بلا أين، فهؤلاء العباد تصير الحضرة معيشش قلوبهم إليها يأوون وفيها يسكنون، فإن تنزلوا إلى سماء الحقوق أو أرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين، فلم ينزلوا إلى الحظوظ بالشهوة والمتعة ولا إلى الحقوق بسوء الأدب والغفلة، بل كانوا في ذلك كله بأداب الله وآداب رسله وأنبيائه متأدبين، وبما اقتضى منهم مولا هم عاملين.

وقال رضى الله عنه:

(١٠) رواه مسلم وابن ماجه والترمذى والطبرانى بنحوه.

الخوف على قسمين: خوف العامة، وخوف الخاصة.

فخوف العامة على أجسادهم من النار.

وخوف الخاصة على خلعتهم التي كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة.

ومعنى كلام الشيخ هذا أن العامة لم تنفذ بصائرهم إلى شهود خلق الحق عليهم من إيمان وإسلام ومعرفة وتوحيد ومحبة، وعلموا أن الله تعالى قد توعد أهل المعصية بعقوبته فخافوا الوقوع في المعصية لئلا يكون ذلك سبب وقوع العقوبة بهم فكان خوفهم إشفاقاً على نفوسهم من عقوبة الله. وأما أهل الخصوصية فأعطاهم الحق من نوره ما أشهدهم به ما كساهم من خلق مثله فعملوا على صيانتها ليقدموا عليها بما لم تدنس ولم تتغير طاهرة نقية، مشرقة بهية؛ وفهموا معنى قوله تعالى: ﴿وَنِيَابُكَ فَطَهَّرْ﴾ (١١).

فطهروا ملابس إيمانهم وإيقانهم من دنس غفلتهم وعصيانهم، وفهموا أيضاً قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (١٢). فعبروا الدنيا وقد رفعوا ملابس المنن خشية أن تدنس بأوساخها كي يقدموا عليه بخلعه التي أنعم بها عليهم، ونهضوا له بالوفاء فيما اقتضى منهم، وبالأمانة والصيانة فيما استأنهم. وكان بعض العارفين ينشد:

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابس	فقلت خلعه ساق حبه جرجا
فقر وصبر هما توبى تحتها	قلب يرى ألفة الأعياد والجما
العيد لي مأتم إن غبت يا أمل	والعيد ما كنت لي مرأى ومستما
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب بها	يوم التزاور في الثوب الذى خلعا

وقال رضى الله عنه:

العامة إذا خوفوا خافوا، وإذا رجوا رجوا.

والخاصة متى خوفوا رجوا، ومتى رجوا خافوا.

ومعنى كلام الشيخ أن العامة واقفون مع ظواهر الأمر، فإذا خوفوا خافوا إذ ليس لهم نفوذ إلى ما وراء العبارة بنور الفهم كما لأهل الله.

وأهل الله إذا خافوا رجوا؛ عالمين أن من وراء خوفهم وما به خوفوا أوصاف المرجو الذى لا ينغى أن يقنط من رحمته، ولا أن يئس من مثله، فاحتالوا على أوصاف كرمه، علما منهم أنه ما خوفهم إلا ليجمعهم عليه، وليردهم بذلك إليه.

وإذا رجوا خافوا، يخافون غيب مشيئته التى هى من وراء رجائهم، وخافوا أن يكون ما أظهر من الرجاء اختباراً لعقولهم، هل تقف مع ظاهر الرجاء أو تنفذ إلى خوف ما بطن في مشيئته؛ فلذلك

(١١) المدثر: ٤.

(١٢) الأعراف: ٣٦.

استشار الرجاء خوفهم، وحكمهم في القبض والبسط كما قال الشيخ في الخوف والرجاء غير أن البسط مزلة إقدام الرجال، فهو موجب لمزيد حذرهم وكثرة بلثهم.

قال بعضهم: فتح لي باب من البسط فانبسطت، فحجبت عن مقامى ثلاثين سنة.

وكان الشيخ رضى الله عنه ينشد:

واقطع السير إليه السير إليه زميلاً (١٣) فإذا ما نلت منه وصولاً

فاقرع الباب قليلاً قليلاً.

غيره:

واحذر البسط ونادى بالحبيب من على بعد تُنادى من قريب

فقوله: واحذر البسط لما قدمناه، فإن من رزق من الأنوار البسط فإنه يخشى على العبد أن يغييه وجوده، قال الله سبحانه:

﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ (١٤).

والقبض أقرب إلى وجود السلامة لأنه وطن العبد، إذ هو في أسر قبضة الله وإحاطة الحق بحيطه به، ومن أين يكون للعبد البسط وهذا شأنه؟ والبسط خروج عن حكم وقته، والقبض هو الأليق بهذه الدار إذ هي وطن التكليف وإيهام الخائفة وعدم العلم بالسابقة والمطالبة بحقوق الله تعالى (١٥).

وأخبرني بعض الصوفية قال: رأى شيخنا شيخه في المنام بعد موته مقبوضاً، فقال له: يا أستاذ مالك مقبوضاً؟ فقال له: يا بني القبض والبسط مقامات من لم يوفقها في الدنيا وفي بها في الآخرة.

وكان هذا الشيخ الغالب عليه في حياته البسط.

وقوله: ونادى بالحبيب من على بعد، أى من شهود استحقاق الإجابة أو من على بعد من دعواك لأوصاف الربوبية، أو من على بعد لوجود شهود الإساءة.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: ما طلبت من الله حاجة إلا وقدمت إساءة أمامي. فإن قلت: فحديث الثلاثة الذين دخلوا الغار فأنحطت عليهم صخرة فسدت باب الغار فقالوا:

(١٣) من زمل يزمل: عدا وأسرع معتدا في أحد شقيه رافعاً جنبه الآخر.

(١٤) الشورى: ٢٧.

(١٥) قال القشيري في «الرسالة القشيرية» عن القبض والبسط.

وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالة الخوف والرجاء، فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمستأنف، والبسط للعارف: بمنزلة الرجاء للمستأنف.

ومن الفصل بين القبض والخوف، والبسط والرجاء: أن الخوف إنما يكون من شيء في المستقبل: إما أن يخاف فوت محبوب: أو هجوم مخدور - وكذلك الرجاء: إما أن يكون بتأميل محبوب في المستقبل، أو بتطلع زوال مخدور وكفاية مكروه في المستقبل، وأما القبض: فلمعنى حاصل في الوقت، وكذلك البسط، فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالته بأجله، وصاحب القبض والبسط أخذ وقته بواره غلب عليه في عاجله.

ثم قال: وقد عد أهل التحقيق حالى القبض والبسط من جملة ما استعانوا منه، لأنها بالإضافة إلى ما فوقها من استهلاك العبد، واندراجها في الحقيقة: فقر وضراء.

ليذكر كل واحد منكم أرجى عمل عمله لله، فذكر أحدهم برّه بوالديه، والآخر عفاؤه عن ابنة عمه مع حبه إياها والتمكن منها، وذكر الآخر تسميره لأجرة أجير استأجره فلما وجدته دفع ذلك كله إليه، فكشف الله عنهم ما نزل بهم وزالت الصخرة عن قم الغار فخرجوا، هذا معنى الحديث مختصراً رواه مسلم في صحيحه (١٦٦)؛

فاعلم أن هؤلاء الثلاثة لم يذكروا طاعاتهم إلا وقد شهدوها فضلاً من الله عليهم فتوسلوا بنعمة إلى نعمة كما أخبر الله عن زكرياء.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

فتوسل إلى الله بسابق حسن عوائده فيه.

وسألت امرأة بعض الملوك فقالت: إنك قد أحسنت إلينا عام أول ونحن محتاجون لإحسانك إلينا هذا العام. فقال: أهلاً بين توصل لإحساننا بإحساننا وأعطاها وأجزل لها العطاء.

ومن فتح له هذا الباب جاز له الإخبار بطاعته ووجود معاملته؛ لأنه حينئذ يتحدث بنعم الله سبحانه.

وقد كان بعض السلف يصبح فيقول: صَلَّيْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا كَذَا رُكْعَةً، تَلَوْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا كَذَا سُورَةً، فيقال له: أما تَغْتَشَى مِنَ الرِّيَاءِ؟ فيقول: وبحكم وهل رأيتم من يرأى بفعل غيره؟ وكان آخر يفعل مثل ذلك فيقال له: لم لا تكتم ذلك؟ فيقول: ألم يقل الله سبحانه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (١٧). وأنتم تقولون: لا نتحدث.

وقال رضى الله عنه: كان الإنسان بعد أن لم يكن، وسيبقى بعد أن كان، ومن كلا طرفيه عدم فهو عدم.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن الكائنات لا تثبت لها رتبة الوجود المطلق؛ لأن الوجود المطلق إنما هو الله، وله الأحدية فيه، وإنما للعوالم الوجود من حيث ما أثبت لها.

واعلم أن من الوجود له من غيره فالعدم وصفه في نفسه، وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: الصوفي من يرى الخلق في طي سره كالهباء في الهواء لا موجودين ولا معدومين حسبما هم في علم رب العالمين.

وقال أيضاً رضى الله عنه - وقد تقدم: وإنما لا نرى أحداً من الخلق، هل في الوجود أحد سوى الملك الحق، وإن كان ولا بد فكالهباء في الهواء إن فتشته لم تجده شيئاً.

وفي كتاب الحكم (١٨) من كلامنا: العوالم ثابتة بإثباته محوأة لأحدية ذاته.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله اه: كان لى صاحب كثيراً ما يأتينى بالتوحيد فقلت له: إن

(١٦٦) ورواه البخارى في صحيحه.

(١٧) الضحى: ١١.

(١٨) كتاب «الحكم» من أشهر كتب ابن عطاء الله السكندرى وهو - كما يدل سياق العبارة - أسبق في التأليف من «لطائف المنن» الذى هو موضوع التحقيق.

أردت التي لا لوم فيها فليكن الفرق على لسانك موجوداً، والجمع في باطنك مشهوداً.
 وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت إليها بعين البصيرة وجود الظلال والظلم، لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم، وإذا أثبت ظلمة الآثار لم تنسخ أحدية المؤثر؛ إذ الشيء إنما يشفع بمثله ويضم إلى شكله، كذلك أيضاً من شهد ظلمة الآثار لم تعقه عن الله، فإن ظلال الأشجار في الأنهار لا يعوق السفن عن التسيار، ومن هنهنا يبين لك أيضاً أن الحجاب ليس أمراً وجودياً بينك وبين الله، ولو كان بينك وبينه حجاب وجودي للزم أن يكون أقرب إليك منه ولا شيء أقرب إليك من الله فرجعت حقيقة الحجاب إلى توهم الحجاب، فما حجبك عن الله وجود موجود معه إذ لا موجود معه، وإنما حجبك عنه توهم موجود معه، وذلك كرجل بات في مكان وأراد البروز فسمع صوت الرياح من كوة هناك فظنه زئير أسد فممنعه ذلك عن البروز، فلما أصبح لم يجد هناك أسداً وإنما هو الريح انضغط في تلك الكوة فما حجبته وجود أسد، وإنما حجبته توهم الأسد.

وسمعه يقول: لو عذب الله الخلائق أجمع لم ينلك من عذابهم من شيء، ولو نعمهم أجمع لم ينلك من نعمهم شيء، فكانت في الوجود وحدك ثم أنشد:

أنت المخاطب أيها الإنسان فأصخ إلى يلح لك البرهان
 وسمعه يقول: دخلت على الشيخ أبي الحسن وفي نفسي أن أكل الخشن وألبس الخشن.
 فقال لي الشيخ: يا أبا العباس أعرف الله وكن كيف شئت.
 ودخل على الشيخ أبي الحسن فقير وعليه لباس من شعر، فما فرغ الشيخ من كلامه دنا من الشيخ وأمسك بلبسه، وقال:

ياسيدي ما عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك.
 فأمسك الشيخ بلبسه فوجد فيه خشونة فقال:
 ولا عبد الله بمثل هذا اللباس الذي عليك، ولباسي يقول: أنا غني عنكم فلا تعطوني، ولباسك يقول: أنا فقير إليكم فأعطوني.

وهكذا طريق الشيخ أبي العباس وشيخه أبي الحسن رضى الله عنهما وطريقة أصحابها الإعراض عن لبس زئى ينادى على سر اللابس بالإفشاء، ويفصح عن طريقه بالإبداء، ومن لبس الزئى فقد ادعى.

ولا تفهم رحك الله أنا نعيب بهذا القول على من لبس زئى الفقراء، بل قصدنا أنه لا يلزم كل من كان له نصيب مما للقوم أن يلبس ملابس الفقراء، فلا حرج على اللابس، ولا على غير اللابس، إذ كانا من المحسنين.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ (١٩).

وأما لبس اللباس اللين وأكل الطعام الشهى وشرب الماء البارد فليس القصد إليه بالذى يوجب

العتب من الله إذا كان معه الشكر لله.

وقد قال الشيخ أبو الحسن: يا بني برّد الماء فإنك إذا شربت الماء الساخن فقلت الحمد لله تقولها بكرازة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو منك بالحمد لله.

والأصل في هذا قول الله سبحانه حكاية عن موسى عليه السلام.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ (٢٠).

ألا ترى كيف تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ قصداً لشكر الله تعالى على ما ناله من النعمة؟

وسمعه يقول: اختلف الناس في اشتقاق الصوفي: فمنهم من قال: إنه منسوب إلى الصوف لأنه لباس الصالحين.

وقيل: هو منسوب إلى الصفة، يعني صفة مسجد رسول الله ﷺ التي ينسب إليها أهل الصفة وهو نسب على غير قياس.

ثم قال: وأحسن ما قيل فيه: إنه منسوب لفعل الله به، أي صافاه الله فصوفي؛ فسَمِيَ صوفيًا، ثم أنشد رضي الله عنه:

تخالّف الناس في الصوفي واختلفوا وكلهم قال قولاً غير معروف
ولست أُمْنِح هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى يسمّى الصوفي
وسمعه يقول: الصوفي مركب من حروف أربعة: الصاد والوار والفاء والياء.

فالصاد صيره وصدقه وصفاه.

والوار وجده وودّه ووفّاه.

والفاء فقده وفقره وفنّاه.

والياء ياء النسبة.

إذا تكمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه.

وسئل رضي الله عنه عن قول عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل بحق أقول لكم: لا يلج ملكوت السموات من لم يولد مرتين.

فقال رضي الله عنه: أنا والله ممن ولد مرتين، الإيلاد الأول: إيلاد الطبيعة، والإيلاد الثاني: إيلاد الروح في سماء المعارف.

وسمعه رضي الله عنه يقول: ولن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله.

وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه: لن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته أو تدبير من تدبيراته أو اختيار من اختياراته.

ومعنى كلام الشيخ رضي الله عنه: لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى

الله، أى انقطاع أدب لا انقطاع ملء، يغلب عليه التفويض إلى الله وشهود حسن الاختيار منه، فيلقى القيادة إليه ويترك نفسه سلباً بين يديه فلا يختار مع مولاه شيئاً لعلمه بما في الاختيار مع الله من الآفات، ولنا في هذا المعنى من قصيدة ذكرناها في كتاب التنوير.

وكن عبده وألق القيادة لحكمه وإيساك تديباً فما هو نافع
أتحكم تديباً وغيرك حاكم أنت لأحكام الإله تنارع
فمحو إرادات وكل مشيئة هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع
كذلك سار الأولون فأدركوا على إثرهم فليمش من هو تابع
وقال رضى الله عنه:

اعلم أن الله خلق هذا آدمي وقسمه على ثلاثة أجزاء:
فلسانه جزء.

وجوارحه جزء.

وقلبه جزء.

وجعل على كل جزء حفيظاً فقال سبحانه وتعالى:

﴿ما يلفظ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيدٌ﴾ (٢١).

وقال سبحانه:

﴿ولا تعملون من عملٍ إلّا كنّا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ (٢٢).

وتولى حفظ القلب بنفسه فقال عز وجل:

﴿واعلموا أنّ الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه﴾ (٢٣).

وسلّط على الجوارح الشيطان.

واقترض من كل جزء وفاء ما ألزم به.

فوفاء القلب أن لا يشتغل بهمّ دنيا ولا بكمّ ولا حسد.

(٢١) ق: ١٨.

(٢٢) يونس: ٦١.

(٢٣) البقرة: ٢٣٥.

المراد بالتدبير المتبى عنه: هو اعتقاد الإنسان أن له دخلاً في النتيجة، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿فه عاقبة الأمور﴾ والإنسان المؤمن يحكم الأمر إحكاماً تاماً كما كان يفعل رسول الله ﷺ في جميع أموره: في الدعوة، وفي الغزوات، وفي العمل على الانتصار والفوز، إنه صلوات الله وسلامه عليه كان يحكم أمر ذلك إحكاماً تاماً، لا يدع صغيرة ولا كبيرة للمصادفة أو للخطأ ثم هو صلوات الله وسلامه عليه يدع أمر النتيجة لله سبحانه وتعالى ويرضى بها، ثم يتطلق منها مباشرة: - فوذا كانت أو غيره - إلى ما تستلزمه من عمل يترتب عليها. يبدأ صلوات الله وسلامه عليه في إحكامه وفي تصيف أوضاعه بحسب الحكمة الدقيقة ثم يترك النتائج إلى الله سبحانه وتعالى وهكذا، وأتمّة الصوفية جميعاً، ومنهم أبو الحسن الشاذلي وأبو العباس المرسي وابن عطاء الله السكندري - رضى الله عنهم جميعاً - جزاهم عن الخير أحسن الجزاء - يسرون على هذا النسق لأنهم يتخذون رسول الله ﷺ أسوة حسنة استجابة لقوله تعالى:

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾.

ووفاء اللسان أن لا يفتاب ولا يكذب ولا يتحدث فيما لا يعنيه.
 ووفاء الجوارح أن لا يسارع بها إلى معصية ولا يؤذى أحدًا من المسلمين.
 فمن وقع من قلبه فهو منافق.
 ومن وقع من لسانه فهو كافر.
 ومن وقع من جوارحه فهو عاص.

وقال رضى الله عنه: صلاح العبد في ثلاثة أشياء: معرفة الله، ومعرفة النفس، ومعرفة الدنيا،
 فمن عرف الله خاف منه، ومن عرف نفسه تواضع لعباد الله، ومن عرف الدنيا زهد فيها.
 وقال رضى الله عنه: قال لى شبيخي: لا تصحب إلا من تكون فيه أربع خصال: الجود من
 القلة، والصفح عن المظلمة، والصبر على البلية، والرضا بالقضية.

وقال رضى الله عنه: من اشترى زيتًا من بيعاء فلما فرغ قال له زدى فزاده خيطًا فدينه أرق من
 ذلك الخيط، ومن اشترى فحمًا فلما فرغ قال له زدى فزاده فخمة فقلبه أسود من تلك الفحمة.
 وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام قوم غلبت حسناتهم سيئاتهم فهم في الجنة قطعًا،
 وقوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم فلا يدخلون النار قطعًا، وقوم غلبت سيئاتهم حسناتهم فلا يدخلون
 في النار قطعًا.

وقال رضى الله عنه: الدخول في الجنة بالإيمان، والخلود فيها بالنية، والدرجات فيها بالأعمال،
 والدخول في النار بالشرك والخلود فيها بالنية والدركات فيها بالأعمال.

وقال رضى الله عنه: لا يدخل على الله إلا من باين؛ إما من باب الفناء الأكبر وهو الموت
 الطبيعي، وإما من باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة.

وقال رضى الله عنه: الكائنات على أربعة أقسام: جسم كثيف، وجسم لطيف، وروح شفاف،
 وسر غريب.

فالجسم الكثيف بمجرد جماد.

والجسم اللطيف بمجرد جان.

والروح الشفاف بمجرد ملك.

والسر الغريب هو المعنى المسجود له.

فالأسمى بظاهر صورته جماد، وبوجود نفسه وتخيّلها وتشكّلها جان، وبوجود روحه ملك، وأعطى
 زائدًا على ذلك السر الغريب؛ فلذلك استحق أن يكون خليفة.

وقال رضى الله عنه: ليس العجب من تاه في نصف ميل أربعين سنة، إنما العجب من تاه في
 مقدار شبر الستين والسبعين سنة، وهى البطن.

وقال رضى الله عنه: الأدنى يشرف على الأعلى ولا يحيط به والأعلى يحيط بالأدنى.
 فالأولياء لهم الإشراف على مقامات الأنبياء وما لهم الإحاطة بمقاماتهم، والأنبياء يحيطون بمقامات
 الأولياء.

وقال رضى الله عنه في قول بعض السلف: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً؛ أى لو كشف الغطاء للنفس لم أزد يقيناً فيما طالعه القلب.

وقال رضى الله عنه:

جميع أسماء الله إذا أسقطت منها حرفاً ذهب دلالة على الله كالعليم والقادر والرحيم وغير ذلك من أسمائه الحسنى إلا اسمه «الله» فإنك إذا أسقطت الألف بقى الله، فإذا سقطت اللام الأولى بقى له، فإذا أسقطت اللام الثانية بقى هو وهو النهاية في الإشارة، وأنشد ابن منصور الخلاج:

أحرف أربع بها هام قلبي وتلاشت بها همومي وفكري
ألف الحسنى بالصنـد مع ثم م على الملاسة تجري
نسم لأم زيادة في المعالي نسم هاء أهسيم أتدري

وقال رضى الله عنه: كشف لى عن أرواح الصديقين صاعدة نحو الملاء الأعلى فإذا قائل يقول لى: يا على:

وما جنت خيلى ولكن تذكرت مرابطها من بر يعص وميصرا
أى أنها ما قرّت جنتاً من الخلق ولكنها تذكرت أوطان التعرف.

وقال رضى الله عنه: الوحي إلقاء معنى في خفاء.

وقال رضى الله عنه: جميع أسماء الله للخلق إلا اسمه الله فإنه للتعلى.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أنك إذا ناديته يا حليم خاطبك من اسمه الحليم أنا الحليم فكن عبداً حليماً، وإذا ناديته باسمه الكريم خاطبك من اسمه الكريم أنا الكريم فكن عبداً كريماً، وكذلك سائر أسمائه إلا اسمه «الله» فإنه للتعلى فحسب؛ مضمونه الأولوية، والألوهية لا يتخلق بها أصلاً.

وقال رضى الله عنه: السماء عندنا كالسقف، والأرض كالبيت، وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت.

وقال رضى الله عنه: نحن في الدنيا بأبداننا مع وجود أرواحنا، وسنكون في الآخرة بأرواحنا مع وجود أبداننا.

وسمعه يقول: الفرق بين معصية المؤمن ومعصية الفاجر من ثلاثة أوجه: المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصرّ عليها بعد فعلها، والفاجر ليس كذلك.

وقال رضى الله عنه لبعض أصحابه:

ليكن ذكرك الله، فإن هذا الاسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمره، فبساطه العلم وثمرته النور.

ثم النور ليس مقصوداً لنفسه وإنما ليقع به الكشف والعيان.

وجاءه رجل فقال له: يا سيدى، هذا فتى.

فقال له الشيخ: أنت فتى؟ قال: نعم.

فقال له الشيخ: تدري ما الفتوة؟ ليست الفتوة الماء والملح، وإنما الفتوة الإيمان والهداية: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٢٤).

والفتى كما قال الله سبحانه عن إبراهيم: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ (٢٥). فسُمي فتًى لأنه كسر الأصنام، فمن كسر الأصنام فهو الفتى. الخليل عليه السلام وجد أصناماً حسية فكسرها، وأنت لك أصنام معنوية فإن كسرتها كنت فتى. وبلك أصنام خمسة: النفس، والهوى، والشيطان، والشهوة، والدنيا. فإن كسرتها فأنت الفتى. وافهم ههنا لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على.

وسئل رضى الله عنه فقيل له: يا سيدي لم بدأ صاحب الرسالة بإبراهيم بن أدهم دون غيره وربما كان غيره متقدماً عليه في التاريخ؟

فقال الشيخ رضى الله عنه: لأن إبراهيم بن أدهم كان من ملوك الدنيا فأصبح وهو كذلك، فجاء وقت الظهور وهو من كبار الأولياء، فبدأ به صاحب الرسالة ليعلم أن فضل الله ليس بعمل.

وقال رضى الله عنه:

عبدٌ هو في الحال بالحال.

وعبدٌ هو في الحال بالمحول.

فالذى هو في الحال بالحال هو عبد الحال.

والذى هو في الحال بالمحول عبد المحول.

وأما من هو في الحال بالحال أن يتأسف عليها إذا فقدها ويفرح بها إذا وجدها.

والذى هو في المحال بالمحول لا يفرح بها إذا وجدها ولا يحزن عليها إذا فقدها.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن من تحقق بالله ملك الأشياء ولم تملكه فيصير الحال تحت قهر تصرفه، وإنما يكون ذلك للرجل لرسوخه في العلم بالله، والعلم حاكم على الحال وبه يوزن، والحال إنما هو فرع من فروع العلم، والعلم قارٌّ ثابت، والحال لا بقاء لها؛ لذلك قالوا:

لو لم تحلّ منّا سميت حالاً وكسل ما حال فقد زال

انظر إلى الظل إذا ما انتهى يأخذ في النقص إذا طالا

والأكابر ملكهم الله أحوالهم، وجعلهم حاكمين عليها، ومن هنا لما قيل للجنيد: ما لنا نرى المشايخ يتحركون في السماع وأنت لا تتحرك؟ فقال رضى الله عنه:

﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب﴾ (٢٦).

وقيل لبعضهم: مالك لا تتحرك في السماع؟ فقال: إنه إذا كان في الجمع كبير احتشمت منه فأمسكت على وجدى، فإذا خلوت وحدى أرسلت على وجدى فتواجهت.

فانظر كيف كان زمام حاله معه يسكها إذا شاء، ويطلقها إذا شاء اتسع القلب بمعرفة الله غرقت

فيه الواردات، وإنما يبدو أثر الحال على من ضاق عن سماعها، والعارف له وسع المعرفة، فإن ورد الوارد عليه غرق في وسع معرفته، وهل رأيت بحرًا فاض بمطر سحاب؛ ولهذا جهلت أحوال الأكابر أرباب المقامات، واشتهر أهل الأحوال لظهور آثار المواهب عليهم لضعفهم عن كتمها ولضيقهم عن سماعها، فربما كان صاحب الحال أحظى بإقبال الخلق من صاحب المقام، وبينه وبينه مثل ما بين السماء والأرض.

وكلما تمكن الرجل في العلوم الإلهية والمعارف الربانية استغرب في هذا العالم، فيقل من يعرفه ويفقد من يحيط به فيصفه.

وقال رضى الله عنه: كل سوء أدب يشر لك أدبًا فهو أدب.

وقال رضى الله عنه: المؤمن لا يرضى عن نفسه بالخير إذا كان فيه، لأن فوق الخير خيرات أتراه يرضى بالشر؟

وقال رضى الله عنه: كان الجنيد قطبًا في العلم وكان سهل بن عبد الله التستري قطبًا في المقام وكان أبو يزيد البسطامي قطبًا في الحال.

وقال رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف.

ومعنى كلام الشيخ هذا: أن اللطف إذا ورد على العبد فإن كان في الدائرة النفسانية تلقت النفس بالباشاشة والفرح، وإن كان في الدائرة المعنوية تلقت الروح بالمحبة والمقة^(٢٧)، فيقع الميل ويكون عن الميل السكون، ويقع مع السكون الأنس بالمسكون إليه، والله لا يحب لك أن تسكن لغيره ولا أن تأنس بشيء دونه؛ فلذلك قال الشيخ رضى الله عنه: اللطف حجاب عن اللطيف أى السكون إليه والإقامة عنده.

وهذا كما تقدم عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضى الله عنه أنه دخل على بعض الرجال فقال له: كيف حالك؟ فقال له الشيخ: أشكو إلى الله من برد الرضا والتسليم كما تشكو أنت من حرّ التدبير والاختيار.

فقال له الرجل: أما شكواي من حرّ التدبير والاختيار فقد ذقتة وأنا الآن فيه، وأما شكواك أنت من برد الرضا والتسليم فكيف؟ فقال: أخاف أن تشغلني حلاوتها عن الله.

وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: يا موسى نعم العبد يرخ لولا أنه يسكن إلى نسيم الأسفار ومن عرفني لا يسكن لغيري.

وكان عندنا بالإسكندرية امرأة عارفة بالله أخبرتني أنها سمعت قائلًا يقول لها: أعوذ بك من النور وفتنته، ومن الغيب وتلقته.

وأخبرتني أيضًا قالت: كنت أمشي بالإسكندرية وإذا يناس في هوهم وطربهم فقلت في نفسي: هؤلاء في فرح ومسرة وحلم الله من ورائهم ونحن في ملاقات النوازل وقهر الأحكام.

قالت: فإذا قائل يقول لى: ليس أهل الحضرة والأدب كأهل اللهو والطرب.

وأخبرتني أيضًا قالت: إذا كنت في حضرة أو موقف وأرادني زوجي ليقضى إربه مني لا أمتعه ولا يستطيع ذلك كلما أراد مني أمرًا عجز عنه. قالت: حتى يضيق خلقه ويقول: ما هذه إلا حسرة هذه الشابة في حسنها بين يدي ولا تمتنع مني ولا أصل إليها. فأقول له في ذلك الوقت: من هو الرجل فينا ومن هو المرأة؟

قالت: وإذا كان وقت ستر أمكنه مني ما يريد.

وقال الواسطي: استحلاء الطاعات سموم قاتلة وصدق رضى الله عنه.

وأقل ما في ذلك أنك إذا فتح لك باب حلاوة الطاعة نصير قائمًا فيها متطلبًا للحلاوتها فيفوتك صدق الإخلاص في نهوضك لها وتحب دوامها لا قيامًا بالوفاء ولكن لما وجدت فيها من الحلاوة والمتعة فتكون في الظاهر قائمًا لله وفي الباطن إنما قمت لحظ نفسك، وتخشى عليك أن تكون حلاوة الطاعة جزاءً تعجلته في الدنيا فتأتي يوم القيامة ولا جزاء لك.

وقال رضى الله عنه: لما قرأت عليه كتاب الحقائق للسلمي فقال فيه انتهى عقل العقلاء إلى الخيرة، فقال الشيخ رضى الله عنه عن الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه: ولا حيرة عند المحققين فيها فيه الخيرة عند المؤمنين.

وقال رضى الله عنه: الناس على ثلاثة أقسام: عبد هو بشهود ما منه إلى الله، وعبد هو بشهود ما من الله إليه، وعبد هو بشهود ما من الله إلى الله.

ومعنى كلام الشيخ هذا: إن من الناس من يكون الغالب عليه شهود تقصيره وإساءته فيقوم مقام المتعذرين بين يدي الله تعالى وتلازمه الأحران وتحالفه الأشجان فيستولى عليه الكمد كلما بدت منه سيئة أو كشف له من نفسه عن أوصاف سوء.

وعبد آخر الغالب عليه شهود ما من الله إليه من الفضل والإحسان والجود والامتنان فهذا تلازمه المسرة بالله والفرح بنعمة الله، قال الله سبحانه:

﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ (٢٨).

فالأول: حال العباد والزهاد.

والثاني: حل أهل العناية والوداد.

الأول: شأن أهل التكليف.

والثاني: شأن أهل التعريف.

الأول: حال أهل اليقظة.

والثاني: حال أهل المعرفة.

فلذلك قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: العارف من عرف شدائد الزمان في الألفاظ الجارية من الله عليه، وعرف إساءة نفسه في إحسان الله إليه، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون.

قال أيضًا: قليل العمل مع شهود المنة من الله خير من كثير العمل مع رؤية التقصير من النفس.
قال بعض أهل المعرة: لا يغفلو شهود التقصير من الشرك في التقدير.
وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قرأت ليلة من الليالي: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى أن انتهت إلى قوله: ﴿من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

فقبل لى: شر الوسواس وسواس يدخل بينك وبين حبيبك، ينسبك ألقافه الحسنه، ويذكرك أفعالك السيئه، ويقتل عنك ذات اليمين، ويكثر عليك ذات الشمال، ليعدل بك عن حسن الظن بالله ورسوله إلى سوء الظن بالله ورسوله.

فاحذر هذا الباب فقد أخذ منه كثير من الزهاد والعباد وأهل الجهد والاجتهاد.
ولذلك قل أن تجد الزاهد والعايد إلا مكموذًا حزينًا لأنه علم أن الله طالبه بالعبودية وحمله أعباءها وألزمه ما أشققت السموات والأرض والجبال من حمله.
قال الله سبحانه: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً﴾ (٢٩).

فما بين الزهاد ثقل ما حملوا ولم ينفذوا إلى شهود لطف الله الحامل للأثقال عن عباده المتوكلين عليه؛ فلذلك لزمهم الكمد، واستولى عليهم الحزن.

وأهل المعرفة بالله علموا أنهم حملوا من التكاليف أمرًا عظيمًا وعلموا ضعفهم عن حمله وعن القيام به متى وكلوا إلى نفوسهم، قال الله سبحانه: ﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ (٣٠) وعلموا أنهم إذا رجعوا إلى الله حمل عنهم ما حملهم قال الله سبحانه: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (٣١) فرجعوا إليه بصدق الرجعى فحمل عنهم الأثقال فساروا إلى الله محمولين فى محفات المتن تروح عليهم نفحات اللطف.

والآخرون ساروا إلى الله حاملين لأثقال التكاليف، تلازمهم المشقات، وتطول بهم المسافات، فإن شاء أدركهم بلطفه فأخذ بأيديهم من شهود معاملتهم إلى شهود سابق توفيقه لهم فطابت لهم الأوقات وأشرقت فيهم العنايةات.

وأما القسم الثالث: وهم الذين مع الله بشهود ما من الله إلى الله: هؤلاء هم أهل التوحيد والداخلون فى ميادين التفريد.

فأما أهل القسم الأول وهم الذين عليهم شهود ما منهم إلى الله فلم يخرجوا عن باطن الشرك وإن خرجوا عن ظاهره؛ لأنهم أقبلوا على نفوسهم مؤيخين لها شاهدين لتقصيرهم وإساءتهم فلم يشهدوا الفعل لها أو منها ما توجهوا إليها بالتوبيخ إذا قصرت؛ فلذلك قال العارف الذى سبق قوله: لا يغفلو شهود التقصير من الشرك فى التقدير.

(٢٩) الطلاق: ٢.

(٢٩) الأحزاب: ٧٢.

(٣٠) النساء: ٢٨.

فإن قلت: إذ كان توبيخ النفس وذمها يستلزم دقيقة الشرك فكيف نصنع والله قد ذم النفس وأمرنا بتوبيخها إذا قصرت ووبخها هو إذا كانت كذلك؟
فالجواب: أن ذمها لازم لأن الله أمرك بذمها من غير أن تشهد لها قدرة أو تضيف لها فعلاً تراها هي الفاعلة له.

وأما القسم الثاني هو الذي يشهد ما من الله إليه فهو وإن كان خيراً من القسم الأول لكنه ما سلم من إثبات لنفسه إذ رأى نفسه مهداة إليها هدايا الحق، فلولا إثباته لنفسه ما شهد ذلك؛ فلاجل هذين المعنيين آثر أهل الله القسم الثالث وهو أن يكونوا بشهود ما من الله إلى الله فاقهم. وقال رضى الله عنه: العارف إذا خوّف خاف، قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ﴾ (٣٢).

يريد الشيخ رضى الله عنه: أن العارف لا يقطعه فضل الله عن شهود عدله، ولا يحجبه شهود لطفه عن خوف ما بطن في مشيئته.
ويجب أن تعلم أن أهل المعرفة في نهاياتهم ربما التبس حالهم بأهل البدايات في بداياتهم. فإن المرید في مبدأ إرادته تؤثر فيه المخاوف لعدم استيلاء سلطان الحقيقة عليه، فإذا تحقق فناؤه لم تؤثر فيه الواردات ولم يدخل تحت حكم العادات، فإذا ردّ إلى حالة البقاء أثرت الأشياء فيه كحالة في بدايته.

﴿منها خلقتناكم وفيها نعيدكم﴾ (٣٣).

فتجد المرید يخوّف فيخاف والعارف يخوّف فيخاف وليسوا وإن استويا في الظاهر بسواء. فتخوف المرید لأجل ججيته، وخوف العارف لكمال معرفته.
ومن هنا لا تفضل عبداً واثقاً بلطفه ومنته على خائف من غيب مشيئته.
وكذلك لا تفضل عبداً وقف مع ظاهر الوعد على عبداً ردّ إلى وجود الأزلية فاقتطع عن الوقوف مع الوعد الجميل والنعيم وردّ إلى ما سبق في القدم.

وقد جاء أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر - وقد رفع يديه إلى السماء: اللهم إن تهلك هذه العصاة لا تعبد، وما زال يناشد ربه حتى سقط الرداء عن منكبيه فقال أبو بكر رضى الله عنه: يكفيك بعض مناشدته لربك يا رسول الله فإنه منجز لك ما وعدك (٣٤). فالرسول ﷺ لكمال علمه بالله كان يشهود المشيئة، وأبو بكر رضى الله عنه كان يشهود الوعد الجميل.

ورسول الله ﷺ علم ما علمه أبو بكر من الوعد الجميل.

كيف، والوعد إنما وصل إلى بكر على يد رسول الله ﷺ.

(٣٤) سيرة ابن هشام، والسيرة النبوية لابن كثير.

(٣٢) الشعراء: ٢١.

(٣٣) طه: ٥٥.

غير أنه سلك الله به المسلك الأتم من الرجوع إلى مشيئته التي لا تتوقف على شيء وتتوقف عليها كل شيء.

وقال رضى الله عنه: ليس الشأن من تطوى له الأرض فإذا هو بمكة أو غيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه، فإذا هو عند ربه.

وقال رضى الله عنه عن شيخه: خرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله. وقال رضى الله عنه عن شيخه: من لم يتغلغل في هذه العلوم مات مصراً على الكبائر وهو لا يعلم.

وسمعتة يقول عن شيخه أبى الحسن رضى الله عنه: كل شيء نهاك الله عنه فهو شجرة آدم إلا أنه لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة، وأنت إذا أكلت من شجرة النهى تنزل لماذا، إنما تنزل إلى أرض القطيعة.

وقال رضى الله عنه: كان ببلاد المغرب ولّى من الأولياء يتكلم على الناس وكان بادئاً، فجلس يوماً يتكلم على الناس فقال رجل مكشوف الرأس كبيرة: هذا رجل يزهدنا في الدنيا وهو كالدب. فكوشف به الشيخ فقال من فوق المنبر: يا أبا رويس ما سمعتي إلا حبه. ثم أنشد:

وقسائل لست بالمحب ولو كنت محباً لذبت منذ زمن
أجبتة والفؤاد في حرق لم تسدق الحب كيف تعرفني
أحب قلبي وما درى يدنى ولو درى ما أقام في السمن

وقال رضى الله عنه: عزم إنسان على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فأق إلى أصحابه معه فلما أكلنا وعزمنا على الخروج ولم نشرب، فقال الشيخ: يا بخلاء من يخل الصوفى أن يأكل ولا يشرب، ثم قال: قال رسول الله ﷺ: من سقى مؤمناً شربة ماء مع وجود الماء كان كمن أعطى سبعين من ولد إسماعيل.

ثم قال الشيخ: إذا أكلتم طعام إنسان فاشربوا عنده حتى ينال هذا الأجر العظيم. وقال رضى الله عنه: دخلت يوماً على الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه فقال لى: إن أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله. فقلت في نفسي: كان النبي ﷺ يقبل الهدية، وقال: ما أتاك من غير مسألة فخذ. فقال الشيخ: كأنك تقول كان النبي ﷺ يقبل الهدية (٣٥)، وقال ما أتاك من غير مسألة (٣٦). فخذ، النبي ﷺ قال الله في حقه:

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ (٣٧).

متى أوحى الله إليك؟ إن كنت مقتدياً به في الأخذ فكن مقتدياً به كيف يأخذ، كان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ليشب من يعطيه ويعوضه عليه، فإن تطهرت نفسك وتقدّست هكذا فاقبل ولا فلا.

وقال لبعض أصحابه: لم تنقطع عني؟ قال: يا سيدي استغثت بك.
فقال الشيخ رضي الله عنه: ما استغنى أحد بأحد، ما استغنى أبو بكر برسول الله ﷺ ولم ينقطع عنه يوماً واحداً.

وقال رضي الله عنه: إن الله لما خلق الأرض اضطربت فأرساها بالجبال فقال عز وجل: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾ (٣٨) كذلك لما خلق الله النفس اضطربت فأرساها بهيال العقل. فأنى عبد توفر عقله واتسع نوره نزلت عليه السكينة من ربه فسكنت نفسه عن الاضطراب، ووبقت يولى الأسباب فكانت مطمئنة أى ساكنة لأقداره، ممدودة بتأييده وأنواره، حائدة عن التدبير والمنازعة للمقادير، اطمأنت لمولاهما تعلمها أنه يراها.

أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد.

فاستحقت أن يقال لها:

﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَى إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مُرْضِيَةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٣٩).

وقال رضي الله عنه عن شيخه: الوقت ليل، والشأن في الليل الخمود والسكون حتى تطلع شمس المعرفة أو قمر التوحيد أو نجوم العلم فيستضاء بها.

وقال رضي الله عنه: يقول الله عز وجل:

ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك، وخلقتك من أجل، فلا تشتغل بما هو لك عن أنت له.

وقال رضي الله عنه: الأكوان كلها عبيد مسخرة، وأنت عبد الحضرة.

وسمعه يقول: حقيقة النية عدم غير المنوى.

وسمعه يقول: قال عيسى عليه السلام: يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء فمن ينزل به، ولا في الأرض فمن يصعد به، تأدبوا بأداب الروحانيين، وتخلّقوا بأخلاق النبيين أنيع لكم العلم من قلوبكم ما يقرركم ويفطّركم.

وقال رضي الله عنه: نحن إذا أتانا مرید له شيء من الدنيا لا نقول له أخرج عن دنياك وتعال ولكن ندعه حتى ترسخ فيه أنوار المعرفة فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه، ومثل ذلك قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها: هذا تهبّ ريح شديدة لا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم فارموا بها الآن. فلا يسمع أحد قوله، فإذا هبت العواصف كان الكيس من يرمى متاعه بنفسه، كذلك إذا هبت عواصف اليقين يكون المرید هو الخارج عن الدنيا بنفسه.

وكان يحكى عن الشيخ عبد الرزاق - الولي الكبير رضي الله عنه - أن رجلاً من أهل المهديّة أتاه فقال له الشيخ: أرى عليك أثر نعمة فمن أين أنت وما قصتك؟ قال: يا سيدي كنت من أكابر المهديّة وأعيانها وأكثر أهلها مالاً وعزّاً، فورد علينا رجل يدعى أنه من الدّالّين على الله فجئت إليه

وأنا متطلع محترق على الوصول إلى الله فقال لي: إنك لا تصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله، وحتى تطلق نساءك بناتاً، وحتى تغير زيّك. ففعلت ذلك فما ازداد قلبي إلا قسوة، فضاقت صدري وحررت في أمري ولم أطق أن أقيم بالمهدية وقد ذهب ما كنت فيه من المال والجاء ولم أتعوض عن ذلك بشيء في باطني فبحثت إلى هنا قاصداً للحج.

فقال الشيخ عبد الرزاق دعوى على غير بصيرة قاتلهم الله، امكث عندنا. فلما جاء أوان الحج أرسله الشيخ مع بعض أهل الإسكندرية فحجّ ثم رجع إلى الشيخ بالإسكندرية فلما جاء أوان السفر إلى المغرب، قال له الشيخ: اذهب إلى بلدتك فإذا وصلت إليها فإن الناس يسمعون بك ويخرجون إليك مسرعين ويعرضون عليك الملابس والمراكب فخذ أفضلها ملبساً وأحسنها مركباً وادخل إلى المهدية فما حمل إليك من الدنيا فاقبله، وسيعيد الله ما كان لك وأكثر منه، وتجد زوجاتك قد طلقهن أزواجهن فتراجعهن، وتنال من العز والرفعة والغنى أكثر مما كنت فيه، فإذا تكمل لك ذلك كله فتح الله عينى قلبك.

قال: فسافر من عند الشيخ وأتى ساحل المهدية فسمع الناس أن فلاناً أتى من المشرق وليس في اليلدة إلا من له عليه يد ومعروف، فخرجوا يهرعون إليه بالملابس السنية والمراكب البهية، فلبس أحسنها ملبساً وركب أفضلها مركباً، ودخل المهدية فأهديت له الهدايا وحملت إليه التحف والأموال، ووجد زوجاته قد طلقن وانقضت عدتهن فراجعهن، فتكمل له جميع ما وعده به الشيخ في ذلك اليوم ثم فتح الله عينى قلبه.

وتكلم يوماً في فضائل أبي بكر رضى الله عنه فقال:

قال رسول الله ﷺ: ما فضلكم أبو بكر بصوم ولا صلاة ولكن بشيء وقر في صدره. ثم قال: ما هو هذا الشيء الذي وقر في صدره؟

فقال بعض الحاضرين: المراقبة.

فقال الشيخ: هذا كلام هو قشور.

من هو دون الصديق في الرتبة إذا وجد المراقبة يستغفر الله منها كما يستغفر العاصي من المعصية، وذلك أنه إذا أضاف المراقبة لنفسه كأنه يقول أنت الرقيب وأنا الرقيب: ﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وقال رضى الله عنه يوصى بعض أصحابه لما عزم على الحج:

إذا وصلت إلى البيت فلا يكوننْ ههنا البيت وليكن ههنا رب البيت، ولا تكن ممن يعبد الأصنام والأوثان.

وقال: من عرف الله لم يسكن إلى الله، لأن في السكون إلى الله ضرب من الأمن ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

ومثل هذا ما قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: قيل لي لا تأمنن مكرى في شيء وإن أمنتك فإن علمى لا يحيط به محيط. وهكذا كانوا.

وكان يقول: إن الولي في فئاته لأبد أن تبقى معه لطيفة علمية عليها يترتب التكليف، وذلك كما يكون الإنسان في البيت المظلم فهو عالم بوجوده وإن كان غير مشاهد له.
وكان يقول: «والله ما جلست حتى جعلت الطيران في الهواء والمشى على الماء وطفى الأرض تحت سجادتي».

وقال رضي الله عنه وقد قرأت عليه «الرعاية» للمحاسبي: كل ما في هذا الكتاب يغني عنه كلمتان: اعبد الله بشرط العلم ولا ترض عن نفسك بشيء.
ثم لم يأذن في قراءته بعد.
وسئل عن بعض المشايخ الكاثنين في وقته فقال: ضيق الله عليه بالورع، ونحن وسع الله علينا بالمعرفة.

وكان يقول في قول بعض أهل الطريق:
العارف وسعته المعرفة، والورع ضيق عليه الورع.
لا تظن أن قولهم: العارف وسعته المعرفة، أنه يأكل حراماً أو ما فيه شبهة، ولكن العارف ذو بصيرة منيرة يكشف له ما غطى عن الورع فيمد يده إلى ذلك الطعام لعلمه بحله وسلامته من الشبهة على ما أشهدته بصيرته، والورع مستور ذلك عنه؛ فلذلك ربما مد العارف يده إلى ما قبض المتورع يده عنه.

وكان رضي الله عنه يقول: من اشتاق إلى لقاء ظالم فهو ظالم.
وكان رضي الله عنه يفضل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وهو مذهب ابن عطاء ومذهب أبي عبد الله محمد الترمذي الحكيم، ويقول:
الشكر صفة أهل الجنة والصبر ليس كذلك.
وسمعه يقول: القبض على قسمين: قبض له سبب، وقبض لا سبب له. القبض الذي له سبب يكون للعموم والخصوص، والقبض الذي لا سبب له لا يكون إلا لأهل التخصيص.
وكان رضي الله عنه يقول:

الشكر انفتاح القلب لشهود منة الرب.
يقال: شكر، ومقلوبه كشر، يقال: كشرت الدابة إذا كشفت عن أنيابها.
وقال بعض العارفين: لو علم الشيطان أن طريقاً يوصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف فيها، ألا تراه كيف قال:
﴿ثم لآتيتهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ (٤٠).

ولم يقل ولا تجد أكثرهم صابرين ولا خائفين ولا راجين.

ولما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور بالإسكندرية لاجئين رحمه الله قلت له:
يجب عليكم الشكر لله، فإن الله تعالى قد قرن دولتكم بالرخاء فأنشروا قلوب الرعية بكم،
والرخاء أمر لا تستطيع الملوك تكسبه ولا استجلايه كما يتكسبون العدل والجهود والعطاء.
فقال: وما هو الشكر؟

قلت: الشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجنان، فشكر اللسان
التحدث بنعم الله، قال الله سبحانه:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (٤١).

وشكر الأركان بالعمل بطاعة الله قال الله سبحانه:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ سُكْرًا﴾.

وشكر الجنان الاعتراف بأن كل نعمة بك أو بأحد من العباد هي من الله قال الله سبحانه:

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (٤٢).

ومن القسم الأول قال رسول الله ﷺ:

«التحدث بنعم الله شكر».

ومن الثاني، أنه قام رسول الله ﷺ حتى تورمت قدماء، فقبل له: أنتكلف ذلك وقد غفر الله لك
ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال:

«أفلا أكون عبداً شكوراً» (٤٣).

ومن الثالث، كان رسول الله ﷺ إذا أصبح قال: «اللهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من
خلقك فمنك وحده لا شريك لك» وهذه الأحاديث لم أستحضرها وقت مخاطبتي له.

فقال: وما الذي يصير به الشاكر شاكراً؟

قلت له: إذا كان ذا علم فبالتيبين والإرساء، وإذا كان ذا غنى فبالبدل والإيثار للعباد، وإذا كان
ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد عنهم.

وقال رضي الله عنه: إن لله ملكاً يلا ثلاث الكون، وإن لله ملكاً يلا ثلثي الكون، وإن لله ملكاً يلا
الكون كله، وإن لله ملكاً لو وضع قدمه في الأرض لم يجد أين يضع الثانية.

ثم قال: يقول القائل: إذا كان ملك يلا الكون كله فأين يكون الذي يلا ثلث الكون، والذي
يلا ثلثي الكون فقال رضي الله عنه جواباً عن ذلك: اللطائف لا تتزاحم، كعمل سراج أدخلته بيتاً
فملاً البيت نوره ولو أتيت بعد ذلك بألف سراج لوسع ذلك البيت أنوارها.

وسمعت يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي بكر: يا أبا بكر أتريد أن أدعوك لأمر؟ قال: وما هو

يا رسول الله؟ قال: هو ذاك.

وسمعتة يقول:

قال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر أتعلم يوم يوم؟
قال: نعم يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير، ولقد سمعتك حينئذ وأنت تقول:
أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله.

وقال رضى الله عنه:

أبو بكر وعمر خلفاء الرسول وعثمان وعليّ خلفاء النبوّة.

وقال رضى الله عنه: العامّة إذا رأوا إنساناً ينسب إلى طريق الله جاء من البرارى والقفار أقبلوا عليه بالتحظيم والتكريم وكم من وليّ لله وبذل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالاً وهو الذى يحمل أثقالهم ويدافع الأغيار عنهم فمثلهم في ذلك كمثل حمار الوحش يدخل به البلدة فتطوف الناس به متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورته والحمر التى بين أظهرهم وهى التى تحمل أثقالهم لا يلتفتون إليها.

وقال: قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

يا أبا العباس، إذا قال أحد فيك ما ليس فيك فقل:

الله يعلم منى ما يعلم وإلى الله عاقبة الأمور.

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

علم الله ما يقال في أوليائه والصديقين فبدأ بنفسه، ففضى على قوم أعرض عنهم فنسبوا إليه الزوجة والولد.

فإن قيل في صديق إنه زنديق، أو قيل في وليّ إنه غافل عن الله غوى، فإن ضاق الولي أو الصديق بذلك ذرعاً قيل له: الذى قيل فيك هو وصفك لولا فضلى عليك، وقد قيل في ما لا يستحقه جلالى.

وقال رضى الله عنه: الهالك بهذه الطائفة أكثر من الناجى.

واعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ليرفع بالصبر على أذاهم مقدارهم، ولتكمل بذلك أنوارهم، وليتحقق الميراث فيهم، ليؤدوا كما أودى من قبلهم فيصبروا كما صبروا، ولو كان من أتى يهذى إطباق الخلق على تصديقه هو الكمال في حقه، لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ، وقد صدّقه قوم هداهم الله بفضل، وحرّم من ذلك آخرون حججهم الحق عن ذلك، فانقسم العباد في هذه الطائفة إلى معتقد ومنقذ، ومصدق ومكذب، وإنما يصدّق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يلحقه بهم، والمعتزف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل، لغلبة الجهل، واستيلاء الغفلة على العباد، وكرهية الخلق أن يكون لأحد عليهم شفوف في منزلة، أو اختصاص بمنّة، ألم تسمع قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤٤)؟ ومن أين للعباد أن يعلموا أسرار الحق في أوليائه،

وشروق نوره في قلوب أحبائه؟ وسبب هلاك المالك بهم أن من أظهره الله منهم لابد وأن يظهره بيوهر المنن، وخوارق العادات، فتستغرب عقول العموم أن يعطى ذلك غير الأنبياء، وأن تظهر الخوارق إلا في أهل العصمة، وهؤلاء لم يعلموا أن كل كرامة لولى هي معجزة لذلك النبي الذي هذا الولي تابع له، فظن هؤلاء أن جريان الكرامة على الولي مساهمة لمقام النبوة، وحاشا لله أن يشترك النبي والولى في مقام، كيف وقد قال أبو يزيد: جميع ما أخذ الأولياء بما هو للأنبياء كزق ملء عسلًا فرشحت منه رشاحة، فما انطوى عليه الزق فهو مثل علوم الأنبياء، وتلك الرشاحة هي حظ الأولياء منهم.

واعلم رحمك الله أن من اعترى بعزيم لم يشاركه في العز، فأولياء الله اعترؤوا بالأنبياء الذين اعتدوا بهداهم واقتفوا سبيلهم فلا يشاركونهم في عزهم؛ لأن بهم اعتزازهم، ألم تسمع قول المولى تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْعَزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٤٥)؟ فلم يكن إثبات العزة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من عبادته يوجب شركة الله في عزه.

وحكمة الله اقتضت عدم اتفاق العباد على الولي بل انقسم الأمر فيه كما بيناه لما بيناه. ولأمر آخر وهو أنه لو كان الخلق كلهم مصدقين للولى قاته الصبر على تكذيب المكذبين له، ولو كان الخلق كلهم مكذبين له قاته الشكر على تصديق المصدقين له، فأراد الله سبحانه بحسن اختياره لأولياته أن يجعل العباد فيهم على قسمين مصدق ومكذب؛ ليعبدوا الله فيمن صدقهم بالشكر وفيمن كذبهم بالصبر، والإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر.

واعلم أنه لعزاة قدر الولي عند الله لم يجعله إلا محجوبًا عن خلقه وإن ظهر بينهم؛ لأنه ظهر لهم من حيث ظاهر علمه، ووجود دلالتهم، وبطن بسر ولايتهم.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه:

لكل ولي حجاب وحجاب الأسباب.

فمنهم من حجابه ظهوره بالسطوة والعزة، والنفوس لا تحتل صفة من هذا وصفه، وسبب ظهور ذلك الولي بذلك تجلي الحق عليه بصفة ظهر بها، فإذا غلبت عليه شهوة غلبت عليه ظهورًا، فلا يصحبه ولا يتيت معه إلا من بحق الله نفسه وهواه.

ومن هذا الصنف كان شيخنا أبو العباس رضى الله عنه لا تجلس بين يديه إلا والرعب قد ملك قلبك.

ومن خلصه الله من نفسه وهواه فلا يستغرب ظهوره بالعز، وأى ملك أعظم من هذا الملك؟ هذا ملك أعوز الملوك وجوده.

أفلا ترى أنه لم يزل في كل قطر وعصر أولياء تدل لهم ملوك الزمان ويعاملونهم بالطاعة والإذعان؟ ومنهم من يكون حجابهم كثرة التردد إلى الملوك والأمراء في حوائج عباد الله فيقول القصير الإدراك: لو كان هذا وليًا ما تردد إلى أبناء الدنيا.

وهذا جورٌ من قائله، بل انظر تردده إليهم: إن كان لأجل عباد الله وكشف الضر عنهم، وتوصيل ما لا يستطيعون توصيله إليهم، مع الزهد واليأس بما في أيديهم، والتعزُّز بعز الإيمان وقت مجالستهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، فلا حرج على من هذا شأنه لأنه من المحسنين، وقد قال الله سبحانه: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ (٤٦).

وهكذا كان سبيل شيخ شيخنا القطب الكبير أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه، حتى لقد سمعت الشيخ الإمام مفتي الأنام تقي الدين محمد بن علي القشيري رضي الله عنه يقول: جهل الناس وولاة الأمور بقدر الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عن حسن كثرة ترداده إليهم في الشفاعات.

ويجب أن تعلم أن هذا الأمر لا يقدر عليه إلا عبدٌ متخلّي بخلق الله، قد بذل نفسه وأدّها في مرضاة الله، وعلم وسع رحمة الله، فعامل بالرحمة عباد الله ممثلاً لقول رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» (٤٧).

ولقد بلغني عن الشيخ أبي الحسن رضي الله عنه أنه استدعى يهودياً كحلاً ليداوي بعض من عنده، فقال له اليهودي: لا أستطيع أن أعالجه إلا بإذن، فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يداوي أحد من الأطباء إلا بإذن من رئيس الطب بالقاهرة، فلما خرج اليهودي من عنده قال الشيخ لحداومه: هيتوا آلة السفر. وسافر لوقته إلى القاهرة وأخذ لهذا الطبيب إذناً وعاد ولم يبت بها ليلة واحدة ثم جاء إلى الإسكندرية، فأرسل إلى ذلك اليهودي فاعتذر له بما اعتذر به أولاً فأخرج له الشيخ مكتوباً بالإذن فأكثر اليهودي التعجب من هذا الخلق الكريم.

وقد يكون حجاب الولي كسرة الغنى وانبساط الدنيا عليه.

وقال بعض المسايخ: كان رجل بالمغرب من الزاهدين في الدنيا ومن أهل الجد والاجتهاد، وكان عيشه مما يصيده من البحر، وكان الذي يصيده يتصدق ببعضه ويتقوّت ببعضه، فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ:

إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخى فلان فأقره مني السلام وتطلب الدعاء منه لي فإنه ولي من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل، فدللت على دار لا تصلح إلا للملوك فتمجبت من ذلك وطلبتة فقيل لي: هو عند السلطان. فازداد تعجبي، فبعد ساعة وإذا هو أتى في أقميص ملبس ومركب، وكأنما هو ملك في موكب، قال: فازداد تعجبي أكبر من الأول قال: قهمت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنني مخالفة الشيخ، فاستأذنت فأذن لي، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارة الحسنة.

فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جئت من عنده؟

(٤٦) التوبة ٩٦.

(٤٧) أخرجه أحمد والترمذي والحاكم وأبو داود.

قلت: نعم.

قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجب من الأول.

فلما رجعت إلى الشيخ قال: اجتمعت بأخي فلان؟ قلت: نعم. قال: فما الذي قال لك؟ قلت: لا شيء. قال: لا بد أن تقول لي. فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلاً، وقال: صدق أخى فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي وعندي إليها بقايا التطلع.

ومن حجب أولياء الله قبولهم من الخلق، فإذا قيل الرجل ما يعطى صقر عند الخلق، وهم لا يكبر عندهم إلا من لا يقبل دنياهم، ومن إذا أعطوه ردّ عليهم وأبى من القبول منهم. ولعل فاعل ذلك إنما فعله زوافاً وزندقة، واستيلاًفاً لقلوب العباد عليه، وليتوجه بالتعظيم إليه، ولتنتطق الألسنة بالثناء عليه.

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: من طلب الحمد من الناس بترك الأخذ منهم فإنما يعبد نفسه وهواه وليس من الله في شيء.

ومما قد يصدّ عقول العموم عن أولياء الله وقوع زلة من تزياً بزيم أو انتسب إلى مثل طريقهم، والوقوف مع هذا حرمان ممن وقف معه، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (٤٨). فمن أين يلزم لما أساء واحد من الجنس، أو ظهر عدم صدقه في طريقه، أن يكون بقية أهل الطريق كذلك.

وقد أنشدنا الشيخ علم الدين الصوفي لنفسه رحمه الله تعالى:

استتار الرجال في كل أرض تحت سوء الظنون قدر جليل
ما يضير الهلال في حندس اللبيل سل سواد السحاب وهو جميل

وأشدّ حجاب يحجبه عن معرفة أولياء الله شهود المماثلة، وهو حجاب قد حجب الله به الأولين، قال الله سبحانه حاكياً عنهم:

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ (٤٩).

وقال سبحانه حاكياً عنهم:

﴿أَبَشْرًا مِثًّا مِثْلُكُمْ تَتَّبِعُهُ﴾ (٥٠).

وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (٥١).

(٥٠) القمر: ٢٤.

(٥١) الفرقان: ٧.

(٤٨) الأنعام: ١٦٤.

(٤٩) المؤمنون: ٣٣.

وإذا أراد الله أن يعرفك بولى من أوليائه طوى عنك شهود يسريته وأشهدك وجود خصوصيته.
وصية وإرشاد:

إياك أيها الأخ أن تصفى إلى الواعين في هذه الطائفة والمستهنين بهم، لئلا تسقط من عين الله، وتستوجب المقت من الله؛ فإن هؤلاء القوم جلسوا مع الله على حقيقة الصديق، وإخلاص الوفاء، وهزأقبة الأنفاس مع الله، قد سلموا قيادهم إليه، وألقوا أنفسهم سلماً بين يديه، تركوا الانتصار لنفوسهم حياء من ربه، واكتفاء بقيوميته، فقام لهم بأوفى ما يقومون لأنفسهم، وكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم ولقد ابتلى الله هذه الطائفة بالخلق خصوصاً أهل العلم الظاهر، فقل أن تجد منهم من شرح الله صدره للتصديق بولى معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن الأولياء موجودون ولكن أين هم؟ فلا يذكر له أحد إلا وأخذ يدفع خصوصية الله فيه، طلق اللسان بالاحتجاج، عارياً عن وجود التصديق، فاحذر من هذا وصفه، وقر منه قرارك من الأسد، جعلنا الله وإياك من المصدقين لأوليائه بمتة.

الباب التاسع

فيما قاله من الشعر أو قيل بحضرته، أو قيل فيه مما يتضمن ذكر خصوصيته

قال رضى الله عنه: أطلعني الله على الملائكة وهي ساجدة لآدم عليه السلام فأخذت بقسطنى من ذلك، فإذا أنا أقول:

ذاب رسمى وصح صدق فنائى	وتجلى للسر شمس ضيائى
وتنزلت في العوالم أبدى	ما انطوى في الصفات بعد صفائى
فصفائى كالشمس يبدو سناها	ووجودى كالليل يحفى سوائى
أنا معنى الوجود أصلاً وفصلاً	من رأى فساجد ليهاى
أى نور لأهله مستبين	أشهدونى فقد كشفت غطائى

وسئل رضى الله عنه عن الروح والنفس فقال:

إن كنت سائلنا عن خالص المتن	وعن تعلق ذات النفس بالبدن
وعن تشبهها بالخط مذ ألفت	أدراها فغدت تشكو من العطن
وعن تنزلها في حكمها ولها	علم يفرقها بالقبح والحسن
وعن يواعثها بالطبع مائلة	تهوى بشهوتها في ظلمة الشجن
وعن حقيقتها في أصل معدنها	لا يتثنى وصفها منها إلى وثن
فاسمع هديت علوماً عز سالكها	عن العيان ولا يفررك ذو لسن
قصداً إلى الحق لا تخفى شواهدا	قامت حقائقها بالأصل والفن
يا سائلي عن علوم ليس يدركها	ذو فكرة بفهوم لا ولا فطن
لكن ينور على جامع حمدت	له العقول وكل الخلق في وسن
خذها إليك بحق لست جاهله	والأمر مطلع والحق قيّدى
عن الحقيقة خذ علم الأمور ولا	تحجيك صورتها في عالم الوطن
تطور النفس سرّاً لا يحيط به	عقل تقيد بالأوهام والبدن
لكنها برزت بالحكم قائمة	حتى تألفها السكان بالسكن
وكى يقال عبيد قائمون بما	ألقى من الأمر قبل الخلق والمحن
والنفس بين نزول في عوالمها	كسأدم وله حواء في قرن
والروح بين ترق في معارجها	وهي السوايق للتعريف والمن
مشالها في العلا مرآة معدنها	ألفافها خفيت كالسر في العن
زيتونة زيتها نور لشاربها	مدت هدايتها في الكون والكين

والكل أنت بمعنى لا خفاء به
والعبد محتجب في عز مالكة
وكان ينشد رضى الله عنه:

لو عاينت عيناك يوم تزلزلت
لرأيت شمس الحق يسطع نورها
وقال: الأرض أرض النفس، والجهال جهال العقل، والشمس شمس المعرفة.
وكان ينشد رضى الله عنه:

وقفت على التوباذ حين رأيت
فقلت له أين الذين عهدتهم
فقال مضوا واستودعوني ديارهم
وكان ينشد رضى الله عنه:

لست من جملة المحيين إن لم
وطوفاني إجمالة السر فيه
وكان ينشد رضى الله عنه:

وقد بقينا مذبذبين حيارى
فسدواعى الهوى تحف علينا
وكان ينشد رضى الله عنه للسهر وردى رضى الله عنه:

أبداً تحن إليكم الأرواح
وقلوب أهل وداكم تشتاقكم
يسا رحمة للمشاقين تحملوا
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم
وكان ينشد رضى الله عنه:

مرت لنا بغي والخيف أوقات
لأسلكن ولو أن الأسود بهما
وكان ينشد قول امرئ القيس:

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
فقلت له لا تلك عيناك إنما
وكان يقول: نحاول ملكاً بالبقاء، أو نموت فتعذر بوجود الفناء.

وكان ينشد من قصيدة ابن العطار:

رفعت مقامات الوصال حجابى
حتى احتجبت بكم عن الحجاب

فرأيت وجه الحق في المحراب
فنجوت من ملك لها غصاب
سبب النجاة وأعظم الأسباب
عن كنزه الباقي بغير ذهاب
حتى دنوت فكنت مثل القاب

وإنم كالسك العيق شذاه
فيه القلوب تطيب والأفواه
يا صاح من كانت حلاه تقاه
مستغرقاً في الكشف عن معناه
خلا عن الكونين في مسراه
عين البقاء فعند ذاك تراه
كلًا ولا أيضًا تكون سواء
سرّ يضيق نطاقنا عما هو
قلب يفكر ما وعت أذنياه
لك سرّ ما قد غاب عنك سناه
من لم يراه قد استبان عما
ما غاب عنهم لمسئلة مرآه
لكن شديد ظهوره أخفاه

كلًا ولا أيضًا تكون سواء
سرّ يضيق نطاقنا عما هو
قال الشيخ رضى الله عنه: ولا نستطيع أن نبينه أبدًا.

هل في وجود الحق إلا الله
هل كان يوجد غيره لولاه
فالنور يظهر ذاته فتراه
مستغرقون بفكرهم إياه
حتى كأن قلوبهم مشواه
أنغيب عنه وما شهدت سواء
فلقد أحاط به حجاب عما
فمن المحال عليه أن يشاه

ولسزمت محرابي لسزوم مجمع
وخسرت لوح سفيتي لأعيها
وقتل من نفسي غلامًا قتله
وكشفت عن قلبي جدار حجابيه
ورقيت في السبع السموات العلا
وأنشد بين يديه وأنا حاضر أسمع:

خذ من كلامي ما يلدّ جناء
ذكر الإله الزم هديت لذكره
واجعل خلاك تقاه إن أخا الحجا
ولتعمل الأفكار في ملكوته
ولتخلع النعلين خلع محقق
ولتفنّ حتى عن فنائك إنسه
وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو
شيئان ما اتحدنا ولكن ههنا
يا سامعًا ما قد أسرت له ألا
أزل الحجاب حجاب حسك ينكشف
إن الإله أجلّ مما متعرف
فيه يراه ذو البصائر والنهى
أنى يغيب وليس يوجد غيره

ولما انتهى في الإنشاد إلى قوله:

وإذا بدا لك فاعلم أنك لست هو
شيئان ما اتحدنا ولكن ههنا

قال الشيخ رضى الله عنه: ولا نستطيع أن نبينه أبدًا.
وقرأت عليه القصيدة المنسوبة لابن الفرس:

الله ربي لا أريد سواء
ذات الإله بها قوام ذواتنا
لا غمرو في أنا رأينا به
فالسالكون مشاهدون لصنعه
والعارفون مشاهدون لذاته
يا غائبًا والحق فيه حاضر
من لم يشاهد بالبصرة ذاته
من لا يرى في كل حال غيره

من كان في الملكوت يسرى فكره
 سبحان من خرق الحجاب لعبده
 سبحان من ملأ الوجود أدلة
 سبحان من لو لم تلح أنواره
 مولاي أنت الواحد الصمد الذي
 مولاي أنسك لم يدع لي وحشة
 مولاي عبدك لا يخاف تعطشا
 مولاي لا أوى لغيرك إنه
 أنت الذي خصصتنا بوجودنا
 لم أفش ما أودعني فيه فإنه
 من كان يعلم أنك الفرد الذي

فقال الشيخ: كل هذا تحويم وليس هو عين القصد.

ووجدت بخط ابن ناشي قال: كتب إلي سيدي وشيخي أبي العباس المرسى وكان قد ورد
 سلامه عليّ فقلت:

ورد السلام من الإمام فسرّني
 إن كنت تعلم يا رسول بأنه
 شيخي أبو العباس واحد وقته
 أسقى عليّ وقت لديك قطعته
 ما كنت إلا حائسداً فرددتني
 وسقيتي ماء الحياة وكنت لي
 ولو استطعت قطعت عمري عنده
 يا أيها المرسى يبهر معارف
 فهو الطريق إلى النبي محمد
 صلى عليه الله ما ذكر اسمه

ومدحه الأديب الفاضل شرف الدين البوصيري بقصيدة منها:

أما المحبة فهي بذل نفوس
 بذل المحب لمن أحب دموعه
 فتتعمى يا مهجتي بالحبوس
 وطوى حشاه على أحرّ رسي

ثم مر فيها إلى أن قال:

صدق وقل من لم يقم كقيامه
 قبل الإله تقسّرني بمديحه
 رمت المسير له فأعجزني السرى
 أكسرم يوم الأربعاء زيارة
 لم ينتفع منه امرؤ بجلوس
 وتسوّجني بجناسه المحسوس
 وأباحني مسراه غير بثوس
 فكأنه عندي كألف خميس

كل اتصالات السعيد سعيدة بمثابة التثليث والتسديس

ثم مرّ فيها إلى أن قال:

شرقاً لشاذلة ومرسيّة سرت لها الرئاسة من أجل رئيس
ما إن نسبت إليهما شيخيهما إلا جلوتيهما بجلاء عروس

وكنّت في مبدأ الشبيبة عملت فيه قصيدة، وأنشدت بين يديه، فلما فرغ من إنشادها قال: أيّدك الله بروح القدس وهي هذه:

بسررت سلمى بسأتنساء الخيم وحدا الحادون لما أبصروا
وعذرناهم وماذا عجب كضياء الصبح أو بدر الدجى
لو رآها البدر أثنى راجعاً أو رأتها الشمس لم تطلع ضحى
عذبت قلبي بهجران به وكستني تسوب هم وضئى
وأبست إلا صدوداً دائماً فسهرت الليل أرعى نجمة
كلما رُمْتُ لعيني هجمة تدعى العشق وتلقى ضده
لازم الباب بذل وأسى ودع التقصير في خدمته
واجتهد عليك أن تنجو غداً لا تقبل لي إن هذا زمن
أوليئاء الله لم ينقرضوا قد رأينا كلهم في واحد
في أبي العباس مجموع الذى بأبى العباس زاحت كربة
وبه شمس الهدى قد ظهرت أى نور بدا لأهله
ولقد فضله رب العلا قبل لأقوام أرادوا شأوه
ليس هذا الأمر أسراً هيئاً إنما هي قسمة قد قسمت

فأرتنا البدر من تحت اللمم وجهها في الليل صيحاً قد أُم
أن يرى وجهه لسلمى في الظلم وجهها أكمل نوراً وأُم
خجلاً من وجهها ومحتشم ثم صارت خدن هم وتدم
عذب العشاق قلى في القدم صرت بين الناس فيه كالعلم
فأبى نسمي إلا أن يُنم أذكر الوصل الذى قد انصرم
قال لي القلب رويداً لاتم إنما العشق سهاد وسقم
فهما في العشق شرط يلتزم سمر الذيل ولا تخش الألم
من عذاب الله خلّاق الأمم عسر فيه وجود من سلم
إن حزب الله غير منهزم دى بهاء ووفاء وهم
منحوص من علم وحكم عن قلوب الخلق وانجابت ظلم
وبه در العلوم قد نظم أى علم قد بدا لمن فهم
وكساه حلالاً من النعم أقصروا إن الإله قد قسم
فتشالسوه بجذ وهم أعطيت أحد في حال العدم

إذ أرادوا ستر ذا النور الأتم
إذ تبدى النور منها واستتم
وهم إخوان هم ونسبهم
وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم
إن هذا ليس أسراً مكتتم
ذائع ما بين عرب وعجم
ولسزاد الشرح فيه وعظم
فتراهم مازجى شهيد بسم
وليتموتوا كلهم موتة غم
ما رقى القمري في غصن سلم

تأزعوأ الله تعالى حكمه
إن يكونوا أنكروا شمس الضحى
فهم إخوان جهل وهوى
وقديماً قال فيه نبيخه
إنما أنت أنا فاعلم بهذا
وحديث الشيخ عنه شائع
لو بسطناه لسطال بسطه
إنهم لن يستطيعوا جحدته
فليسدم غيظهم وحقدهم
دمت في عز على رغم العدا
وحين انتهى في الإنشاد إلى قولنا:

ذى بهاء ووفاء وهم
منحوه من علوم وحكم

قد رأينا كلهم في واحد
في أبي العباس مجموع الذى

قال الشيخ رضى الله عنه: والله لقد قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس
فيك ما فى الأولياء وليس فى الأولياء ما فيك.

ولما انتهى في إنشادها إلى قوله:

وهو قطب الأرض ذو العلم الأعم
إن هذا ليس أسراً مكتتم

وقديماً قال فيه شيخه
إنما أنت أنا فاعلم بهذا

قال الشيخ رضى الله عنه: والله لقد قال لى الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه: يا أبا العباس
ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت.

ومكنت بعد ذلك مدة سنين ثم أتى الشيخ رضى الله عنه من الصعيد فلما اجتمعت به أراى
قصيدة عملها فيه إنسان من أهل أخميم وقال: أجيء. فذهبت فتوقفت على القول، فقلت: عجباً
يأمرنى الشيخ ويتوقف على القول، هذا والله من عدم صدقى، فلما قلت ذلك فتح الله باب الكلام
حتى كأنما كانت سيلاً تدفق إلى أن تكلمت قصيدة، فلما قرئت عليه وقعت منه موقع الرضا حتى كان
يكث المدة من الزمان ويستعيداها، وقال لما قرئت عليه: هذا الفقيه صحبني وبه مرضان وقد عافاه
الله منها: يعنى وجعاً في الرأس والوسوسة في الطهارة، ولا بد أن يجلس ويتحدث في العلمين، وهى
هذه.

فلمن تسير وما المراد سواها
فلطال ما جهدت ودام سراها
أرساغها مخضوية بدماها
حتى تشككت أنها ووجساها
تقرى بها فالشوق قد أغراها

فف بالديار فقد بدا مغناها
وأرح قلوبك قد بلغت المنحنى
ولطال ما قطعت مهامه واغتدت
تمسى وتصبح لا تمل من السرى
رفقا بها يا أيها الحادى ولا

وكفى بها وصداً بها وكفاها
 حتى تيل من الدموع تراها
 ويقودها نحو الحبيب هواها
 فتمايلت والشوق حشو حشاها
 واستبشرت فيه بنيل مناها
 فيها أبو العباس شمس ضحاها
 وغدت به بين الوري تنبها
 وتعلت الأيام منه حلاها
 فأزاح عنها كريبها وجلها
 حبراً منيباً صادقاً أوها
 وتجمعت فيه على أخراها
 كم يدعة عقدت فعل عراها
 قد قيدته نفسه بهواها
 عنه سعائب ظلمة بدجهاها
 أحيا بها من بعد ما أحيها
 قل المساعد فأنجلت ظلمهاها
 ركبت محارم واستبيح حماها
 وليست من خلل التقى أسناها
 فأزلت عنها جهلها وعماها
 فينا وزلت عن سبيل هداها
 من بعد ما جمعت وعز شفاها
 بسرى لها في ودّها بشراها
 وكذلك أيضاً أنت في نجواها
 فيكم تكمل برّها وتقاهها
 حتى أقي قطب الوري فهداها
 وتنسّرت بمجيئه أبقاهها
 قطب البرية غوثها ملجأها
 وزوى بها عن صرفه ووقاها
 ترجوه في لأوائها ورخاها
 من بغية قد حازها وحوها
 بالإرث منه فارتقيت علاها
 وأقامه فيها لكي يرعاها
 طبقت جفونهم على أنساها

يكفى الذى لاقتة من ألم السرى
 أو ما تراها كيف تدرى دمعها
 يحدو بها نحو الديار غرامها
 فازت بأن وصلت إلى أحيائها
 حنت وأنت إذ رأت وادى النقا
 فسرورها كسرور أيام غدا
 تاهت بأحمد إذ أناها رحمة
 وتسرفت أوقاتها بمجيئه
 وغدا يسد أمر دين محمد
 إن تلقه تلق إماماً راسخاً
 قد كملت فيه الفضائل كلها
 كم سنة ماتت فأحى رسمها
 كم من أناه والمعاصى دأبه
 فأزال عنه ما به فتشعت
 كم من قلوب قد أميتت بالهوى
 أحيت علم القوم في زمن به
 وأتيت غوثاً للأنام وقيل ذا
 وغدوت ترفل في ثياب معارف
 مازلت حتى طاوعتك نفوسنا
 من بعد ما ظفرت بنا وتحكمت
 ذلتها حتى أتت منقسدة
 فلذاك أضحي ودّها لك خالصاً
 فغدوت أعلى همها في جهرها
 ما زلت تهدون أمة أحمد
 قد كان قدما بالبرية حيرة
 بالشاذل تقشعت ظلمساؤها
 كنز التقى علم الهدى بحرى الندى
 من كان إن خطب ألم حماها
 كهف تلوذ به البرية كلها
 حتى توفاه الإله فيساها
 وخلفته في حاله ومقامه
 الله أبقى للبرية أحدا
 إن الذين تعرضوا لفخاره

إن تنكروا الآيات وهي ظواهر
 هم يعلمون بأنه قطب النورى
 أو ما ترى قسوم النبى محمد
 مسح علمهم أن النبى محمدًا
 فأدام غيظهم المليك ولم تزل
 تهدى إليك المكرمات بأسرها
 فلقد تبهت واستبان سناها
 لكنسه غلب النفوس هواها
 جحدوا وبلجوا فى الجحود سفاها
 كان الرسول أتى لها بهداها
 فى حالة يرضى بها مولاها
 وتسال من رتب العلا أقصاها

وكان يعجبه منها:

كم من قلوب قد أميتت بالهوى
 أحيأ بها من بعد ما أحيأها
 فكان يستعيد القصيدة إلى هذا البيت، فإذا انتهى فى الإنشاد إليه استعاده، جعل الله مدحنا هذا
 موضوعًا فى الميزان، وموجبًا للرضوان، بمنه وكرمه.

الباب العاشر

في ذكره ودعائه عقب كلامه، وحزبه الذي
رتبه للأخذين من علومه وأفهامه، وشيء من
دعاء الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه
وحزبه، وبها يكون لهذا الباب وجود ختامه

كان من ذكره رضى الله عنه:

لا إله إلا الله الأول الآخر الظاهر الباطن، محمد رسول الله السيد الكامل الفاتح الخاتم.
ومن ذكره أيضا:

يا الله يا نور يا حق يا مبین: أحي قلبى بنورك، وأقمى بشهودك، وعرفنى الطريق إليك.
ومن ذكره أيضا:

رب اغفر لى، واجعلنى لك عبدا ذائب النفس بأنوارك، مطموس الحس بجلالك، واغفر لى
والمؤمنين والمؤمنات.

ومن دعائه:

اللهم اغفر لى، واستر لى، ولا تفضحنى فى الدنيا والآخرة، وعلمنى وذكرنى وفهمنى، وأرحمنى
وفرحنى وبرنى، وفرغنى من كل شىء إلا من ذكرك وطاعتك وطاعة رسولك، ومحابك ومحاب
رسولك ﷺ.

ومن دعائه عقب كلامه:

اللهم كن بنا رؤفا، وعلينا عطوفا، وخذ بأيدينا إليك أئخذ الكرام عليك، اللهم قومنا إذا
اعوججنا، وأعنا إذا استقمنا، وخذ بأيدينا إذا عثرنا، وكن لنا حيثما كنا.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه:

اللهم إن الدنيا حقيرة حقير ما فيها، وإن الآخرة كريمة كريم ما فيها، وأنت الذى حقرت
الحقير وكرمت الكريم، فأنى يكون كريما من طلب غيرك؟ أم كيف يكون زاهدا من اختار لدنياه
معك؟ فحققتى بحقائق الزهد حتى أستغنى عن طلب غيرك، وبعرفتك حتى لا أحتاج إلى طلبك.
إلهى، كيف يصل إليك من طلبك؟ أم كيف يفوتك من هرب منك؟ فاطلبنى برحمتك، ولا تطلبنى
بنقمتك، يا عزيز يا منتقم، إنك على كل شىء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه:

اللهم اسلبنى عقلا يحجبني عنك، وعن فهم آياتك، وعن فهم كلام رسولك، وهب لى من العقل

الذى خصصت به أنبياءك ورسلك والصدّيقين من عبادك، وأهدى بنورك هداية المخلصين بمشيئتك، ووسع لى فى النور توسعة كاملة تخصنى بها برحمتك، فإن الهدى هداك، وإن الفضل بيدك تؤتية من تناء وأنت ذو الفضل العظيم.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

يا واسع يا عليم، يا غنى يا كريم، يا ذا الفضل العظيم.

اللهم أجلسنا على بساط القرب منك بالفناء عن غيرك وبالبقاء بنورك، أو بالتقرب بالأخذ عما هو لنا إلى ما هو لك من جهة العلم أو العقل، ومن جهة العمل والحال، وهيمنا فى برزخ الصنع ناظرين بك إليك، ومنك إلى غيرك، إنك على كل شيء قدير.

ومن دعاء الشيخ أبى الحسن رضى الله عنه:

يا عزيز يا رحيم، يا حكيم يا غنى يا كريم، يا واسع يا عليم، يا ذا الفضل العظيم، اجعلنى عندك دائماً، وبك قائماً، ومن غيرك سالماً، وفى حبك هائماً، وبِعظمتك عالماً، وأسقط اليمين بينى وبينك حتى لا يكون شيء أقرب إلى منك، ولا تعجبنى بك عنك إنك على كل شيء قدير.

ومن دعائه أيضاً رضى الله عنه:

اللهم هب لى من النور الذى رأى به رسولك ﷺ ما كان ويكون؛ ليكون العبد بوصف سيده لا بوصف نفسه، غنياً بك عن تجديد النظر لشيء من المعلومات، ولا يلحقه عجز عما أراد من المقدورات، ومحيطاً بذات السر بجميع أنواع الذوات، ومرتباً للبدن مع النفس، وللقلب مع العقل، وللروح مع السر، وللأمر مع البصيرة، والعقل الأول المدد من الروح الأكبر المنفصل عن السر الأعلى.

اللهم أرزقنى من كنز لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، واضربنى بها ضرباً تمحق بها من قلبى كل قوة؛ واغنى بذلك الرزق عن ملاحظة النفس والخلق، وأخرجنى به عن ذل الفقر والتدبير والاختيار وعن الغفلة والشهوة ومشية النفس والقهر والاضطرار، إنك على كل شيء قدير.

ومن دعائه رضى الله عنه:

يا سم المهيمن العزيز القادر، أجل كل شيء وهو ناصرى قى ج ن ص انصرنى فإنك خير الناصرين، وافتح لى قناتك خير الفاتحين، وارزقنى فإنك خير الرازقين، وأهدنى ونجنى من القوم الظالمين.

ومن دعائه رضى الله عنه:

يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بينى وبين طاعتك على بساط مشاهدتك، وفرق بينى وبين هم الدنيا وهم الآخرة، ونب عنى فى أمرهما، واجعل همى أنت، وأملأ قلبى بحببتك، وبهجة بأنوارك، وخشع قلبى بسلطان عظمتك، ولا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وها نحن نثبت حزب سيدنا ومولانا الشيخ الإمام قطب العارفين وعلم المهتدين شهاب الدين

أبي العباس أحمد بن عمر المرسى رضى الله عنه، وإن كان بعضه من كلام شيخه الشيخ أبي الحسن الشاذلى رضى الله عنها، وبعده نذكر حزب الشيخ أبي الحسن رضى الله عنه المسمى حزب النور وبعدها حزب آخر له أيضا.

وإنما ذكرنا حزب الشيخ أبي العباس الذى رواه عن شيخه، وحزبى الشيخ أبي الحسن هذين حزب النور والذى بعده، لأن هذه الأحزاب الثلاثة لم تشتهر شهرة حزبى الشيخ أبي الحسن حزب البحر وحزب «وإذا جاءك» فلذلك أفردنا هذه الثلاثة بالذكر وتركنا ذكر دينك الحزبين فإنها سارا مسير الشمس والقمر، وأشيد ذكرهما فى البدو والحضر.

فأما حزب الشيخ أبي العباس رضى الله عنه فهو هذا، وهو ورد شيخه بعد العشاء الآخرة، وحزب «وإذا جاءك» بعد الصبح، وحزب البحر بعد العصر هكذا رتبها الشيخ أبو العباس رضى الله عنه وهذا مبدأ الحزب:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين، آمين.

﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما فى السموات وما فى الأرض من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم﴾^(١).

﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾^(٢).

﴿الم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان﴾^(٣).

﴿يأيتها المدثر، فم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر﴾^(٤).

﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم﴾^(٥).

﴿الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، الشمس والقمر بحسبان، والنجم والشجر

(٤) المدثر، ١ - ٧

(٥) العلق، ١ - ٥

(١) النقرة، ٢٥٥.

(٢) النقرة، ٢٨٥ - ٢٨٦.

(٣) آل عمران، ١ - ٤.

يسجدان، والسماء رفعها ووضع الميزان، ألا تظنوا في الميزان؟^(٦)

﴿تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام﴾^(٧).

سبحان ربى العظيم، سبحان ربى العظيم.

﴿سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور، يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل وهو عليم بذات الصدور﴾^(٨).

﴿هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾^(٩).

﴿قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾.

﴿قل أعوذ برب الفلق، من شر ما خلق، ومن شر غاسق إذا وقب، ومن شر النفاثات فى العقد، ومن شر حاسد إذا حسد﴾.

﴿قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس، من الجنة والناس﴾.

اللهم يا من هو كذلك، وعلى ما وصفه به عباد الله المخلصون من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين والعلماء الموقنين والأولياء المقربين من أهل سماواته وأرضه وسائر الخلق أجمعين، أسألك بها، وبآلايات والأسماء كلها، وبالعظيم منها، وبالألم^(١٠) والسيدة^(١١) وبخواتم سورة البقرة، وبالمبادئ والخواتيم وبآمين على الموافقة، وبهاء الرحمة وميم الملك ودال الدوام.

﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فأزره فاستغلف فاستوى على سوقه، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾^(١٢).

أحون، قاف، آدم، حم، هاء، آمين.

كهيص

اغفر لى وارحمى برحمتك التى رحمت بها أنبياءك ورسلك ولا تجعلى بدعائك رب شقيًا.

(٦) الرحمن: ١ - ٨

(٧) الرحمن: ٢٨

(٨) الحديد: ١ - ٦

(٩) الحشر: ٢٢ - ٢٤

(١٠) الأم هنا هى الفاتحة.

(١١) سيدة أى القرآن، آية الكرسي.

(١٢) الفتح: ٢٩.

وإني خفت وأخاف أن أخاف ثم لا أتهدي إليك سبيلاً فاهديني إليك وأمنى بك من كل خوف ومخوف في الدين والدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير.

اللهم يا بديع السموات والأرض، يا قيوم الدارين، ويا قيوم بكل شيء، يا حي يا قيوم يا إلها لا إله لنا إلا أنت، كن لنا ولياً ونصيراً؛ وأميناً، وأمناً بك من كل شيء حتى لا نخاف إلا أنت؛ واجعلنا في جوارك، واحجبنا بالذي حجبته به أوليائك؛ فترى ولا يراك أحد من خلقك، واصبب علينا من الخير أكمله وأجله؛ واصرف عنا من الشر أصغره وأكبره.

﴿طس: حم عسق، مرج البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان﴾.

اللهم إنا نسألك الخوف منك والرجاء فيك والمحبة لك، والشوق إليك، والأنس بك، والرضا عنك، والطاعة لأمرك على بساط مشاهدتك، ناظرين منك إليك، وتاطفين بك عنك، لا إله إلا أنت سبحانك، ربنا ظلمنا أنفسنا وقد تينا إليك قولاً وعقداً فتب علينا جوداً وعطفاً واستعملنا بعمل ترضاه، وأصلح لنا في ذرياتنا إنا تينا إليك وإنا من المسلمين.

يا غفور يا ودود، يا برّ يا رحيم اغفر لنا ذنوبنا وقربنا بؤدك، وصلنا بتوحيدك، وارحنا بطاعتك، ولا تعاقبنا بالفترة، ولا بالوقف مع كل شيء دونك، واحملنا على سبيل القصد، واعصنا من جائرها، إنك على كل شيء قدير.

اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيننا وبين الصديق والثقة والإخلاص والخشوع والهيبه والحياء والمراقبة والتور واليقين والعلم والمعرفة والحفظ والعصمة والنشاط والقوة والستر والمغفرة والفصاحة والبيان والفهم في القرآن، وخصنا منك بالمحبة والاصطفائية والتخصيص والتولية، وكن لنا سمعاً وبصراً ولساناً وقلباً ويداً ومؤيداً، وآتينا العلم اللدني، والعمل الصالح، والرزق الحق الذي لا حجاب به في الدنيا ولا حساب ولا سؤال، ولا عقاب عليه في الآخرة، على بساط علم التوحيد والشرح، سالمين من الهواء والشهوة والطبع، وأدخلنا مدخل صدق، وأخرجنا مخرج صدق، واجعل لنا من لدنك سلطاناً نصيراً.

يا الله، يا عليّ يا حلّيم يا عليم يا سميع يا بصير يا مريد يا قدير يا حيّ يا قيوم يا رحمن يا رحيم يا من هو هو يا هو، أسألك بعظمتك التي ملأت أركان عرشك، وبقدرك التي قدرت بها على خلقك، وبرحمتك التي وسعت كل شيء، وبعلمك المحيط بكل شيء، وبإرادتك التي لا ينافيها شيء، وبسمعك وبصرك القريين من كل شيء، يا من هو أقرب إلى من كل شيء، قد قلّ حيائي، وعظم افتراضي، وبعد منائي، واقترب شقائي، وأنت البصير بحسني وحسني وشهوتي وسوءي، تعلم ضلالي وعمالي وفاقتي وما قبيح من صفاتي، آمنت بك وبأسمائك وصفاتك وبمحمد رسولك، فمن ذا الذي يرحمني غيرك، ومن ذا الذي يسعدني سواك، فارحمني وأرني سبيل الرشده واهدني إليه سبيلاً، وأرني سبيل الحق وجنبي إياه سبيلاً، واحصني منك الحق والنور والحكم والفصل والبيان وأحرسني بنورك.

يا الله يا نور يا حق يا مبین، افتح قلبي بنورك، وعلمني من علمك، وفهمني عنك، وأسمعني منك، وبصرني بك، إنك على كل شيء قدير.

اللهم إني أصبحت وأنا أريد الخير وأكره الشر، وسبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فاهدني لنورك لتورك فيا يرد علي منك، وفيما يصدر مني إليك، وفيما يجري بيني وبين خلقك، وضيق علي بقربك، واحجيني بحجب عزتك عن حجبيك، وكن أنت حجابي حتى لا يقع شيء مني إلا عليك، وسخر لي أمر هذا الرزق، وأعصمني من الحرص والنصب في طلبه، ومن سغل القلب وتعلق الهم به، ومن الذل للخلق، بسببه، ومن التفكير والتدبر في تحصيله، ومن السخ والتبخل بعد حصوله، وما يعرض في النفس من ذلك، وتحلقه بقدرتك علي وفق إرادتك وعلمك، ومن ضرورات الحاجات إلى خلقك، فاجعله اللهم سبباً لإقامة العبودية، ومشاهدة لأحكام الربوبية، وهب لي خفية من خفياتك، ونوراً من أنوارك، وذكرًا من أذكارك، وسراً من أسرارك، وطاعة من طاعات أنبيائك، وصحية ملائكتك وتول أمرى بذاتك، ولا تكلفني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك، واجعلني حسنة من حسناتك، ورحمة بين عبادك تهدي بها من تشاء إلى صراط مستقيم، صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور.

اللهم اهدني لنورك وأعطني من فضلك وامتنعني من كل عدو هو لك، ومن كل شيء يشغلي عنك، وهب لي لساناً لا يفتر عن ذكرك، وقلباً يسمع بالحق منك، وروحاً يكرم بالنظر إليك، وسراً تمتعاً بحقائق قرة، وعقلاً جائلاً بجلال عظمتك؛ وزين ما ظهر وما بطن مني بأنواع طاعتك؛ يا سميع يا علیم يا عزیز يا حکیم.

اللهم كما خلقتني فاهدني، وكما أمتني فأحيني، وكما أطعمتهم فأطعمني واسقني، ومرضى لا يخفى عليك فاسقني، وقد أحاطت بي خطيئاتي فاغفر لي وهب لي علماً يوافق علمك، وحكماً يصادف حكمك، واجعل لي لسان صدق بين عبادك، واجعلني من ورثة جنتك، ونجني من النار بعفوك، وأدخلني الجنة حالاً ومالاً برحمتك، وأرني وجه محمد نبيك، وارفع الحجاب فيما بيني وبينك، واجعل مقامي عندك دائماً بين يديك وناظراً منك إليك، وأسقط الدين عني حتى لا يكون سؤي بيني وبينك، واكشف لي عن حقيقة الأمر كشفاً لا طلب بعده لعبدك، مع المزيد المضمون بكرم وعدك، إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا عزيز يا حكيم إنك قد آتيت من شئت بما شئت كيف شئت على ما شئت، فأيدنا بنصرك بحرمة أوليائك، ووسع صدورنا لمعرفتك عند ملاقات أعدائك، واجلب لنا من رضيت عنه حتى نخضع له ونذل كما جلته لمحمد رسولك، واصرف عنا كيد من سخطت عليه كما صرفته عن إبراهيم خليلك؛ وآتانا أجرنا في الدنيا بالعافية من أسباب النار، ومن ظلم كل جائر جبار، وبسلامة قلوبنا من جميع الأغيار، وبغض لنا الدنيا وحبب لنا الآخرة واجعلنا فيها من الصالحين إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا عظيم يا علیم يا برّ يا رحيم، عبدك قد أحاط به خطيئاته، وأنت العظيم، وندائي كأنه لم يسمع وأنت السميع، وقد عجزت عن سياسة نفسي وأنت العلیم، وأني لي برحمتها وأنت البرّ الرحيم، كيف يكون ذنبي عظيماً مع عظمتك؟ أم كيف تجيب من لم يسألك وتترك من سألك؟ أم كيف أسوس نفسي بالبرّ وضعفى لا يعزب عنك؟ أم كيف أرحمها بشيء وخزائن الرحمة بيديك؟ إلهي، عظمتك ملأت قلوب أوليائك، فصغر لديهم كل شيء فاملاً قلبي بعظمتك حتى لا يصغر

ولا يعظم لديه شيء، واسمع ندائى بخصائص اللطف فإنك السميع من كل شيء.

إلهى، ستر عني مكاني منك حتى عصيتك وأنا في قبضتك، واجترحت ما اجترحت فكيف لي الاعتذار إليك.

إلهى جذبك لي أطمعني فيك وحجاي عنك آيسني من غيرك فاقطع حجاي حتى أصل إليك واجذبني جذبة لا أرجع بعدها لغيرك.

إلهى، كم من حسنة ممن لا تحب لا أجر لها، وكم من سيئة ممن تحب لا وزر لها، فاجعل سيئاتي سيئات من أحببت، ولا تجعل حسناتي حسنات من أبغضت فإن كرم الكريم مع السيئات أنتم منه مع الحسنات، فأشهدني كرمك على بساط رحمتك، ورضني بقضائك، وصبرني على طاعتك فيما أجريت علي من أمرك ونهيك، وأوزعني شكر نعمتك، وغطني برداء عافيتك حتى لا أشرك بك غيرك، وامتن علي بالفهم عنك إنك على كل شيء قدير.

إلهى، معصيتك نادتنى بالطاعة، وطاعتك نادتنى بالمعصية، ففى أيها أخافك، وفى أيها أرجوك؟ إن قلت بالمعصية قابلتنى بفضلك، فلم تدع لي خوفاً، وإن قلت بالطاعة قابلتنى بعدلك فلم تدع لي رجاء، فليت شعري كيف أرى إحسانى مع إحسانك؟ أم كيف أجهل فضلك مع عصيانك. قاف جيم سران مع سررك، وكلاهما دالان على غيرك، فبالسر الجامع الدال عليك لا تدعني لغيرك، إنك على كل شيء قدير.

يا الله يا فتاح يا غفار يا منعم يا هادي يا ناصر يا عزيز، هب لي من نور أسمائك ما أتحقق به حقائقي ذاتك وافتح لي واغفر لي وأنعم عليّ واهدني وانصرني وأعزني، يا معز لا تدلني بتدبير مالك، ولا تسغلني عنك بما لك، فالكل كللك، والأمر أمرك، والسر سررك، عدى وجودي، وجودى عدى، فاللق حقك، والجعل جعلك، ولا إله غيرك، وأنت الله الحق المبين.

يا عالم السر وأخفى، يا ذا الكرم والوفاء، علمك قد أحاط بهيدك؛ وقد شقي في طلبك؛ فكيف لا يشقى من طلب غيرك؛ تطلقت بي حتى علمت أن طلبى لك جهل؛ وطلبى لغيرك كفر؛ فأجرتني من الجهل؛ واعصمنى من الكفر؛ يا قريب أنت القريب وأنا البعيد؛ قربك أياسنى من غيرك؛ ويبعدني عنك ردنى للطلب لك؛ فكن لي بفضلك حتى تحو طلبى بطلبك، يا قوى يا عزيز، إنك على كل شيء قدير.

اللهم لا تعذبنا بإرادتنا، وحب شهواتنا، فنشغل أو نحجب أو نفرح بوجود مرادنا، أو نحزن أو نسخط أو نسلم تسليم النفاق عند الفقد، وأنت أعلم بقلوبنا، فارحمنا بالنعيم الأكبر، والمزيد الأفضل، والفوز الأكمل، وغيبنا وغيب عنا كل شيء، وأشهدنا إياك بالإشهاد، وانصرنا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأسهاد.

يا الله يا قدير يا مريد يا عزيز يا حكيم يا حميد، إنا نسألك بالقدر العظمى، وبالمشيئة العليا، وبالآيات والأسماء كلها، وبهذا العظيم منها أن تسخر لنا هذا البحر وكل بحر هو لك في الأرض والسما، والملك والملكوت، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود، وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان، وسخر لنا كل شيء يا من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، يا عليّ يا عظيم، يا حلیم يا عليهم، احون قاف آدم حم هام آمين
ا هـ

وهذا حزب النور للشيخ الولي الصالح سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.
يا الله، يا نور يا حق يا مبین، افتح قلبي بنورك، وعلمني من علمك، وفهمني عنك، وأسمعني منك،
وبصرني بك، وأقمنني بشهودك، وعرفني الطريق إليك، وهونها علي بفضلك، وألبسني التقوى منك،
إنك على كل شيء قدير.

اللهم اذكرني، وذكّرني، وتب علي واغفر لي مغفرةً أنسى بها كل شيء سواك، وهب لي تقواك،
واجعلني ممن يحبك ويخشاك، واجعل لي من كل همٍّ وغمٍّ وضيقٍ وهوى، وشهوة، وخطرة، وفكرة،
وإرادة، ومن كل قضاءٍ وأمرٍ، فرجاً ومخرجاً.
أحاط علمك بجميع المعلومات، وعلت قدرتك على جميع المقدورات، وبيّلت إرادتك أن يوافقها
أو يخالفها شيء من الكائنات.

حسبي الله، وأنا يرى مما سوى الله.
الله لا إله إلا هو، عليه توكلت، وهو رب العرش العظيم.
لا إله إلا الله: نور عرش الله.
لا إله إلا الله: نور لوح الله.
لا إله إلا الله: نور قلم الله.
لا إله إلا الله: نور رسول الله.
لا إله إلا الله: نور سر ذات رسول الله.
لا إله إلا الله: آدم خليفة الله.
لا إله إلا الله: نوح نجي الله.
لا إله إلا الله: إبراهيم خليل الله.
لا إله إلا الله: موسى كلیم الله.
لا إله إلا الله: عيسى روح الله.
لا إله إلا الله: محمد حبيب الله.
لا إله إلا الله: الأنبياء خاصة الله.
لا إله إلا الله: الأولياء أنصار الله.
لا إله إلا الله: الرب الإله. الملك الحق المبین، خالق كل شيء، وهو الواحد القهار رب
السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار.
لا إله إلا الله العلي العظيم.

لا إله إلا الله الحليم الكريم.

سبحان رب السموات السبع ورب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين.

باسم الله، وبالله، ومن الله، وإلى الله، وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

حسبي الله، آمنت بالله، رضيت بالله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، أتوب إليك بك منك إليك، ولولا ما شئت ما نيت إليك، فأمح من قلبي محبة غيرك واحفظ جوارحي من مخالفة أمرك.

وثائقه لئن لم ترعني بعينك، وتحفظني بقدرتك؛ لأهلكن نفسي، ولأهلكن أمة من خلقك ثم لا يعود ضرر ذلك إلا على عبدك.

أعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ برضاك من سخطك، وبك منك، لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، بل أنت أجل من أن أتني عليك، وإنما هي أعراض تدل على كرمك قد منحتها لنا على لسان رسولك، لنعبدك بها على أقدارنا لا على قدرك، فهل جزاء الإحسان الأول الكامل إلا الإحسان منك؟

يا من به ومنه وإليه يعود كل شيء أسألك بحرمة الأستاذ، بل بحرمة النبي الهادي، بل بحرمة السبعين والثمانية بل بحرمة أسرار مامتك إلى محمد النبي الأمي، بل بحرمة سيدة آي القرآن من كلامك، بل بحرمة السبع المثاني والقرآن العظيم، بل بحرمة كتبك المنزلة، بل بحرمة الاسم الأعظم الذي لا يضرمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم بل بحرمة قل هو الله أحد الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، اكفني كل غفلة، وشهوة ومعصية، فيما تقدم وفيما تأخر واكفني كل طالب يطلبنى بالحق وغير الحق في الدنيا والآخرة، فإنه لك الحجة البالغة، وأنت على كل شيء قدير واكفني هم الرزق، وخوف الخلق، واسلك في سبيل الصدق، وانصرفي بالحق، واكفني كل هم وغم ودون الجنة، واكفنا كل عذاب من فوقنا، أو من تحت أرجلنا، أو يليسنا شيئاً، أو يذيق بعضنا بأس بعض، واكفنا شر ما تعلق به علمك مما كان ويكون، إنك على كل شيء قدير.

سبحان الملك الخلاق سبحان الخلاق الرزاق سبحان الله عما يصفون، عالم الغيب والشهادة، فتعالى عما يشركون، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان ذي القدرة والملكوت، سبحان من يحيي ويميت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان القادر، سبحان القاهر، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير، سبحان القائم الدائم.

قل: حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون.

أعوذ بالله من جهد البلاء، ومن سوء القضاء، ومن درك الشقاء، ومن شناعة الأعداء، وأعوذ بالله: ربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب.

يا من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه؛ أنصرف بالخوف منك والتوكل عليك، حتى لا أخاف غيرك، ولا أرجو غيرك ولا أعبد شيئاً سواك.

أشهد أنك على كل شيء قدير، وأنت قد أحطت بكل شيء علماً.

نسألك بهذا الأمر الذي هو أصل الموجودات، وإليه المبدأ والمنتهى، وإليه غاية الغايات؛ أن

تسخر لنا هذا البحر: بحر الدنيا وما فيه ومن فيه، كما سخرت البحر لموسى، وسخرت النار لإبراهيم، وسخرت الجبال والحديد لداود وسخرت الريح والشياطين والجن لسليمان. وسخر لي كل بحر، وسخر لي كل جبل، وسخر لي كل حديد، وسخر لي كل ريح، وسخر لي كل شيطان من الجن والإنس، وسخر لي نفسي، وسخر لي كل شيء، يامن بيده ملكوت كل شيء، وانصرفي باليقين وأيدني بالروح الأمين.

صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده. طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى، تنزيلاً من خلق الأرض والسماوات العلا، الرحمن على العرش استوى، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى.

الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، نسألك بهذا الاسم العظيم الذى حفظت به أولياءك الكرام، إنك أنت الملك العلام، أن تجعلنى بالأسوة الحسنة التى كانت فى إبراهيم عليه السلام والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً، حتى تؤمنوا بالله وحده.

جل ربي أن يوجد بشيء أو يفقد بشيء، إنه لن يضر مع شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهو السميع العليم.

حزب الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم.
الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهتدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين.

الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسيع كرسيه السموات والأرض ولا يتوده حفظها وهو العلي العظيم.

آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

أتم، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بهن يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان، إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام، إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير، تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب.

الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يمتني بم يمين، والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين، رب هب لي حكماً وألهمني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين، واجعلني من ورثة جنة النعيم، واغفر لأبي إنه كان من الضالين، ولا تخزني يوم يبعثون، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأزلفت الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين.

سبح لله ما في السموات، والأرض وهو العزيز الحكيم، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم، هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير، له ملك

السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور. يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور.

هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. والضحي والليل إذا سجى، ما ودّعك ربك وما قلى، وللآخرة خير لك من الأولى، وسوف يعطيك ربك فترضى، ألم يجدك يتيمًا فأوى، ووجدك ضالًا فهدى، ووجدك عاتلًا فأغنى، فأما اليتم فلا تقهر، وأما السائل فلا تنهر، وأما بنعمة ربك فحدث.

ألم تشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذى أنقض ظهرك، ورقعنا لك ذكرك، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب.

إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم، التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين.

قد أفلح المؤمنون، الذين هم فى صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم على صلواتهم يحافظون، أولئك هم الوارثون، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون.

إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيراً والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيماً.

إن الإنسان خلق هلوعاً، إذا مسه الشرُّ جزوعاً، وإذا مسه الخير منوعاً، إلا المصلين، الذين هم على صلاتهم دائمون، والذين فى أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم، والذين يصدقون بيوم الدين، والذين هم من عذاب ربهم مشفقون، إن عذاب ربهم غير مأمون، والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون، والذين هم بشهادتهم قائمون، والذين هم على صلاتهم يحافظون، أولئك فى جنات مكرمون.

اللهم إنا نسألك صحة الخوف، وغلبة الشوق، وثبات العلم، ودوام الفكر ونسألك سر الأسرار المانع من الإصرار حتى لا يكون لنا مع الذنب أو العيب قرار، واجتنبنا واهدنا إلى العمل بهذه الكلمات التى بسطتها لنا على لسان رسولك، وابتليت بين إبراهيم خليلك فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين.

فاجعلنا من المحسنين من ذريته ومن ذرية آدم ونوح، واسلك بنا سبيل أئمة المتقين.
باسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وعلى الله فليتوكل المتوكلون.
حسبى الله، آمنت بالله، رضيت بالله، توكلت على الله، لا قوة إلا بالله. أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

رب اغفر لى وللمؤمنين والمؤمنات، والحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين،
إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم
ولا الضالين.

قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.
رب إني ظلمت نفسى ظلماً كثيراً فاغفر لى وتب على، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من
الظالمين.

يا الله يا على يا عظيم، يا حلیم يا علیم، يا سمیع يا بصیر، يا مرید، يا قدير، يا حق، يا قيوم،
يا رحمن يا رحيم، يا من هو هو، يا هو، يا أول يا آخر، يا ظاهر يا باطن، تبارك اسم ربك ذى
الجلال والإكرام.

اللهم صلنى باسمك العظيم الذى لا يضرّ معه شيء فى الأرض ولا فى السماء، وهب لى منه سرّاً
لا تضرّ معه الذنوب شيئاً، واجعل لى منه وجهاً تقضى به الحوائج للقلب والعقل والروح، والسرّ
والنفس والبدن، ووجهاً ترفع به الحوائج من القلب والعقل، والسرّ والروح، والبدن والنفس، وأدرج
أسمائى تحت أسمائك، وصفاتى تحت صفاتك، وأفعالى تحت أفعالك، درج السلامة: وإسقاط الملامة،
وتنزل الكرامة، وظهور الإمامة، وكمل لى ما ابتليت به أئمة الهدى من كلمائك وأغننى حتى تغنى لى،
وأحقيق حتى تحيى لى ما شئت ومن شئت من عبادك، واجعلنى خزانة الأربعين، ومن خلاصة المتقين،
واغفر لى فإنه لا ينال عهدك الظالمين.

طس؛ حم عسق؛ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان،
الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا
الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

تم الحزب بحمد الله

خاتمة

وأما الخاتمة:

فكنت منذ عشر سنين وأنا بالقاهرة بجامع الحاكم آتى إلى الولي أبي عبد الله الحكيم المرسى، وكان الحكيم هذا يحمله الشيخ ويحبه، فقال لى: كنت فى سفينة فذكرتك فنسبك بعض من كان فيها إلى بعض المشايخ، فقلت أنا: إنما هو من أصحاب شيخنا أبي العباس المرسى رضى الله عنه، فإن كان الأمر كما قلت لهم فاكتب لى ذلك بخطك، فكتبت له فى ذلك الوقت ما أنا أذكره إن شاء الله تعالى، وهذا الكتاب لما كان موضوعاً لمناقب الشيخ أبي العباس المرسى رضى الله عنه، وهذه اللامعة سواراً لزند هذا الكتاب، وباقوة نختم بها عقد هذه الأبواب، ويتبع ذلك وصية كتبت بها إلى إخواننا بالإسكندرية وأنا إذ ذاك بالقاهرة مستهل ربيع الأول الذى هو من سنة أربع وتسعين وستمائة، ثم بعد ذلك قصيدة تضمنت وصايا ومطالبات من الحق تعالى لعبده محتتمة بمدح رسول الله ﷺ، وبها نختم الكتاب إن شاء الله تعالى جعل الله ذلك كله لوجهه الكريم بفضله.

وهذه اللامعة المنيرة والدرّة الخطيرة هى القسم الأول من الخاتمة:

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.
أما بعد: حمداً لله الواجب حمده، الثابتة علياؤه ومجده، الباهرة آياته، الظاهرة دلالاته، الذى أشرق نوره فى قلوب أوليائه فاستنارت به سموات أرواحهم، وأرض نفوسهم وأشباحهم، الله نور السموات والأرض، نور سموات الأرواح بمشاهدته، ونور أرض النفوس بطاعته وخدمته، وجعل قلوبهم مجلّة لذاته، ولظهور صفاته، أظهرهم ليظهر فيهم خصوصاً، وهو الظاهر فى كل شيء عمومًا، ظهر فيهم بأسراره وأنواره، كما ظهر فيهم وفيما عداهم بقوته واقتداره، ألسنتهم بذكره طهجة، وقلوبهم بنوره بهجة، إن نطقوا فعنه وإن استمعوا فمعه، فكلم من لواء ولاية يخفق عليهم، وكم من منشور خلافة قد خرج إليهم، أدخلهم إليه مدخل صدق بالفناء عمن سواه، وأخرجهم للخليقة مخرج صدق، باقين بنوره وستاره، فهم برازخ الأنوار ومعادن الأسرار، وصلهم لما قطعهم وفرقهم لما جمعهم، وغيبهم عنهم وعلى أسراره أطلعهم، فلو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لوسعهم. ولا عجب من اتساع أنوارهم، ولا من إحاطة أسرارهم، فإن نور قلوبهم من نور الله، قال ﷺ: «اتقوا خراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»^(١).

وأما إحاطة أسرارهم فلقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يَبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(٢).

فلهم على قدر إربهم من نبيهم صلوات الله وسلامه عليه التحقق بمقام الفردانية، والدخول إلى حضرة الوحدةانية.

(٢) الفتح: ١٠

(١) رواء البحارى فى التاريخ والترمذى وابن جرير

وسمعت ربحكم الله أن ودكم على اختلاف مراتبه عندنا مسياره، ولدينا اعتباره، فيميل القلب إليك على حسب ميلك إليه. وإن تزدد من المدد على يد عبد بحسب ما تزيد من الود فيه، كذلك رتبة الإله الحكيم والقادر العليم.

وبالجملة، فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتنال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلا إجمالاً، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ (٣).

والوفاء بالعهد: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (٤).

والتوبة قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ (٥).

والإنابة والاستسلام قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ (٦).

والاستجابة قال الله سبحانه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ (٧).

والإتياع لرسول الله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٨).

وشهود كل نعمة من الله قال الله سبحانه: ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (٩).

وشهود الهدى من الله قال الله سبحانه: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لَنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (١٠).

لا يجعل الله ما نقوله وما نسمعه حجة علينا، وجعلنا وإياكم من العباد المهتدين بحبه، الباقين على وده، المنعمين بقربه وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته، وجعلنا من أهل ولايته بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وأزواجه وسلم تسليماً كثيراً.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضي الله عنه ينشد:

وغيثي لي مغيثي قلبي وغسستني كما غييت
وكننا حيثما كانوا وكانوا حيثما كنا

والمظهر الأعلى، والبرزخ الأسنى، ومشرق الأنوار، ومعدن الأسرار، من له الفتح والختام، الحائز للمقامات العلية بالتمام، رسول رب العالمين وسيد الأولين والآخرين محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين، فهو نور الأنوار وسر الأسرار، إليه تنزل الأسرار الربانية، وعنه تؤخذ المعارف الإلهية، أخذ أهل الظاهر عنه ظاهريهم، وأخذ أهل الباطن منه باطنيهم، وقال ﷺ: العلماء وربة الأنبياء (١١)، فكل على قدر إرثه، وإرثه على قدر نوره، ونوره على قدر فتحه، وفتحته على قدر صفاء قلبه، وصفاء قلبه على قدر معرفته بربه، ومعرفته بربه على حسب ما سبق له من وجود حبه، غير أن علماء الباطن أحق بالإرث وأولى، وأقرب نسبة وأعلى، لأن علمهم تلزمه الخشية، وتكتنفه العظمة، وحقيقة

(٧) الثوري. ٤٧

(٨) آل عمران ٣١.

(٩) النحل: ٥٣.

(١٠) الأعراف ٤٣.

(٣) النساء: ١.

(٤) المائدة: ١.

(٥) البور: ٣١.

(٦) الزمر: ٥٤.

(١١) رواه أحمد وأبو داود الترمذي وآخرون عن أبي الدرداء مرفوعاً وصححه ابن حبان والحاكم وغيرهما

الإرث أن ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث على الصفة التي كان بها عند الموروث عنه. فكل صاحب علم لا تصحبه خشية فليس بأهل لأن يكون وارثاً، وقال ﷺ: «العلماء وريّة الأنبياء» أى العلم بالله لأن العلم بالله يورث الخشية له، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (١٢).

ولم تزل سلسلة الصلاح والشهادة والولاية والصدّيقية والقطبانية تمتدّ من ذلك اليرزخ الأعلى المحيط صلوات الله وسلامه عليه إلى وقتنا هذا، ولن تزال كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وسمعت شيخنا أبا العباس رضى الله عنه في قوله تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (١٣) أى ما نذهب بولى إلا ونأتى بخير منه أو مثله.

وكل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف له عن قلبه القناع، فهو في هذا الباب لقيط لا أب له، دعوى لا نسب له، فإن يكن له تور فالغالب غلبة الحال عليه، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه، لم ترصد سياسة التأديب والتهديب، ولم يُقده زمام التربية والتدريب. وشيخنا وإمامنا وقودتنا في هذا الشأن أوحده وقته، وعلامة زمنه، علم العارفين، قطب المهديين، مظهر سناء الحقيقة، ومبين معالم الطريقة، العالم بالأسماء والحروف والدوائر، الجامع لعلم الظواهر والسرائر، سيدنا ومولانا شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى الشاذلى قدس الله روحه، ونور ضريحه، هو الذى اقتبسنا من أنواره، وسلكتنا على نهج آثاره، وهو الذى أسرع بأسرارنا حتى لحقت، وفتق ألسنتنا حتى نطق غرس غراس المعرفة في قلوبنا فأينعت ثمراتها، وفاحت زهراتها.

وهو الذى يفضل الله وعدنا، وبالكلام في العلمين أشار لنا، لا نتعصب إلا إليه ولا نعتد في هذا الشأن إلا عليه؛ فمن نسبنا إلى غيره فهو بأمرنا جاهل، أو عارف متجاهل، ومن نسب تلميذاً إلى غير أستاذه فهو كمن نسب ولداً إلى غير أبيه، وهذه الأبوة أحق أن يرعى نسبها، وأجدر أن يحفظ سببها، إذ تلك الأبوة تقتقر إلى هذه، وهذه لا تفتقر إلى تلك.

وليس شيخك من سمعت منه، إنما شيخك من أخذت عنه.

وليس شيخك من واجهتك عبارته، إنما شيخك الذى سرت فيك إشارته.

وليس شيخك من دعاك إلى الباب، إنما شيخك الذى رفع بينك وبينه الحجاب.

وليس شيخك من واجهك مقاله، إنما شيخك الذى نهضك حاله.

شيخك هو الذى أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى.

شيخك هو الذى مازال يجلو مرآة قلبك، حتى تجلّت فيها أنوار ربك، نهضك إلى الله فنهضت إليه، وسار بك حتى وصلت إليه، ومازال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فرجّ بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وريك، هنالك محل الولاية من الله، ومواطن الإمداد من الله، ويساط التلقى من الله، ثم إن

شاء أبقاء في بحر الفناء غريقاء وإن شاء أرجعه إلى ساحل البقاء تحققاً وتحقيقاً.
فصاحب الفناء له التلقى من الله، وصاحب البقاء له الإنقاء عنه.
وصاحب البقاء يتوب عن الله، وصاحب الفناء يتوب الله عنه.
وصاحب الفناء قد طمست دائرة حسه، وانفتحت حضرة قدسه، وصاحب البقاء باق بربه في
حضرة قدسه.

وصاحب الفناء مدعو إلى الله، وصاحب البقاء داع إلى الله، وهو محل الخلافة والنباية مع الإذن
والتمكين، والرسوخ في اليقين داع إلى الله على بصيرة من الله، قال الله سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي
أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ (١٤). أى على معاينة ومطالعة ومشاهدة، لا أدعو إليك
وأنا غائب عنك، بل أدعو إليك وأنا ناظر إليك.

وهذا الطريق طريق الأنبياء والمرسلين، وأكابر الصديقين، وهى المقام الأكمل، والمنهج الأفضل،
فمن نسبنا إلى غير هذا الإمام مع العلم بنسبتنا فهو مكابر ومعاند، ومن نسبنا إلى غيره مع الجهل
بنسبتنا أيضاً فهو عن سبيل الرشيد حائد، يخالف لأمر ربه، غير مراقب لقلبه.
ألم تسمع إلى ما قال المولى سبحانه: ﴿وَلَا تَقُفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ
كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (١٥).

فأله سبحانه (١٦) يحقق نسبنا من هذه الطائفة، وأن يتوفانا على محبتهم، وأن يجعلنا دارجين على
مدرجتهم، وأن يزيدنا فيهم وداً، ولا يجعلنا ممن نقض لهم عهداً، منه ولطفه.
والحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وإمام
المتقين، محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.
وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١٤) يوسف: ١٠٨.

(١٥) الإسراء: ٣٦.

(١٦) لعل النص هنا «فأله سبحانه وتعالى نسأل أن يحقق» تدليل ما بعده.

وأما الوصية المكتوب بها إلى بعض إخواننا بالإسكندرية فهي هذه

بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.
سلام الله ورحمته وبركاته على الإخوان المحبين، والأوداء المحبوبين، حفظهم الله وتولاهم،
وحرسهم ورعاهم، وأوسع عليهم من فضله، وأفرغ عليهم من عطائه وبذله، وأحل قلوبهم محل
المؤانسة والتفهم، والمفاخرة والتكريم، ورزقهم الطاعة والقبول، والسير إلى الله والوصول، والإذن
من الله والدخول، وقُدس أرواحهم، وفسح في غيبه مراحهم، وبث لهم من نوره ما يكون لهم هادياً،
وأعطاهم من حفظه ما يكون لهم من أغيار الدنيا والآخرة وأقياً.

اعلموا رحمكم الله أن العناية الإلهية وإن كانت غيباً فلها شهادة تدل عليها، ودلالة تهدى إليها،
فتلمحوا عناية الله فيكم بوقوفكم على حدوده، ورعايتكم لعهوده، ألا وإن من علامة محبة الله للعبد
محبة العبد إياه، ومن علامة محبة العبد لله، أن لا يؤثر عليه شيئاً سواه، ومن علامة عدم الإينار على
الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار.

والسعيد من أعطاه الله قلباً مفكراً، وبصراً معتبراً، وأذناً تسمع من الله، ونفساً ناشطة إلى خدمة
الله، وأحق ما يعتمد العباد من حقوق الله سبحانه الشكر له، والشكر له ظاهر وباطن، فظاهره
الموافقة وباطنه شهود النعمة، فما شكره من لم يمثل أوامره وحدوده، وما حفظه من ضيع عهوده،
فعليكم رحمكم الله بالشكر لنعمه فيكم.

ألا إن أرباب الغفلة والعمى يطلبون من الله مجتدات النعم وهم لما أعطاهم غير شاكرين، وكيف
يجدد عليك نعمة أنت طالباها وقد ضيعت شكر نعمة طليتك حتى وصلت إليك، فالطالب لنعم الله
أولى ما طلب به الشكر لله، والشكر يطلب لك من المسكور، وإن كنت صامتاً، ويستجدي لك من
شكرته وإن كنت عن الطلب ساكناً، وقد ضمن الله المزيد للشاكرين وما استثنى، فقال عز من
قائل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(١).

فإذا كان قد ضمن لهم الزيادة على ما أعطاهم، فكيف لا يديم لهم ما كان منحهم أولاً، ألا إن
من أحب بقاء شيء عنده قيده بعقاله، خيفة زواله، فقيّدوا نعم الله فيكم بوجود الشكر.
ويستعان على الشكر بالنظر في أيادي المحسين، وكثرة صنائعه، وسوابق مننه ولواحفها، وبداية
نعمه وخواتمها، فإنك لم ترَ بصر الإيمان إلا وقع على نعمة سابقة، ومنية منه لاحقة.

ويؤكد ذلك عندك نظرك لمعاملتك معه، وشهودك لمعاملته معك، فإنك إن نظرت ما منه إليك لم
جد إلا فضلاً وإحساناً، وإن نظرت ما منك إليه لم تجد إلا غفلة وعصياناً.

وأصل الخيرات، ومعدن البركات، العمل بطاعة الله، والتجنب لمعصية الله، وعليكم بتصحيح
التوبة فإنه ينشئ عليها ما بعدها، وتعود بركاتها على ما قبلها، وما من مقام إلا وهو مفتقر إليها،

(١) إبراهيم ٧

وما زكت الأحوال، ولا قبلت الأعمال، ولا ثبتت مراتب الإنزال، إلا بتصحيح التوبة، وعمومها يدل على خصوصها.

ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فعم جميع المؤمنين بالخطاب بالتوبة فدل ذلك على عظيم قدرها، ويستعان على التوبة بالفكرة، ويستعان على الفكرة بالخلوة، ويستعان على الخلوة بمعرفة آفات الخلطة.

ومن علامات الوصول إلى الغايات، وجود تصحيح البدايات، ولأن يصحح الله لك مقام التوبة خير لك من أن يطلعك على سبعين ألف غيب ويفقدك إياها.

اذكر الله تعالى بلسانك، وراقبه بقلبك، فما ورد عليك من الله من خير قبلته، وما ورد عليك من ضده دفعته، رجاءاً إلى الله في الدفع والجلب، فإن خامر سرُّك شيء من ذنب أو عيب أو نظر إلى عمل صالح أو حال جميل فبادر إلى التوبة والاستغفار من الجميع، أما من الذنب والعيب فواجب شرعاً، وأما من العمل الصالح أو الحال الجميل فألته.

واعتبر باستغفار الرسول ﷺ بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، هذا في معصوم لم يقترب ذنباً قط وتقدس عن ذلك ﷺ، فما ظنك بمن لا يخلو من ذنب في وقت من الأوقات!

واعلموا أن الله قد أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات، فأى من فاته من الطاعة صنف أو أعوزه من الموافقة جنس فقد فقد من التور بمقدار ذلك فلا تهملوا شيئاً من الطاعات، ولا تستغفروا عن الأوراد بالواردات، ولا ترضوا لأنفسكم بما يرضى به المدعون من جرى الحقائق على ألسنتهم، وخلو أنوارها من قلوبهم، وإن الحق بحكمته جعل الطاعة الجارية على العباد مستقرة لباب الغيب، فمن قام بالطاعة والمعاملة بشرط الأدب لم يحتجب الغيب عنه.

وإنما حجاب الغيوب، وجود العيوب، فالتطهر من العيب، يفتح لك باب الغيب، فلا تكن ممن يطالب الله لنفسه ولا يطالب نفسه الله، فذلك حال الجاهلين الذين لم يفقهوا عن الله، ولا واجههم المدد من الله.

والمؤمن ليس كذلك، بل المؤمن من يطالب نفسه لربه ولا يطالب ربه لنفسه، فإن توقف الوقت عليه استنبط أدبه، ولا يستبطن مطلبه.

وإن ملكوت الله لا يؤذن بالدخول فيه إلا لمن طهر من آفات البشرية، وقام بوفاء العبودية، والتطهر من آفات البشرية، بالتخلق بأخلاق الله، ووجود الفناء عما سوى الله، والتحقق بالعبودية بالامتثال لأوامر الله، والاستسلام لأحكام الله، فإن تصل إلى ذلك، فلك منفسح في الغيب، ومستوطن في الملكوت وواصلك الإمداد وقابلك من الله الازدياد.

وتوصل إلى ذلك بإقلال النظر إلى الظواهر؛ ورعايتك للسرائر، وأنه لا يسفى السرائر رهان الظواهر، إلا أن يكون معها خالص حب يباشر القلوب وإشراق نور يذهب بظلمة الذنوب، وإنما طال عليهم الطريق لأنهم لم يسلكوها على منهج حق، ولم يدخلوها فيها مدخل صدق، ولو أنهم فعلوا لم تحتجب عنهم المطالب، وكان ما يطلبونه لهم طالب.

بيان واعتبار وإشراق أنوار

لا تتفقد الوقت بظهور الواردات، ولا بكثرة الطاعات، ولكن انظر إلى ثقتك بالله، وإجلالك لأوامر الله، وترك الاختيار مع الله، فإن وجدت ذلك عندك ولا يوجد واحد منها إلا وجد بقيتها فاعلم أن الله بك عناية أبداها، وودائع أخفاها، وأشكره على ما أسدى، واحمده على ما أهدى، واعلموا رحمكم الله أن ودكم على اختلاف مراتبه عندنا مسياره، ولدننا اعتباره، فعمل القلب إليك على حسب ميلك إليه، ولن يزد من المدد لعبد على يد عبد إلا بحسب ما يزيد من الوُدّ فيه، كذلك رتبته الإله الحكيم، والقادر العليم.

وبالجملة فأعيان المطلوبات من الأدب الباطن وامتنال الأمر الظاهر لا تحصرها الوصايا إلا إجمالاً، ويشمل جميع ذلك التقوى، قال الله سبحانه: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ والوفاء بالعهد قال الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ والتوبة قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ والإنابة والاستسلام قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ﴾ والاستجابة لله قال الله عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ﴾ والاتباع لرسوله ﷺ قال الله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ وشهود كل نعمة من الله قال الله جل ذكره ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ وشهود الهدى من الله قال الله عز وجل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ لا جعل الله مانقوله وما نسمعه حجة علينا، وجعلنا وإياكم من العباد المهتدين الدائمين على حبه، الباقين على وده، المنعمين بقربه، وأفرغ علينا وعليكم من نور عنايته^(١)، وجعلنا من أهل ولايته، بمنه وكرمه آمين.

والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا ومولانا محمد نبيه وحبيبه وعبيده كثيرًا.
وهذه القصيدة الموعود بها:

سوى بالقرب من كنف الحبيب	فلا والله ما طابت حياة
وعد عن الأجسار والكثيب	فلا تقتر سوى داراً لسعدى
تفتت من حبّات القلوب	وما لاقى الأحبة مثل بعد
فلا يسأم مقاساة الكروب	ومن يعشق معسزة شروداً
ولا ترضى بسدون من نصيب	ودونك فاستبق نحو المعالي
وسسّد نحوه سهم المصيب	ولا تقنع بغير العز مرقى
أقمت بموطن النكس الكثيب	وأنهض همة إن لم تثرها
فكم شمس بدت بعد الغروب	ولا تيشس وإن طالت ليال
فلن العز في ذاك الدعوب	ولا تسأم من التدآب يوماً

(١) تكرر من أول قوله: وبالجملة فأعيان المطلوبات في اللامعة المنيرة والذرة الخطيرة، وفي وصيته للإخوان بالإسكندرية، ولا مانع من تكراره في كليهما

فذاك الفتح في نظر الأريب
 فتعم الرب من مولى مجيب
 فليس لغيره كشف الكروب
 فتقطع عنك نفحات الغيوب
 تجلت فيك عن فرج قريب
 فإن الله غفار الذنوب
 فتحرم رتبة الرجل اللبيب
 وكس الله من سر غريب
 وتنع عنك سوفور النصيب
 ويلهو عن مراقبة الرقيب
 أحاط به فعجبك من عجب
 فتخشى قهر علام الغيوب
 مهين إن بدع نيج الأريب
 ألم يخرجك من غم الكروب
 وعرفك التساول للنصيب
 وأعطاه مودات القلوب
 يسائره إلى وقت المشيب
 إلى أن يرتدى ثوب الأريب
 من الرحمن ينذر من قريب
 ودأ كسان في غيب الغيوب
 ولا تجنح إلى مرأى قشيب
 ويوم «ألت» فاذا ذكر يا حبيب
 وحفظ العهد من شيم اللبيب
 ونقطة دارة الأمر الغريب
 وأستر ذاك بالأمر العجيب
 فليتك لو أجبت لمنجيب
 لحضرتنا وتعمل في الدؤوب
 وهيبته تقلقل للقلوب
 من العذب الجنى المستطيب
 كتوس اللطف من كنف الحبيب
 عروس الحسن تجلى للبيب
 إذا ألقيت سمعك من قريب
 ترى الأسرار تسرع للقريب

ولا تحزن إذا ما فسات قان
 ولا ترضى بغير الله ذخراً
 ولا تشكوا لغير الله ضراً
 ولا تسكن لغير الله يوماً
 فكم من كربة عظمت وجلت
 ولا يمنعك ذنب من رجاء
 ولا تحزن إذا ما ضاق عيش
 وكم لطف خفى في كفاف
 وكم من محنة في اليسر تدرى
 ولا يس حلة للوفر يزهو
 يجهله الغنى وصف افتقار
 ألم تعلم بأن الله فرد
 ألم يخلقك من ماء مهين
 ألم يودعه في الأرحام دهرًا
 ألم يجرى له الشدين رزقًا
 ألم ينعم عليه بهد لطف
 وهذا الهد ليس له براج
 وأسقط عنه تكليفًا وأسرًا
 فحين أتى البلوغ أتى بلاغ
 رضيع اللطف لا تنسى ودادى
 ريشة فضلتنا والجسود أسرع
 لطيفة كوننا لا تنس عهدى
 وقد أعطيتني عهدًا وثيقًا
 ألم أجعلك سرًا في وجودى
 ألم أظهر صفاتك فيك جهراً
 ألم يأتك إرسالي وأمرى
 أتاك كلامنا لتجد سرًا
 كلام ليس يشبهه كلام
 لطائفه على الأسرار أحلى
 إذا تليت ميانيسه أديرت
 وآية آية تليت تراها
 وأنوار وأسرار تراها
 إذا ناديت كلا يساعدي

وليس إجابتي قولاً ولكن
وقد أرسلت خير الخلق طراً
أق بالمنهج المختار يدعو
أق والأرض قد ملئت ظلاماً
فكتشف ظلمة كانت وظلماً
وخصّصه الإله بكل فضل
وقال: ومن يطع خير البرايا
وفيها قال لنا بسامعوه
أزال الكاف كاف ذاك كاف
هو السياق غايات المعالي
وإن القول يقصر عن علاه
فصل ربنا أهدنا عليه
على آل النبي وكلّ صحب
فهم خير القرون ومن هدانا
وأحمد ليس يرجو في معاد
ووالده محمد فاعف عنه
وعبدك يا كريم فجدّ عليه
عطاء الله والسده أبحه
على الإسلام فافضني سلباً
كذلك جميع من واليت فيكم

يسئل الجهد في طوع الحبيب
ليمحو نوره رين القلوب
إلى الرحمن بالسمر الغريب
وكل الخلق في أمر مريب
بشمس هدى تنزه عن غروب
وأعطاء مسودات القلوب
يطعن هكذا فعل الحبيب
فخار بأن للفطن الأريب
وحسبك منه من سر عجيب
هو الكشف أزمت الكروب
كفاء ثناء علّام الغيوب
وسلم في الصباح وفي الغروب
صلاة لا تمّل من الدعوب
بهم رب العباد من الذنوب
سوى جاء النبي لذي الكروب
وداركه بلطف من قريب
وسلفه إلى أوفى نصيب
منالاً منك ستار العيوب
من الآفات بمحو الذنوب
ووالاني بإجزال النصيب

وهذا آخر الكتاب، والحمد لله رب العالمين،
وصلّى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليماً كثيراً إلى
يوم الدين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، اهـ.

محتويات الكتاب

صفحة	
٧	مقدمة المحقق
١٦	مناجسة
١٩	كتاب لطائف المنن لأبي العباس المرسى
٢١	مقدمة المؤلف
٢١	الولاية «يحب للمحقق»
٢٨	منهج المؤلف في الكتاب
٢٩	حديث الشفاعة
٣١	الإيمان يزيد وينقص
٣٢	الأنبياء خلقوا من الرحمة ومحمد ﷺ عن الرحمة
٣٤	إعلام وبيان
٣٩	شأن الولاية والولي
٤١	مقابلة الحق لم أدى أوليائه
٤٦	انعطاف : الولاية ولايتان : ولي يتولى الله ، وولي يتولاه الله
٤٧	فوائد في هوله تعالى ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ الفائدة الأولى والثانية والثالثة
٤٨	الفائدة الرابعة
٤٩	الفائدة الخامسة
٤٩	الولاية الثانية : ولاية الإيمان
٥١	حقيقة العرب
٥٢	تأويل حديث «من عرف نفسه عرف ربه»
	يحب للمحقق حول برهنة الرسول على صدقه ويحدثي العرب بصدقه
٥٣	دون الخنوح إلى إنيات وجود الله سبحانه
٥٤	الداعى إلى الله يكسوه الله كسوتين : الحلاله والبهاء
٥٧	مراتب الحب : لله وفي الله وبالله ومن الله
٥٨	الحب لله في عسرة
٦١	سراب المحبة
٦٢	يحب للمحقق في المحبة
٦٣	انعطاف : من مواهب الله لأوليائه
٦٦	فصل : في كرامات الأولياء
٦٧	يحب للمحقق في الكرامة

٦٩ أمور تسهل الإيمان بالكرامة
٧١ سوء خاقة من ينكر الكرامات
٧٢ الكرامة تظهر للولي وتظهر لغيره
٧٢ الناس في الكرامة على ثلاثة أقسام
٧٥ <u>الباب الأول في التعريف بالشيخ الساذلي شيخ أبي العباس المرسى</u>
٨٧ كرامات القطب خمس عشرة
٩١ <u>الباب الثاني في شهادة الشيخ لأبي العباس بأنه الوارث للمقام والحائز لقب السبق بالتمام</u>
٩٩ <u>الباب الثالث في مجريات ومنازلات أبي العباس المرسى</u>
١٠٧ <u>الباب الرابع في علمه وزهده وورعه... إلخ</u>
١١٦ فائده : حكم أولياء الله في بدايتهم
١٢٥ <u>الباب الخامس في بيانه لبعض الآيات</u>
١٣٩ <u>الباب السادس في بيانه لبعض الأحاديث</u>
١٤١ في حديث حارمة عسر فوائد
١٤٦ في حديث حنظلة بماني فوائد
١٥١ <u>الباب السابع في تفسيره لما أسكل من كلام أهل الحقائق</u>
١٥٥ <u>الباب الثامن في كلامه في الحقائق والمقامات</u>
١٨١ <u>الباب التاسع فيها قاله من الشعر أو قيل بحضرته</u>
١٨٩ <u>الباب العاشر في ذكره ودعائه</u>
١٩٦ حزب النور لأبي الحسن الساذلي
١٩٩ حزب الشيخ أبي الحسن الساذلي
٢٠٢ خاتمة
٢٠٦ الوصية إلى الإخوان بالإسكندرية
٢٠٨ بيان واعتبار وإنشائي أنوار
٢٠٨ القصيدة الموعود بها
٢١١ محتويات الكتاب

رقم الإيداع	١٩٩٩/١٥١٢
الترقيم الدولي	ISBN ٣- 977-02-5725-7

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
 طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع. ٠)



يُعدُّ الإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود صاحب ورائد مدرسة الفكر الإسلامي والتصوف في العصر الحديث . ولقب بأبي التصوف في العصر الراهن ، فقد أترى المكتبة العربية بأمنيات الكسب بين تحقيق وتأليف وترجمة ، فمنها دراساته القيمة عن الإمام الغزالي وكتابه ، المنقذ من الضلال ، و ، دلائل النبوة ، و ، القرآن في شهر القرآن ، إلى جانب ما كتبه عن رواد التصوف على مر العصور الإسلامية المختلفة .

والإمام الأكبر فضيلة الدكتور عبد الحليم محمود له عمق وغزارة الآراء الفقهية ودقة الاجتهادات مما جعله يكسب صفوف المعارضين قبل المؤيدين ، إلى جانب اللباقة والدراية الكاملة في عرض أي موضوع أو مسألة تتعلق بأمر الدين . وأيضا يمتاز بقوة ورصانة الأسلوب والعبارة ، مما يدل على المهارة الفائقة والملكة اللغوية فلهذا اكسب هذا العالم الجليل احترام كل الفرق والمذاهب الإسلامية في شتى بقاع العالم . وسيبقى هذا العالم وتراثه في قلوبنا على مر العصور .

قسم الفنون : محمد أبو طالب



دار المعارف

...١٧٨/٠١



To: www.al-mostafa.com